Digitized by Birzeit University Library

بئر زيت
BEERZEIT COLLEGE

لجنة النشر للجامعيين

A398A
SPC
BP
75
A461
1945
RBK

محمد رسول الله

صلعم

٧٢٧
BEERZEIT COLLEGE

تأليف

مولاى محمد على

رئيس الرابطة الاسماعيلية بالهند

مكتبة جامعة بير زيت

ترجمة

مصطفى فهمى

يطلب من
مكتبة مصر بشارع الفجالة رقم ٦٣

Digitized by Birzeit University Library

أحمس	عبد الحميد جوده السحار	مايو سنة ١٩٤٣
رادوبيس	نجيب محفوظ عبد العزيز	يولية سنة ١٩٤٣
أبو ذر الغفارى	عبد الحميد جوده السحار	سبتمبر سنة ١٩٤٣
قنابل	محمود تيمور بك	نوفمبر سنة ١٩٤٣
اخناتون ونفرتيتى	على أحمد باكثير	ديسمبر سنة ١٩٤٣
ثلاثة رجال وامرأة	عبد القادر المازنى	يناير سنة ١٩٤٤
أقاصيص	لنخبة من الأساتذة	فبراير سنة ١٩٤٤
سلامة القس	على أحمد باكثير	مارس سنة ١٩٤٤
ويك عنتر	عادل كامل	ابريل سنة ١٩٤٤
بلال مؤذن الرسول	عبد الحميد جوده السحار	مايو سنة ١٩٤٤
ع الماشى	ابراهيم عبد القادر المازنى	يونية سنة ١٩٤٤
حديقة أبى العلاء	كامل كيلانى	يولية سنة ١٩٤٤
كفاح طيبة	نجيب محفوظ عبد العزيز	أغسطس سنة ١٩٤٤
خريف امرأة	إبراهيم المصرى	سبتمبر سنة ١٩٤٤
قصر الهودج	على أحمد باكثير	» سنة ١٩٤٤
عشاق العرب	كامل محمد عجلان	أكتوبر سنة ١٩٤٤
مليم الأكبر	عادل كامل	نوفمبر سنة ١٩٤٤
فى الوظيفة	عبد الحميد جوده السحار	ديسمبر سنة ١٩٤٤
محمد رسول الله	مصطفى فهمى	يناير سنة ١٩٤٥

تحت الطبع :

عطر ودخان	محمود تيمور	فبراير سنة ١٩٤٥

Digitized by Birzeit University Library

الفصل الأول

العرب وبلادهم

« إن أول بيت وضع للناس
للذى ببكة مباركاً وهدى للعالمين »
« قرآن كريم »

شبه جزيرة العرب

تشغل البلاد التى عرفت باسم «جزيرة العرب» ، مكاناً وسطاً من نصف الكرة الذى يشمل آسيا وأفريقية وأوربا ، فجزيرة العرب من العالم القديم بمنزلة القلب منه ؛ وهى الأرض التى ولد فيها النبى محمد عليه الصلاة والسلام ، خاتم الأنبياء الذين أتوا بكتب تدعو إلى الهدى ودين الحق .

ويكاد الماء يكتنف بلاد العرب من كل جانب ، فهى تحد من الجنوب بالمحيط الهندى ، ومن الغرب بالبحرين الأحمر والأبيض المتوسط ، ومن الشرق بخليج فارس ونهرى دجلة والفرات ، اللذين يتغلغلان فى أرضها شمالا . وكانت تضم فيما سبق ، كما ورد فى كتب التاريخ والجغرافيا القديمة ، الأرض المعروفة بالعراق وسورية الشمالية ، وإن كانت مصورات الجغرافيا الحديثة لا تعتبرهما جزءاً أصيلا من بلاد

Digitized by Birzeit University Library

العرب . وبغض النظر عن العراق وسورية الشمالية : لا تقل مساحة بلاد العرب عن ١٫٢٠٠٫٠٠٠ ميل مربع ، يغمر ثلثها رمال الصحارى والقفار ؛ وصحراؤها الكبرى تعرف بالدهناء .

الحجاز

تنقسم بلاد العرب الأصلية إلى عدة ولايات ، من بينها الحجاز ، حيث يوجد البيت المقدس (الحرام) ، وسمى بذلك لأنه منذ القدم كان موضع الاحترام والتبجيل ، وكان الاعتداء بكافة ألوانه محرما فى حمى البيت العتيق .

وقد ورد ذكر الحجاز فى التوراة ، كتاب اليهود المقدس ، باسم (باران) ، ومدنه المهمة هى مكة ، والمدينة ، والطائف . ويمتد الحجاز على طول ساحل البحر الأحمر ؛ وجدة وينبع ثغران رئيسيان ، تنزل بهما طوائف الحجاج فى كل عام . ويحد الحجاز شرقاً بولاية نجد وجنوبا بعسير أحد أعمال اليمن .

اليمن

هى الولاية الثانية . وتقع فى أقصى جنوب بلاد العرب . ومن أعمالها الأحقاف وحضر موت . واليمن أخصب الولايات . فكانت أكثرها تمدينا ، ولا يزال بها حتى الآن آثار كثيرة من عمائر عظيمة ؛ وقديماً أقيمت بها السدود والجسور ، لضبط تصريف مياه السيول الساقطة من الجبال ؛ للاستفادة منها فى الزراعة . وأشهرها سد مأرب ، الذى ورد ذكر تخريبه فى القرآن الكريم . وكانت اليمن مركزا هاما للاتجار بالمواد المعدنية ، والأحجار الثمينة ، والتوابل ، التى اشتهرت بها بلاد العرب قديما . وفى اليمن قامت أمبراطورية عاد القوية ، التى جاء ذكرها فى القرآن : وهذه البقعة هى المعروفة باسم الأحقاف . أما حضر موت فهى الإقليم الذى يقع فى الطرف الجنوبى لبلاد اليمن على امتداد ساحل المحيط الهندى ، وعاصمته صنعاء . أما عدن فميناؤه

Digitized by Birzeit University Library

الأول . وفى شمال صنعاء تقع نجران ، وفيها انتشرت النصرانية قبل ظهور الإسلام ، ومنها قدم وفد النصارى ، وحظى بالمثول بين يدى الرسول صلى الله عليه وسلم ، وسمح له بالنزول بجامع النبى . وفى شمال نجران تقع عسير ، وسط الربع الجنوبى من بلاد العرب . وليس فى جزيرة العرب أنهار تستحق الذكر ، غير أن بها جداول قليلة مبعثرة هنا وهناك ، ينتهى بعضها إلى البحر ، وتذهب مياه سائرها فى رمال الصحراء . وتخترق البلاد فى وسطها - من الجنوب إلى الشمال - سلسلة الجبال المعروفة بجبل السراة . وأعلى قمة فيها ترتفع إلى ثمانية آلاف قدم . أما المحصول الرئيسى للبـــلاد فهو التمر ، وقديماً اشتهرت بلاد العرب بذهبها ، وفضتها ، وأحجارها الثمينة ، وتوابلها . والجمل هو أنفع وأفيد الحيوان الذى استوطن بلاد العرب . أما الخيول العربية فلا نظير لها جمالا وسرعة وبأسا .

العراق وسورية

العراق وسورية يكونان جزءاً متمماً لبلاد العرب ، مع أن التخطيط السياسى الحديث قد فرق بينهما وبين الأرض الأصلية . أما العراق فتمتد أراضيه بمحاذاة فارس . وقد أسس به فى خلافة عمر مدينتا البصرة والكوفة ، اللتان أصبحتا فيما بعد مركزين هامين للدراسات الإسلامية : وكتاب الخطط من العرب يعتبرون الحد الشمالى للجزيرة هو شاطىء الفرات . وفى أرض العرب يقع جبل سيناء ، حيث تجلى الله لموسى ، وهنالك قامت دولة العمالقة ، واشتد سلطانهم وعظم بأسهم .

نجد

والولاية الثالثة فى بلاد العرب هى نجد ، ويمتد إلى شرق جبل السراة الذى يجتاز قلب بلاد العرب . وهو سفح خصب يعلو سطح البحر بقرابة ٣ ــ ٤ آلاف قدم . وفيه كانت تقيم

Digitized by Birzeit University Library

قبيلة غطفان ، التى غزاها النبى فيما بعد للقصاص منها . وتحيط الصحراء بنجد من جوانب ثلاثة ، إلا من الجنوب حيث تقع اليمامة ، وبها سكن (بنو حنيفة) ، وفيهم ادعى النبوة مسيلمة الكذاب .

عمان

فى الجنوب الشرقى لبلاد العرب ، بمحاذاة خليج عمان ، تمتد الأراضى المعروفة بعمان ، وعاصمتها هى مسقط ، وسلطانها مستقل استقلالا اسمياً . وفى شمال عمان الجزء المعروف بالبحرين أو الأحساء ، الشهير بلآلئه ؛ وقريب منه تقع الحيرة ، التى كانت مملكة فى يوم ما .

الحجر

الحجر مهد ثمود وفيهم بعث صالح النبى ، وهو مكان جدير بالذكر ، وموقعه شمالى المدينة على الطريق المؤدية إلى تبوك التى مر بها النبى . وفى غرب الحجر تقع (مدين) ، منزل قوم شعيب . وشمال المدينة خيبر التى كانت فى يوم من الأيام معقل اليهود الرئيسى .

مكة والكعبة

أسلفنا أن مدن الحجاز الرئيسية ثلاث : مكة ، والمدينة ، والطائف . أما الطائف فقد ساعد على شهرتها — فوق وقوعها عند قمم الجبال — جودة هوائها ووفرة الماء والزرع والفاكهة فيها ، لذلك كانت المصيف العام لأشراف الحجاز . غير أن أشهر مدن الحجاز المدينة ، ومكة أو بكة التى عرفت أيضاً بأم القرى ، وعدد سكانها الآن (سنة ١٩٣٣ م) حوالى ٥٠ ألف نسمة ، وهى العاصمة الروحية والدينية لبلاد العرب منذ نشأتها ، لأن بها البيت الحرام : الكعبة ، التى كانت محط رحال الحجاج من كل فج فى بلاد العرب منذ فجر التاريخ . وقد علق السير وليام موير على قدم البيت (الكعبة) فى كتابه : حياة محمد بقوله : « لا شك أن للبيت العتيق قيمة تاريخية كبيرة ، ففد كتب (داريوس سيكولوس) قبل التاريخ المسيحى بنصف قرن عن الجانب

المشرف على البحر الأحمر من بلاد العرب ما نصه : (يوجد فى هذه البلاد معبد تجله العرب جميعا إجلالا كلياً) . ولا مرية فى أن هذه الكلمات تعنى الكعبة ، البيت الحرام بمكة ، لأننا لم نسمع ببيت آخر له مثل ما للكعبة من التجلة والتوقير عند العرب جميعا . وقد تواترت الأخبار بأن الكعبة كانت منذ الأزل محط رحال الحجاج من كافة أرجاء بلاد العرب ، فكانت تأتيها الوفود لإقامة شعائر الدين فى كل عام : من اليمن وحضرموت وشواطىء الخليج الفارسى ، ومن صحراء سورية ومن البلاد النائية كالحيرة والعراق ، ولابد أن يكون هذا التوقير الواسع المدى راجعا إلى العصور السحيقة .

ولإثبات قدم الكعبة استند السير وليام موير إلى الحقائق التاريخية ، والروايات الشفوية ، مما تناقلته الألسن على مر الأجيال ، وأيد القرآن ذلك ، فوصف الكعبة بأنها « أول بيت وضع للناس » ، وبمعنى آخر أنها أول بيت على وجه الأرض خصص لعبادة الله ، ومن هذا البيت بزغت لأول مرة أشعة نور الهداية . وإنه لتوفيق عجيب أن يحظى هذا المكان بميلاد خاتم الأنبياء . وإلى هذا البيت تدين مكة بشهرتها ؛ ومن عهد سحيق — لا يقل عن ٢٥٠٠ سنة قبل الميلاد — كانت مكة محط استراحة للقوافل بين اليمن وسورية ؛ ويشهد القرآن أن البيت الحرام وجد قبل إبراهيم : (ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم) ، والآية دليل على أن الكعبة كانت موجودة من أزمان قديمة .

المدينة

كانت تسمى قبلا يثرب ، وعندما اختارها النبى للإقامة بها فيما بعد عرفت بـ « مدينة الرسول » ، واشتهرت بـ « المدينة » ، فهى مدينة تاريخية تذكر بعض الأسانيد أن تأسيسها يرجع إلى عام

Digitized by Birzeit University Library

٢٦٠٠ ق. م. سكنها العمالقة، ومن بعدهم اليهود، ثم الأوس والخزرج - وعندما نزل بها النبي كانت هذه الأقوام الثلاثة الواردة الذكر هي قوام سكانها . والشعبان الأخيران (الأوس والخزرج) هما من يعرفان فيما بعد بالأنصار . وفي السنة الرابعة عشرة من نزول الوحي، هاجر النبي من مكة إلى المدينة حيث قضى باقي أيام حياته . وفي المدينة قبضه الله إلى جواره ، وبها قبره حتى الآن . وهي على بعد ٢٧٠ ميلا إلى شمالي مكة . والمدينة — تخالف مكة — لا تشكو جدباً ، وهي إلى جانب مزارعها النضرة كثيرة الكروم والفاكهة ، وجوها في فصل الشتاء ألطف من جو مكة .

أصل العرب

عاد وثمود وطسم وجديس أعرق قبائل العرب حسب الاستقصاء التاريخي ،وما ورد في القرآن . وقد عرفت هذه القبائل العريقة بـ «العرب البائدة» ، وما أن انقرض قوم نوح حتى ظهرت (عاد) في أثرهم، وامتد استيطانها واستعمارها لأراض أوسع وأبعد من بلاد العرب. وتدل الأسانيد التاريخية على أنهم استولوا على بلاد العرب ومصر وغيرها من الأقطار ، وعند ما دالت دولتهم ظهرت ثمود وقويت وعظم شأنها . وبعدئذ بنو قحطان الذين جاءوا من اليمن موطنهم الأصلي. وفي أيام حكمهم اتسع سلطانهم وعظم نفوذهم ، ومن سلالتهم خرجت الأوس والخزرج . وعرفت هذه القبائل في التاريخ بالعرب العاربة ، أي العرب الخلص .

إسماعيل وسلالته

وبعد هذه القبائل جاء إسماعيل ، الذي عرفت سلالته بالمستعربة . وقد أمر الله تعالى أباه أن يتركه ووالدته هاجر في المكان الذي أقيمت به الكعبة . ولكن ليس هنالك ما يثبت — فيما أعتقد — أن إبراهيم أقصاهما بناء على إلحاح زوجه

الأخرى سارة . وإن ما جاء فى الحديث الشريف ينفى نفيا باتا ما قيل من أن هاجر سألت زوجها عن سبب إقصائه لها ، وهل هو نزول على مشيئة سماوية ؟ وإجابة ابراهيم عليها بالإيجاب ، ورواية القرآن تؤيد هذا.

وفيما بعد رفع الوالد والولد - بأمر ربهما - قواعد البيت المقدس : الكعبة ، لأنها كانت فى حال سيئة من التهدم : (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت) . فلما أتما ذلك ابتهلا إلى الرحمن بدعاء جاء ذكره فى القرآن على هذا النحو: (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم) . وقد تحقق دعاؤه فى شخص النبى صلى الله عليه وسلم ، ولهذا قيل إن الرسول دعوة إبراهيم.

وكثر نسل إسماعيل، وتفرق أحزابا وقبائل ، كانت إحداها قريش، التى تسلسلت من النضر ، ومن قريش خرجت أفخاذ وبطون، كان النبى سلالة أحدها ويعرف ببنى هاشم .

Digitized by Birzeit University Library

الفصل الثانى

الجاهليـــة

« ظهر الفساد فى البر والبحر »
(قرآن كريم)

الجاهلية

وصف القرآن الحقبة السابقة لدعوة النبي بالجاهلية الأولى، فأجمل القرآن فى كلمتين اثنتين ما كان يحتاج شرحه ووصفه إلى عدة أسفار . والآية الكريمة التى صدرنا بها هذا الفصل تصور مبلغ التدهور الذى هوت إليه العرب ، من عبدة أصنام ويهود ومسيحيين بلا فرق . فهى تنطق بأن الفساد كان متفشياً فى العالم بأسره . وليس معنى هذا أن العالم لم تمر به فترات هداية وإصلاح ، بل الهداية والإصلاح اللذان قام بهما الأنبياء المختلفون ، وظهروا على التوالى فى شعوب مختلفة ، كانا قد اختفيا تماماً ، لطول الوقت وتقادم العهد ، مما هوى بأمم الأرض جمعاء إلى حال سيئة من الانحلال . وقد جاءت هذه الآية على لسان رجل لم يشك أحد فى أنه كان أمياً ، ولم تتح له فرصة الطواف بالعالم لدراسة حالات مختلف الأمم والشعوب، ولم يستفد من وسائل النشر والإذاعة الحديثة، حتى يتسنى له تعرف ما تجرى عليه الأمور فى شتى بقاع العالم : ومع ذلك فإن ما ورد فى أسفار التاريخ يتفق، بل يؤكد صحة ما كان يتنبأ به تأكيداً يلفت النظر ، ويثير الاهتمام .

ومع أنه كان فى الجنوب الشرقى من أوربا وقتئذ إمبراطورية قوية

Digitized by Birzeit University Library

مزدهرة ، إمبراطورية روما المسيحية ، فإن أوربا كانت غارقة فى الهمجية . أما آسيا فهى القارة الوحيدة فى الأرض ، التى كانت يوماً ما مبعث المدنية ، غير أنه بدراسة مختلف أقطارها التى كانت مهد الفلسفة والديانات ، نجد أن الفساد المستطير كان مسيطراً عليها ، سائداً فيها : حتى الهند التى كانت فى عصر ما مركز الثقافة الشرقية ، بدت فى نفس الصورة البشعة ، وحتى من كان ينظر الناس إليهم نظرة التأليه ، أخذت عليهم فى حياتهم ملوثات السمعة ؛ وكذلك كانت فارس والصين غارقتين فى نفس الوهدة . ويرجع ذلك بلا ريب إلى أن قروناً مضت منذ ظهور الرسل السابقين . وأن الإصلاح الذى تم على أيديهم قد ضعف على مر الأيام ، ثم عفا ودرس . قال القرآن الكريم : « فطال عليهم الأمد ، فقست قلوبهم » .

Emotions as the basis of civiliz. by Devison

كتب كاتب معاصر يقول : فى القرنين الخامس والسادس كان العالم المتمدين على شفا السقوط فى هاوية الفوضى ، لأن العقائد التى تعين على إقامة الحضارة كانت قد انهارت ، ولم يك ثمة ما يعتد به مما يقوم مقامها . وكان يبدو وقتئذ أن المدنية الكبرى التى تكلف بناؤها جهود أربعة آلاف سنة مشرفة على التفكك والانحلال ، وأن البشرية توشك أن ترجع ثانية إلى ما كانت عليه من الهمجية ، إذ القبائل تتحارب وتتناحر ، لا قانون ولا نظام . أما النظم التى خلفتها المسيحية فكانت تعمل على التفرقة والانهيار ، بدلا من الاتحاد والنظام ، فكانت المدنية التى تشبه شجرة ضخمة متفرعة ، امتد ظلها إلى العالم كله ، واقفة تترنح ، وقد تسرب إليها العطب حتى اللباب ؛ وبين مظاهر هذا الفساد الشامل ولد الرجل الذى وحد العالم المعروف جميعه .

Digitized by Birzeit University Library

النصرانية في حالة الوهن

جاء محمد بعد عيسى . فكان من الطبيعي أن نجد بين المسيحيين بقايا من الفضائل والتدين ، وليس معنى هذا أن الحالة لم تكن سيئة . ولنرجع إلى ما شهد به كتاب المسيحية أنفسهم . قال أحد أساقفة الكنيسة : « إن المملكة السماوية كانت قد قلبت رأساً على عقب ، وإن جهنمية حقيقية قد أقيمت على الأرض بسبب فساد النفوس » وقال السير وليام موير : « إن النصرانية في القرن السابع كانت متداعية ، فاسدة ، عاجزة بسبب الانشقاق والتشاحن . وكانت قد استبدلت بصفاء عقيدة الأيام الأولى السخف والخرافات » .

هذه صورة النصرانية في حالتها العامة . وأما الاعتقاد في وجود إله واحد ، فكان قد اختفى منذ زمن طويل ، وعقيدة الثالوث المقدس قد أثارت الاختلافات العديدة المعقدة ، وتنافست الشيع والطوائف الكثيرة ، مظهرة الحذق واللوذعية في التفسير وإزالة الشك حول أحجية كيف أمكن الإنسان أن يصبح إلهاً ، وكيف أمكن أن يصير الثلاثة واحداً ، وهكذا ، وأدى هذا إلى ظهور تلال من مؤلفات الجدل والمناظرة باعدت بين الانسان والغرض الحقيقي من الديانة ، قال جيبون Gibbon يعلق على الحادث الشهير حرق النصارى المتعصبين مكتبة الإسكندرية ، فأتى بملاحظة ذات معنى حين قال : « ولكن إذا كانت مجموعة الجدل والمناظرة بين الآريين والوحدانيين (والأخيرون فريق من النصارى يعتقد أن للمسيح طبيعة واحدة) قد استهلكت في الخامات العامة ، فلا يسع الفيلسوف إلا الابتسام الخفيف وكأن نهاية هذا الأمر جاءت في مصلحة الإنسانية » .

وفوق هذا فإن أوضار النصرانية كالخمر والميسر والزنا كانت مطلقة العنان في تلك الأيام .

Digitized by Birzeit University Library

ذكر دوزى عن الإمام على من حديث له عن بنى تغلب : « كل ما أخذوه عن الكنيسة هو معاقرة الخمر » . وباختصار إن المسيحية ، وهى آخر الديانات ظهوراً ، كانت قد تدهورت ، ولم تعد قادرة على النهوض باصلاح ما . وصدق القرآن فى وصف تدهور البشرية بقوله : « ظهر الفساد فى البر والبحر » .

الشعر العربى

كان الشعر فى بلاد العرب قد بلغ القمة . والشعر الجاهلى على جانب كبير من البراعة والحذق ، ومع أن فن الكتابة لم يكن مجهولا لدى العرب ، فإنهم لم يستغلوه لمصلحة ما إلا فيما ندر . وإن شعر الجاهلية وصل إلينا عن طريق السماع والرواية ، إذا استثنينا المعلقات التى كانت تسجل كتابة لتعلق على أستار الكعبة . والبراعة فى نظم الشعر لا تنهض دليلا قاطعاً على منزلة القوم من المدنية والسمو الروحى .

والاهتمام بالشعر ديدن كل الجماعات، حتى البدائى منها ، وليس بمستبعد هذا فى العرب . لأنه لم يكن لديهم ما يعكفون عليه ، ويكرسون جهودهم له ، غير نظم الشعر . ومع هذا فإن الشعر الجاهلى خال من اتساع الأفق ، والسمو والتعالى فى التفكير ، التى لا تأتى بها إلا الثقافة الروحية . وكل ما يمكن أن يباهى به ، هو جمال اللفظ وجرس موسيقاه .

طبيعة العرب

لا ريب أن فى العرب سجايا نبيلة ، وخلالا حميدة ، فكرم الضيافة ، وتعشق الحرية ، والجرأة ، والشجاعة ، والرجولة والوفاء للقبيلة ، هى بعض فضائلهم التى لا يجاريهم فيها أحد . ولكن مهما بلغت تلك الشيم ، فإنها مرجوحة بالهمجية ، التى كانت تسيطر على القبائل فى الجاهلية . ولذلك لم تعد تلك الشيم دليل الرقى والتحضر . فإن العربى بجانب فيض كرمه للضيف ، كان لا يتورع عن سلب المارة

Digitized by Birzeit University Library

فى الطريق . وعلى الرغم من إمعانه فى حب قبيلته — الذى لا غبار عليه — فإنه بالغ فيه حتى تجاوز الحد المعقول ، وإن مناقشة تافهة بين الأفراد، كانت كافية لإشعال حرب مستعرة، وخلق عداوة مستحكمة، وثأر يتوارثه الخلف عن السلف ، على تطاول الأجيال .

الوثنية العربية

لا شك أن العرب كانت تؤمن بإله واحد إيماناً سطحياً لاتعمق فيه ، وعملهم اليومى يكذب معتقدهم، لأنهم كانوا منكبين على الوثنية، يسود اعتقادهم أن العلى العظيم ، قد عهد إلى نفر من الآلهة والإلاهات والأصنام بالسيطرة على العالم ، فكانت العرب تولى وجهها شطر الأصنام ، تبتهل وتتضرع فى طلب رضوانها وشفاعتها ،فى كل ما يقدمون عليه من الأمور . وهكذا كان اعتقادهم خاويا فارغا ، لايبدو له أثر فى شؤونهم اليومية . ولم يكتفوا بالأصنام ، فكانوا يعتقدون أن الهواء والشمس والقمر والكواكب تتصرف فى أمرهم ، ومستقبل حياتهم ،وعبدوها بهذه الصفة . وقد هووا إلى الحضيض فى عبادتهم. فعبدوا قطع الحجارة والأشجار وتلال الرمال . وكانوا يخرون ساجدين أمام أية قطعة جميلة من الحجر يصادفونها فى طريقهم . فإذا أعجزهم العثور على مثل هذا الحجر الجميل ، عبدوا كومة من الرمال بعد أن يكونوا قد حلبوا ناقتهم عليها . وكانوا ينظرون إلى الملائكة كأنهم « بنات » . كذلك عبدوا الرجال المشهورين ، ونحتوا لهم الأصنام لعبادتها . ثم إذا لم يمكن جمال الحجر وحسن نحته وعبادته، فأى حجر غير مشذب يؤدى الغرض ، فإذا خرجوا إلى سفرة حملوا قطعا أربعا من الحجارة : ثلاثا منها لموقد النار والرابعة للتعبد . وفى بعض الأحايين لم يكن ما يدعو لحمل حجر خاص للتعبد ، فأى حجر معبد،كانت أثا فى الموقد تقوم مقامه متى انتهت عملية الطبخ ، وفوق الـ ٣٦٠ صنما التى كانت

Digitized by Birzeit University Library

مقامة بالكعبة ، فقد كان فى كل منزل صنم خاص . وباختصار غدت الوثنية طبعاً ثانياً فيهم ، وأثرت فى حياتهم اليومية ومختلف نواحيها . والأساس فى معتقدهم أن الله قد خلى انفر من الآلهة بعض تصرفات مثل شفاء المرضى ، والإتيان بالذرية والنسل ، وإبعاد المجاعة ، وإقصاء الوباء ، ولم يكن من اليسير الحصول على المنة السماوية إلا بوساطتهم وشفاعتهم ، فكانوا يخرون أمامها ساجدين ، ويطوفون من حولها ، ويتقدمون إليها بالقربان زلفى ، وينزلون لها عن قسم من نتاج أراضيهم ومواشيهم قربانا .

ومن هذه الوثنية الحاطة للقدر ، سما النبي الكريم ، ببلاد العرب كلها ، فى فترة وجيزة من الزمن ، قدرها عشرون عاماً : ولم تقتلع جذور الوثنية من أرض العرب وحدهم ، بل إن بارقة الحماس لعبادة إله واحد ، قد اشتعلت فى أفئدة هؤلاء العرب أنفسهم ، فحملتهم إلى أقصى حدود ما عرف من العالم وقتئذ ، لرفع اسم الأحد الصمد . ولم تفت سعة المسافة فى عضد النبي الذى قام بدعوته ، فانتشلت بلاداً شاسعة لاتقل مساحتها عن ١٫٢٠٠٫٠٠٠ ميل مربع من لعنة الوثنية ، انغمس فيها الناس انغماساً ميئوساً من مقاومته ، لقدم العهد بتقاليد متوارثة ، ومحمد بهذا يستحق لقب محطم الأصنام ، ومزيل الوثنية . أليست هذه أكبر معجزة شهدها العالم ؟

السخرية من الدين

بجانب عبادة الأصنام ، تأصلت فى بلاد العرب عبادة الكواكب . فاعتقد بعضهم أن حياة الإنسان خاضعة لانتقال الأجرام السماوية . فما يصادفه الرجل فى حياته ـ من خير أو شر ـ معزو إلى تأثيرها . وكان يوجد فريق منهم لايثق البتة بوجود

Digitized by Birzeit University Library

إله ما ، وضاعت ثقته فى عودة الروح ، وجحد اليوم الآخر ، ونظر إلى الدين كأنه ضرب من الفكاهة والسخرية ، واستخفوا حتى بالأصنام التى اعترفوا بعبادتها . وقد قيل عن الشاعر المعروف - امرىء القيس - إنه عند ما قتل أبوه ، استخار الأصنام بالطريقة التى كانت متبعة يومئذ بين العرب ، لكى يعرف أيثأر لأبيه أم لا .

وكانت الطريقة أن يكتب على أحد سهمين كلمة نعم وعلى الآخر لا . لكى يعرف أيشرع فى أمر أم لا . وكان معهما سهم ثالث غفل من الكتابة ، فإذا سحب الأخير فمعنى ذلك أن يعيد السحب من جديد .

فسحب امرؤ القيس القداح ثلاث مرات ، وفى كل مرة يخرج القدح الثانى (المعلم بلا) ، فهاجت هائجته ، وألقى بنشابه فى وجه الصنم صارخاً : يالك من تعس شقى ! لو أن القتيل أبوك لما نهيتنى عن الأخذ بثأره .

الحياة الاجتماعية

هذه كانت حال اللادينية والوثنية فى بلاد العرب . أما حياتهم الاجتماعية فكانوا يجهلون المبادىء الأولية للفضائل الاجتماعية ، ومناهج حياتهم يستحيل معها أى تطور لأية فضيلة اجتماعية ، التنازع بين القبائل هو شغلهم الشاغل ، يعوزهم الاستقرار والاطمئنان اللازمان لبذر الفضائل الاجتماعية ، ينشب العراك بين القبائل والعشائر فى كل آونة وإلا فهم على أهبة الاشتباك . يحيون حياة بدوية رحلا يهيمون فى البيداء — ومعهم ماشيتهم « من مكان إلى مكان » ، يضربون خيامهم المصنوعة من صوف الإبل أينما وجد الماء والعشب ، فهم قليل يسكنون القرى ، وأقل يسكنون المدن ، فكيف تقدر فى مثل هذه الظروف أن تجنى العرب ثمار الاستقرار ؟ ؟

Digitized by Birzeit University Library

لاقانون ولانظام

لم يكن هنا لك حكومة مركزية تعزز جانب القانون والنظام فى البلاد. وكانت البلاد منقسمة إلى مناطق نفوذ لاعداد لها، كل قبيلة تؤلف وحدة سياسية منفصلة ومستقلة. أما الدول الصغيرة القليلة المبعثرة هنا وهناك، فكانت أضعف من أن تثبت القانون على قدميه. ولكى ينتزع أحدهم حقه من الآخر كان عليه أن يلجأ إلى قوة ساعديه. لكل قبيلة سيد من بينها يقودها فى عراكها ضد القبيلة الأخرى لاسترداد حقوقها. ولم يكن هنا لك قانون ما يربط القبيلة بالدولة. بل كان كل مستقلا لايدين بولاء أو طاعة إلى أية سلطة مركزية، ولكن ما كاد الإسلام يظهر حتى ظهر معه الاتحاد القومى.

يقول موير: «وأشد ما يسترعى النظر هو تفرق العرب وقتئذ إلى جماعات لاعداد لها، لها نفس الطبائع والعادات، تتكلم فى معظمها لغة واحدة، وتسير وفقاً لناموس واحد غير مخطوط، أساسه الشرف والأخلاق المتوارثة. ولكنها (أى القبائل) جد متفرقة، كل منها مستقل عن الآخر، لا تعرف الهدوء والاستقرار. وكثيرا ما تكون فى حرب مع القبائل الأخرى، حتى التى تربطها بها روابط الدم أو المنفعة، لأتفه الأسباب تدب الجفوة، وتثار العداوة، بلا رحمة ولا هوادة. وهكذا فى عصر ظهور الإسلام كان ماضى تاريخ العرب أشبه بقلابة الألوان لاتستقر على حال من الجمع والتفريق، ولهذا كانت كل محاولة للاتحاد العام تذهب هباء. ولكن كان لابد من إيجاد حل للمسألة، وأين القوة التى تستطيع إخضاع هذه القبائل، وجذبها إلى نقطة الارتكاز؟ لقد أتى محمد صلى الله عليه وسلم وتمت بظهوره المعجزة.

وقد أوجز القرآن الكريم فى وصف هذه الحالة البشعة التى كانت عليها العرب فى ذلك الحين، والتى شملت جميع مناحى الحياة، فى كلمات معدودات

Digitized by Birzeit University Library

« وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها » .

وكان العداء إذا اشتعلت ناره ، دام عدة أجيال، من أجل أشياء تافهة، كـكلمة استخفاف ، ومخالفة هينة فى سباق الخيل، وتلك كافية للتطويح برقاب المئات ، واسترقاق الأسرى طول حياتهم .

هذه هى البشرية الهاوية الساقطة ، التى سما بها النبى صلى الله عليه وسلم إلى ذروة الاستقامة النفسية والخير والتقوى ، فجمع الشتات المتناثر فى إخاء عام ، لاضريب له فى تاريخ العالم ؛ يالله من انقلاب عظيم ؟ إنها المعجزة كما قال أحد الكتاب المعاصرين فى كتابه « بواطن وظواهر العراق » : (١)

« شعب فشت فيه الفرقة، وصعب توحيده — إلى أن وقعت المعجزة، فقام رجل ، بفضل شخصيته وقوة رسالته ، داعيا إلى الرشد ، وكان أن أتى بالمستحيل ، فاتحدت الزمر المتعاركة ! »

مركز المرأة

نزلت المرأة مكاناً حقيراً فى المجتمع العربى ، فإذا أغضينا عن أغانى العشق والهيام والتغزل فى محاسن الحبيبة ، وكلها وليدة الشبق الجنسى ، فإن المرأة لم تكن لتعامل بخير مما تعامل به السوائم .

فكانت عادة تزوج المرأة بأكثر من زوج واحد ، وهى من خصائص عصور الفطرة الأولى للإنسان ، شائعة بين العرب فى ذلك الزمن ؛ ولم يكن هنالك حد لعدد الزوجات التى يستطيع الرجل أن يعاشرهن ؛ وبجانب جموع الخليلات هذه كان فى استطاعته — إن شاء — الاختلاط بأى عدد آخر من الخليلات؛ وكانت الدعارة صناعة معترفا بها بينهم ، والأسيرات اللاتى يستخدمن كوصيفات أو خادمات يرغمن على

(١) Ins & Outs of Mosopotamia.

Digitized by Birzeit University Library

كسب المال لأسيادهن من هذا الطريق الشائن المزرى ؛ والنساء المتزوجات كان يسمح أزواجهن لهن بمجامعة أى رجل من أجل الذرية والنسل، وهذا ما كان يسمى بالاستيضاع ، وهو شبيه «بالنيوجة» القائمة بين الهندوس حتى الآن . وكانوا ينظرون إلى المرأة كأنها من الأغنام ، لاتستولى على أى نصيب من تركة زوجها المتوفى، أو أخيها أو أقربائها ، وهى نفسها تورث كأنها جزء من تركة المتوفى، فكان للوارث مطلق الحرية أن يتصرف فى أمرها كيفما شاء : إن شاء تزوجها ، وإن شاء زوجها بمن يفرضه عليها، فعندما يموت الأب يستطيع الابن الزواج من أرملة أبيه، باعتبارها جزءا من الميراث . وكانت طريقة الطلاق المتبعة بينهم لاتقل عن ذلك وحشية ، كان للرجل أن يطلق إحدى نسائه طلاقا بائناً ، وأن يعود بها فيدخل من جديد ، دون استيفاء عدة ، وأحيانا يقسم ألا يقربها ، وأحيانا يظاهر منها ، فيحرمها على نفسه ، وحينئذ يتركها معلقة : لاهى بالزوجة ، ولا هى بالطليقة ؛ وما اتخذ مثل هذا إلا للنكاية بها ، ولم يكن أمامها أمل للخروج من هذه الوهدة ؛ وكان الأسلوب الجارى فى العلاقات الجنسية من أبشع وأخش مايكون : وكانت مغامرات الحب وقصص الاتصالات الآثيمة، تروى فى جرأة وقحة، وفخار عار عن كل شعور بالخجل، فى منظومات غاية فى البذاءة . وسيدات الطبقة الراقية تعنون باسمهن قصائد الغزل علنا ؛ فإذا ماقدرنا الحالة التى كانت عليها الأشياء السارية بين العرب ، فيما يخص المرأة ومركزها ، فليس من العسير أن نقدر الدين الثقيل من الاعتراف بالجميل ، الذى يدين به النسوة لمحمد صلى الله عليه وسلم ، الذى رفعهن من قاع الحضيض إلى درجة عالية من الاحترام والكرامة . والمدنية الأوربية الحديثة، التى تحترم الجنس اللطيف احتراما سطحيا، عجزت عن

Digitized by Birzeit University Library

منحهن مامنحهن الإسلام من حقوق . إن الاحترام الحقيقى لهن هو احترام حياتهن ، فى المساواة بينهن وبين الرجال فى الحقوق، مما لانجد له نظيرا فى المجتمع الغربى ، لسوء الحظ .

ولنلق — على سبيل الموازنة — نظرة على الارتقاء الذى أحدثه الإسلام فى مركز المرأة . فقد فرض القرآن أن تكون حقوق المرأة على الرجل مماثلة لحقوق الرجل عليها : « ولهن مثل الذى عليهن » . وقد جاءت هذه الآية — إذا جاز التعبير — بمثابة الدستور لتحرير المرأة . وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم « إن أحسنكم من أحسن إلى زوجه » . إن بذر بذور احترام المرأة فى بلاد اعتادت أن ترى النبل فى وأد بناتها ، ليس بالعمل الهين ، ولا هى بالخدمة الضئيلة للانسانية . فعندما كان يسمع الأب بميلاد ابنة له، كان يتقنع وجهه من الحزن والغضب معاً ، فكان على العربى إما أن يئدها حية ، وإما أن يتعرض للمهانة الاجتماعية والإملاق ، فكان يأخذ ابنته إلى الصحراء ويقفها على شفا حفرة يكون قد أعدها من قبل ، ويلقى بالطفلة الصارخة الناحبة بيديه ، ويهيل عليها التراب إلى أن يدفنها حية ، وقد حدث أن سمع النبى ، صلى الله عليه وسلم بحادث كهذا ، فانفجرت دموعه شفقة ؛ وكان يجرى أحيانا الانفاق الصريح عند عقد الزواج على قتل السلالة من البنات ، وفى مثل هذه الحالة كان من واجب الزوجة . . الأم ، أن ترتكب هذه الفعلة الوحشية، وكانت تقوم بذلك فى جمع من نساء الأسرة وقد دعين خصيصاً لمشاهدة هذه المأساة الشنيعة ؛ ولكن الإسلام وضع حداً لكل هذه البشاعات التى تقشعر منها الأبدان دفعة واحدة بالآية الكريمة : « وإذا الموءودة سئلت، بأى ذنب قتلت » ؛ ولم تتكرر هذه القسوة المخيفة المفزعة

Digitized by Birzeit University Library

ولا مرة واحدة بعد ذلك ؛ ويقف محمد فى هذه الناحية منفرداً بغير نظير له فى تاريخ العالم ، وخدمة الإنسانية .

الخمر

ومعاقرة الخمر كانت من الرذائل التى انغمست فيها العرب بشكل ميئوس من إصلاحه . فكانت المسكرات تقدم عدة مرات فى النهار الواحد ، ولم يكن بيت واحد يخلو من عدة جرار من النبيذ ، ولكن بمجرد أن نزلت الآية : « يأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والانصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه » ، حطمت الجرار التى كانت تحفظ بها الأنبذة تحطيما ، وألقى بقطعها إلى عرض الطريق ؛ وقد روى أن الخمر جرت فى طرق المدينة كمياه المطر ؛ وعادة شرب الخمر التى دامت قروناً طويلة قد اقتلعت من جذورها فى طرفة عين ، وأصبح الامتناع العام هو السائد المألوف .

الميسر

وبقية أخرى متأصلة فى المجتمع العربى ، هى التسلية العادية بالمقامرة لتمضية الوقت فى كل يوم ، ومن يمتنع عن اللعب كان يوصف بالبخل والتقتير . ولكن تعاليم محمد وقوة روحه المعنوية ، قد قضت على الميسر قضاء سريعاً وأبرأت بلاد العرب من هذا الشر المستوطن .

التطير والخزعبلات

لم يكن للعرب ثقافة تذكر . فمن كانوا يفكون طلاسم المخطوطات كانوا يعدون على الأصابع ، وولدت الجهالة الخزعبلات والعقائد الفاسدة ، وقد انكبوا على مختلف المعتقدات الغريبة والشاذة ، فاعتقدوا فى وجود الجن والأرواح الشريرة ، التى كانوا يتقون شرها بحرق البخور فى الأماكن المهجورة ، وإليها كانوا ينسبون وقوع بعض الأمراض ، التى لبسوا التعاويذ والرقى دفعاً لها ، وكانت الروح الإنسانية فى نظرهم عبارة عن مخلوق صغير ضئيل ، يندس فى الجسد عند الميلاد ، ويذهب نامياً ، وعند الوفاة تغادر الروح الجسد ، وتبقى هائمة

Digitized by Birzeit University Library

حول قبره . وكانوا فى أيام إمساك السماء عن المطر يوثقون بذيل بقرة بعض العيدان والأعشاب اليابسة، ثم يشعلون فيها النار، ويقودون البهيمة إلى الجبال . لاعتقادهم أن لهيب النار شبيه بوميض البرق ، وأن هذا التشابه كان لاستدرار المطر . وعندما تصيبهم مصيبة يدخلون إلى بيوتهم من الباب الخلفى . كذلك كان التطير شائعاً ، فإن مرت الطير من اليمين إلى اليسار كان التشاؤم ، أما إن مرت من اليسار إلى اليمين فقد كانوا يتفاءلون بذلك . ومن يؤمنون بالعودة بعد الممات كانوا يربطون إلى قبر المتوفى جملا . ويتركونه يموت جوعاً ، معتقدين أن المتوفى سوف يمتطى صهوة جمله يوم البعث ! ! ويعتقدون أيضاً أن الروح البشرية - إذا فاظت - تقمصت جسم طائر يسمونه الهامة ، وظلت جاثمة فوق قبره ، فإن كان مقتولا أخذ الطائر فى النواح صائحا: اسقونى اسقونى، إلى أن يؤخذ بثأره . وكانوا يعتقدون فى المنجمين والعرافين، ويثقون ثقة مطلقة فى كل مايقوله هؤلاء . وباختصار ، هذه ومائة غيرها من الخزعبلات كانت تجتاح بلاد العرب فى أيام الجاهلية السابقة للإسلام .

وفى خلال سنوات معدودات أمكن محمد عليه الصلاة والسلام أن يحررهم من أغلال هذا الرق المتوارث، ويرفعهم إلى ذروة الفضيلة والثقافة . وعبثا يقلب التاريخ صفحاته ليجد مثيلا لهذا الاصلاح الشامل، والارتقاء بأمة هاوية ماهوت العرب . إنه عمل جليل ولاريب .

الفصل الثالث

موجات الاصلاح فى بلاد العرب

« لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم ،
« فهم غافلون » قرآن كريم

الأنبياء الذين أرسلوا إلى بلاد العرب

أرسل النبيون إلى مختلف بقاع بلاد العرب . فمنهم من سبق الشيخ الوقور إبرهيم ومنهم من جاء بعده . وقد جاء ذكر بعضهم فى القرآن . فأرسل هود لهداية (عاد) التى استوطنت أرضاً باليمن تعرف بالأحقاف ، كما أرسل صالح إلى ثمود ، النازلين بالحجر ، وهى أرض بشمال المدينة . وهذان النبيان قد سبقا إبرهيم ، على حين أرسل من بعده إسماعيل إلى أهل اليمن ، وشعيب إلى مدين ، وقد ورد فى المخطوطات القديمة — وعن طريق السماع — إن قوم عاد كانوا ذوى بأس ، أقاموا إمبراطورية واسعة ، تجاوزت حدود بلاد العرب ، ويبدو أنه قد أرسل إليهم رسل سابقون لهود الذى وافق ظهوره ، عصراً من أسوأ عصور التدهور والانحلال ، ولما لم يعيروه اهتماماً جازاهم الله شر ذلك .

وقد ذهبت دولتهم أدراج ريح عاتية ، هبت عليهم من الصحراء الواقعة شمال الأحقاف : المعروفة بالربع الخالى . أما ثمود فقد اعتصمت بالجبال ، وقدت بيوتها من صخورها : « وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين » ، ولكن عند ما جاء أجلهم المحتوم ، لم تجدهم معاقلهم فتيلا ، فذهبوا ضحية زلزال عنيف .

Digitized by Birzeit University Library

ومن يتأمل مصور بلاد العرب ، ير أن رسالة هود وإسماعيل كانت موجهة بنوع خاص إلى أهل الجنوب ، وأن صالحاً وشعيباً قد أوفدا إلى أهل الشمال ؛ أما الوسط — الحجاز — فبقى بدون رسول . على أن زيارة إبرهيم لمكة، وتركه ابنه إسماعيل هناك، ثم رفعه عمد الكعبة فيما بعد ، قد أدى كل هذا إلى اقتران اسمه ببعض الأماكن هناك .

اليهودية فى بلاد العرب

وصلت عبادة الأصنام إلى منتهاها فى بلاد العرب، خلال الافتقاد الإلاهى للرسل الإسرائيليين . وقد اعتنقت إحدى ملكات اليمن الدين الذى يهدى إلى إله واحد على يدى سليمان، فأحدث ذلك شبه رجة فى معتقد العرب المتوارث . أما اليهود فقد نزلوا بهذه البلاد حوالى القرن الخامس قبل الميلاد، وظلوا بها إلى أن أخرجهم بختنصر من ديارهم ؛ وكان يشيع فيهم عدة تنبؤآت بظهور نبى عربى، يكون خاتم الرسل . نزلوا هنالك واستقر بهم المقام، وأصبحت خيبر مستعمرة يهودية محضة . ولما ثبتت أقدامهم شرعوا يدعون لدينهم .

وحوالى القرن الثالث قبل الميلاد، انتحل ملك اليمن — ذو نواس — اليهودية . فكان ذلك بمثابة دفعة جديدة إلى الأمام ، لاستعادة الهداية العبرانية . وعلى مر الأيام علا شأن اليهودية ، واشتدت سطوتها ، واتسع نفوذها فى بلاد العرب ؛ ولكن أغلب الأمة العربية ظل عاكفا على دين آبائه المتوارث : عبادة الأصنام ؛ وبعد حياة قصيرة زالت اليهودية شيئاً فشيئا ، تاركة العرب كسابق عهدهم .

المسيحية فى بلاد العرب

وتلا هذه موجة أخرى من الإصلاح ، فقد أخذت الإرساليات النصرانية تتدفق على بلاد العرب فى القرن الثالث من الميلاد، واستوطنت نجران ،وكان يعزز نشاطها فى الدعوة إلى المسيحية ، ويشد أزرها ، النفوذ السياسى البيزنطى

Digitized by Birzeit University Library

المسيحيتين المجاورتين لبلاد العرب، وهما مملكة الحبشة فى الغرب، والقيصرية الرومانية فى الشمال؛ وكان من جراء ذلك أن مقاطعة نجران بأسرها - الواقعة بين عسير وصنعاء - قد تنصرت. ولكن لم تتقدم النصرانية بعد ذلك قدما واحدة، عدا نفر قليل، من المتنصرين الجدد هنا وهناك فلم تترك النصرانية أثراً ذا شأن فى بلاد العرب الأصيلة؛ وهكذا باءت المحاولة الثانية لإصلاح بلاد العرب بالإخفاق التام.

الحنيفيون

أما الحركة الإصلاحية الثالثة، فكانت حركة داخلية، عندما ظهرت قبيل الإسلام مدرسة جديدة ذات عقيدة تدعى بالـ «حنيفية»، كان قوامها فئة قليلة من الرجال العقلاء، الذين أنفوا من عبادة الأصنام، على أنهم لم يجنحوا إلى العبرانية أو النصرانية، فكانوا يعبدون إلهاً واحداً، ولكنهم ما كانوا ليشغلوا أنفسهم البتة بشأن إصلاح الحياة الاجتماعية فى بلادهم؛ وكان من أثر اشمئزازهم من عبادة الأصنام أن انحاز فريق منهم - قليل العدد - إلى النصرانية، أمثال ورقة ابن نوفل، ابن عم خديجة، وعبد الله بن جحش ابن أخت حمزة. لكن أغلبيتهم لم تجد مايرضيها ويشبعها، لا فى اليهودية ولا فى النصرانية؛ ومن بين هؤلاء - وأشهرهم - زيد بن عمرو بن نفيل، عم عمر، وأمية بن أبى الصلت الشاعر المعروف سيد الطائف. ولم يبد هؤلاء حماساً فى إذاعة معتقدهم الجديد، على أنهم لم يخفوا نفورهم من عبادة الأصنام. وجاهروا بالدعوة إلى وحدانية الله مؤكدين أنها الدين الذى دعا إليه إبرهيم. وعلى الرغم من ضعف هذه الحركة، وضيق حيزها كانت بلا ريب ذات وجود. لم تعر الشرور الاجتماعية فى بلاد العرب بالا، لان همها الوحيد كان الابتعاد عن عبادة الأصنام، أو عبادة إله واحد

وفشلت هذه الحركة - كسابقتيها - فى البروز عن السطح تاركة

Digitized by Birzeit University Library

العرب ولم يتأثروا بها أدنى تأثير . والواقع أنها كانت أضعف بكثير من الحركتين اليهودية والنصرانية .

إخفاق جميع حركات الاملاح

بين اليهود والعرب امتزاج ولحمة نسب ، فكلاهما من أصل واحد ، لغتهم وأخلاقهم وعاداتهم على تشابه عظيم . وكلاهما يجل كل الإجلال الشيخ الوقور إبرهيم . وقد اعتنق اليهودية ملك اليمن أخصب بلاد العرب ، فالذى كان مقدراً ومحتملا أنه بفضل توافر هذه القوى لمصلحة اليهودية ، أن تكون ذات تأثير نافذ قوى ، كاف لضمان اعتناق الجزيرة العربية بأسرها لليهودية ، ولكن العرب ثبتت ثبات العصى المنيع . فكانت كحجر الماس أمام جميع هذه المؤثرات . وجاءت النصرانية بعد ذلك تحمل رسالة جد جديدة . وما كانت تدعو إليه من وحدانية الله كان كثير الشبه بالفكرة التى كانت لدى العرب وقتئذ عن الألوهية . كما ان الوثنية المتفشية بين العرب ، كانت شديدة الشبه بالوثنية اليونانية ، التى منها خرجت عقيدة الثالوث المقدس المسيحية : والقديس بطرس الواضع الحقيقى للأسس الكنسية النصرانية كما نقلت إلينا ، قد صاغ عقيدة الوحدانية اليهودية فى قالب من الوثنية ، ليجعلها محببة وفاتنة للب الشعوب المعاصرة ، وكلهم من عبدة الأصنام : فترتب على ذلك أن استمالت المسيحية عدداً كبيراً من بين هؤلاء ؛ وكان فيها مادة أخرى جد جاذبة للعرب . إذ أنها لم تفرض عليهم احترام القانون ، وهو تحرر كان يناسب ما عليه حياة العرب فى ذلك الحين . ولما لم يكن لهم قانون دينى عاصم ، أو قانون دينوى رادع ، ألقى أبناء الصحراء الفطريون بأنفسهم فى حمأة الفسق والفجور بغير ضابط . فقد فسحت المسيحية المجال لإشباع نزعاتهم وميولهم الخليعة الداعرة ، فكان معتقدا سهل القبول ، لقلة القيود فيه : وإلى جانب هذه المغريات الفطرية ، كان لدى المسيحية ميزة القوة

الدنيوية لتزكيتها لدى العرب : فالقيصرية الرومانية العظيمة فى الشمال، والمملكة الحبشية فى الغرب ، وانتحال إحدى ولايات اليمن للنصرانية ، والتسلط الذى كان للمسيحية على ولايتى الحيرة وغسان، هذه الأوضاع المتعددة كلها كانت فى مصلحة النصرانية ، فكان تنصر الجزيرة بأسرها مسألة وقت وزمن . ولكن على الرغم من كل ذلك أخفقت الكنيسة فى خلق تأثير ذى قيمة ، إلا أنها بتساهلها قد أيقظت من جديد شهوات العرب الكامنة نحو الخمر والجنسية .

أما الحركة الثالثة — الحنيفية — فكانت حركة داخلية محضة فى نشأتها، ولم تعمل من أجل إصلاح المجتمع العربى ، فقد كرست جهودها نحو غرض واحد ، هو استبدال عبادة الأصنام بالوحدانية : ومع أنه ليس بالبرنامج الواسع المطامع ، لم يلق فى أرض العرب ما لقيته الحركتان السابقتان من توفيق وقتى ، فكانت أضعفهن ، وربما كان ذلك راجعا إلى افتقارها إلى سند دنيوى، يظاهرها وترتكز عليه .

ومما يجب ملاحظته، أنه قبل ظهور النبى ظهرت دعوات ثلاث ، كلها يرمى إلى هداية بلاد العرب : وقد عملت طوال القرون مع كل الميزات التى تستطيع القوة الدنيوية أن تمدها بها ، وهذه الدعوات قد انقشعت كسحابة صيف ، ويظهر بعد ذلك رجل بمفرده ، لا نصير له ولا معين، يأتى بما عجزت عنه الدعوات السابقة، ويحقق فى سنوات معدودات معجزة انقلاب ليس كمثله انقلاب فى العالم، يقتلع جذور الوثنية الزائفة المشينة، بل إنه سما بأمة العرب فى شتى المناحى، وأبرأها من سقم الفساد العميق الغور .

ضد بلاد العرب وإزاء هذا فإن العين الفاحصة المتبصرة، لن يفوتها أن تفطن عن الهداية إلى يد الله، التى كانت تعمل من وراء الغيب، وهى التى أعانت

Digitized by Birzeit University Library

النبي صلى الله عليه وسلم على النهوض بهذا الانقلاب الجوهري ، في الدين والأخلاق والعادات والمجتمع كله، في مدى عشرين عاما ! وهو تغيير لم يشهد التاريخ له ضريباً . وقد اعترف السير وليام موير — وهو قطعاً ليس بناقد محاب للنبي — بمعجزة هذه الهداية حين يقول : « في حداثة محمد كانت حالة الجزيرة جد جامدة ومحافظة ، وربما لم يكن الإصلاح ميئوسا منه في أية مدة مضت كما كان في ذلك الحين ، فقد كانت أية محاولة للاصلاح تبدو كأنها مجرد شعبذة لعدم أهلية وكفاية القائم بها ، ولكن ما ظهر محمد حتى هبت العرب في الحال إلى تلبية الدعوة الروحيه الجديدة ومن هنا جاء الاعتقاد بأن العرب كانوا مهيئين للانقلاب، وعلى استعداد لقبوله . ولكننا نرى ونحن ندرس الماضي في هدوء وتريث، أن تاريخ ماقبل الإسلام يكذب هذا الادعاء وينفيه ، فبعد خمسة قرون من التبشير والتنصير لا نرى إلا قلة من المهتدين إلى المسيحية . وقصارى القول — بعد درس المسألة من الناحية الدينية — أن سطح بلاد العرب كان من وقت لآخر تعتريه رجفة نصرانية خفيفة ، وأن الأثر اليهودي كان أقوى، وتمكن مشاهدته من وقت لآخر، على تيار أكثر عمقاً وأكثر حركة، تيار الوثنية المستوطن مع الخزعبلات الموروثة، كان سائراً بعنف، متجهاً شطر الكعبة من جميع أنحاء بلاد العرب — كان دليلا واضحا على أن ديانة القرشيين كانت مستولية ومتسلطة على عقول العرب ، بما يشبه العبودية العنيفة ، والرمد الذي لا منازع فيه » .

وعاد يقول في مقام آخر :

لم تكن بلاد العرب — قبل ظهور النبي — على استعداد ما لتقبل أية هداية دينية، أو اتحاد سياسي، أو نهضة حيوية قومية، وكان أساس العرب هو الوثنية العميقة، المتأصلة، التي — على مر القرون — قد ثبتت قدميها

صمدت صماء لا يؤثر فيها شيء ، ولم يكن هناك أية بادرة ملموسة ، تشعر باستعدادها لتقبل شتى محاولات التنصير ، الوافدة عليها من مصر وسورية

وهكذا أرسل النبي كنذير إلى قوم هم أعداء لكل إنذار أو تبشير لا يستمعون إلى أي نصح أو هداية ، فقد سخروا وهزئوا من جميع المحاولات السابقة ، التي سعت إلى هدايتهم ؛ ولكن توفيقاً معجزاً أتى به محمد، فأثمرت جهوده، وتمت المعجزة على يديه، فهدى الأمة المستعصية على جهود الهداة.

الفصـــــــل الرابع

التبشير بظهور النبي صلى الله عليه وسلم

« الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذى
يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل »

النبي المرتقب

لم يخل كتاب من الكتب السماوية قبل مبعث الرسول من التبشير بظهور النبي محمد ، وكانت الأخبار بذلك مستفيضة فى الأمم ، ولعلها من الأسباب التى دعت اليهود والنصارى إلى استيطان أرض الجزيرة العربية ، التى وصفتها الأسفار المنزلة بأنها أرض النبي المنتظر ، ونحن نورد هنا باختصار بعضاً من هذه الأخبار :

حكى القرآن أن مجيء النبي أخبر به جميع من سبقه من الأنبياء ، وأنهم قطعوا العهد والميثاق على شعوبهم بقبول دعوته لمجرد ظهوره . وقد أبلغوا أقوامهم أن آية صدق النبي المرتقب شهادته وإقراره برسالة من سبقه من الأنبياء . واقتضت إرادة الله أن تكون الرسالات الأولى على يد نبي أرسل لهداية شعب معين ، وقتما كانت شعوب الأرض فى حياة معزولة ، لم تعرف بعد وسائل الاتصال الحديثة : ولكى يستخلص من الأديان ديناً واحداً ، ويجمع العالم فى إخاء عالمى واحد ، بعث الله محمداً رسولا ، وجعل رسالته عامة للبشر كافة . وإذ كان الرسول هو البشارة السارة كان عليه أن يصدق رسالة من سبقه من الأنبياء ، ويخبر أمته بها ، فى مكانها وزمانها : وتلك ميزة لم تتوافر لغير النبي محمد .

Digitized by Birzeit University Library

وشرط الإيمان فى دينه الاعتراف بجميع من سبقه من الرسل ، وفى الآيات الأولى من القرآن وصف للمؤمن ، قال الله تعالى : « والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك » . وأما عن إرسال رسول إلى كل أمة ، فقد قال الله تعالى : « وإن من أمة إلا خلا فيها نذير » . وفى مناسبة أخرى يقول : « ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ، ورسلا لم نقصصهم عليك » .

والنبى محمد فريد فى أنه معترف بهم ، معترف به ، وغاية التحقيق أنه خاتم هذه الزمرة المباركة من الأنبياء ، وهو ما اعترف به جميع من سبقوا من الرسل .

تبشير إبراهيم

تنحدر سلالة الإسرائيليين والإسماعيليين من أصل واحد ، هو إبرهيم ، وإن كانت تفاصيل الرسالة المقدسة ، التى نزلت على إبرهيم ، لم تصل إلينا كاملة ، فإن ضوءاً لا بأس به قد ألقى على وعد الله فى ذرية إسحاق وإسماعيل ، كما جاء ذكر ذلك فى سفر التكوين من التوراة : ويشير القرآن إلى ذلك الوعد : « وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن ، قال إنى جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتى ؟ قال لا ينال عهدى الظالمين » . وفى دعاء إبرهيم وإسماعيل إلى الله : « ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ، إنك أنت العزيز الحكيم » . وفى التوراة نص لوعد الله إبراهيم قبل ميلاد إسحاق وإسماعيل :

الكتاب المقدس

« فأجعلك أمة عظيمة ، وأباركك ، وأعظم اسمك ، وتكون بركة ، وأبارك مباركيك ، ولاعنك ألعنه ، وتتبارك فيك جميع قبائل الأرض » . وقد ورد اسم إسماعيل نفسه فى سفر التكوين من التوراة : « وأما إسمعيل فقد سمعت لك فيه ؛ هأنا أباركه وأثمره وأكثره كثيراً جداً ، اثنى عشر رئيسا يلد ، وأجعله أمة كبيرة »

Digitized by Birzeit University Library

أما بظهور النبي فقد خرج من بين شفتي موسى : « سأرسل
إليهم نبياً من بني إخوتهم مثيلك ، وأضع في فمه كلامي ». نبوات موسى
ولم يدع واحد من أنبياء بني إسرائيل الكثيرين ، الذين تسلسلوا من بعد
موسى إلى المسيح ، أنه النبي المنتظر ، وذلك لعدة أسباب واضحة ، فإن
خلفاء موسى ما جاءوا إلا ليتموا رسالته ، وما كانوا ليماثلوه .

وكانت هذه البشارة شائعة بين اليهود ، الذين كانوا يرتقبون - جيلا بعد جيل - نبياً مثيلا لموسى ، ويبدو ذلك جلياً في شهادة يوحنا المعمدان ، حين أرسل اليهود إلى أورشليم كهنة ولاويين ليسألوه : من أنت ؟ فاعترف ولم ينكر وأقر : إنني لست المسيح . فسألوه : إذاً من تكون أثيليا « إلياس » أنت ؟ فقال : لست أنا . « أذلك » النبي أنت ؟ لا .

وهذا يثبت بجلاء أنهم كانوا في انتظار ثلاثة أنبياء مختلفين ، أولهم إلياس - الذي ظنوا أنه سيظهر بجسده ، وثانيهم المسيح ، وأخيراً نبي ذو شهرة عالمية ، حتى إنهم لم يروا ضرورة إضافة صفة أخرى إليه ، فاكتفوا بقولهم : « أذلك » النبي أنت ؟ وكلمة « ذلك » كانت وافية بالإشارة إلى من يقصدون . هذا مثل من أمثلة كثيرة عن ذيوع نبوءة موسى بين اليهود بنبيء يماثله ! فمن الجلي أنه قبيل نزول المسيح كان اليهود في انتظار أنبياء ثلاثة - كما ورد في أسفارهم : المسيح ، وإلياس في ظهوره الثاني ، ثم « ذلك » النبي المماثل لموسى . وقد تحققت الأخبار في شخصي يسوع ويوحنا ، أحدهما يقول إنه المسيح ، والآخر إنه أرسل في روح إلياس ، ولكن واحداً منهما لم يدع أنه النبي المنتظر ، المماثل لموسى . وكذلك لم يقل أحد ممن اعترفوا بهما أن أحدهما هو النبي .

وبظهور يسوع انفصمت روابط الأخوة بين الأسرة الإسرائيلية

وأما نبوءة التوراة فيما يختص بنبي يماثل موسى فلم تتحقق إلى الآن فيما يختص باليهود ، وبالرجوع إلى تاريخ العالم لا نجد نبياً آخر غير محمد قال إنه النبي الذى تنبأ موسى بمجيئه ، كما لم يشر كتاب سماوى آخر غير القرآن إلى تحقيق هذه النبوءة ، وكل الشواهد تؤيد النتيجة عينها : فقد أتى موسى بشريعة ، وأتى محمد كذلك بشريعة . ولم يأت نبي من بني إسرائيل — بعد موسى — بأية شريعة ، ولما كان النبي محمد هو النبي الوحيد الذى نزل وبيده شريعة فهو إذاً الوحيد « المماثل » لموسى .

جاء فى القرآن الكريم : « إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهداً عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولا » .

القرآن يسترعى نظر اليهود إلى النبوءة التى وردت فى سفر تثنية الاشتراع :(التوارة) كالآتى : « وشهد شاهد من بنى إسرائيل على مثله » وكلمات النبوءة « من بنى إخوتهم » تلقى ضوءاً جديداً على حقيقية النبي المرتقب ، أى أنه لن يكون من سلالة اليهود مباشرة ،ولكن من سلالة إخوتهم : أى ذرية إسمعيل .

وثمة نبوءة ثالثة ، واضحة المعنى صريحة اللفظ ، وردت فى نفس الكتاب (سفر تثنية الاشتراع : التوراة) تقول : (أتى الرب من طور سيناء ، وارتفع من صير إليهم ، وشع شعاعه من پاران ، وتقدم إلى الأمام ومعه عشرة آلاف من الأبرار . ومن يمينه خرج كتاب التقوى)

فأتى من طور سيناء : تشير إلى ظهور الرب لموسى الكليم .

وارتفع من صير : تشير إلى استيلاء داود على صير. وأما پاران فهو اسم أرض الحجاز القديم، حيث ظهر رسول الله محمد من سلالة إسماعيل. وأما « تقدم إلى الامام ومعه عشرة آلاف من الأبرار » ، فهى إشارة بشكل لايقبل الريب إلى شخصية من تعنيه .

Digitized by Birzeit University Library

النبي محمد هو الفذ بين الأبطال العالميين ، الذى وافق دخوله المظفر إلى مكة بصحبة عشرة آلاف من أنصاره ، وهو حديث يعرفه كل إنسان.

والشريعة التى خرج بها على العالم لازالت إلى اليوم تعرف « بالبيضاء » ، أى المضيئة المشعة : لأن نورها يضيء كل ماله شأن بالدين والدنيا ، من حياة عامة وخلق اجتماعى ؛ وإلى هذه تشير كلمات النبوءة : ومن يمينه خرج كتاب التقوى .

نبوءة أشعيا. وثم نبوءة رابعة تحدد أرض النبي المنتظر بأنها بلاد العرب لاغيرها :

(وحى من جهة بلاد العرب ، فى الوعر فى بلاد العرب تبقيين ياقوافل الدانيين . هاتوا ماء لملاقاة العطشان ياسكان أرض تيماء ، وافوا الهارب بخبزه ، فإنهم من أمام السيوف قد هربوا ، من أمام السيف المسلول ومن أمام القوس المشدودة ومن أمام شدة الحرب) : إنجيل أشعيا : الإصحاح الحادى والعشرون ١٣ — ١٥ .

وكلمة « بلاد العرب » تبدهك بالدليل الكافى . ثم الإشارة إلى « من هرب » ، أى هاجر ، تزيد فى إيضاح من تقصده هذه النبوءة . وليس فى تاريخ الوجود ذكر إلا لهرب واحد وهجرة واحدة ، كان يومها مشهوداً ، كسبت شهرة عالمية ، هى هجرة النبى صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة . ومنذ هذة الهجرة يبدأ التاريخ الإسلامى — لأنها فى واقع الأمر كانت بداية عهد جديد ، لا فى تاريخ الإسلام فحسب ، بل فى تاريخ مدنية العالم كله . . . وثمة شهادة صريحة تقول إنه هرب « هاجر » أمام السيف المسلول . فالتاريخ الثابت الصحيح أن النبى هاجر من مكة عندما كانت داره محوطة بأعدائه المتعطشين إلى سفك دمه ، مسلولة سيوفهم ، يتربصون به حين يخرج ، للانقضاض عليه دفعة واحدة .

Digitized by Birzeit University Library

وتحاول عبثاً إذ تقلب صفحات التاريخ لتجد هرباً آخر: «هجرة أخرى» انتهت بمثل ما انتهت به هجرة النبي محمد، من الأثر العميق البعيد المدى، أو أن تجد نبياً آخر نجا بحياته من السيف المسلول! وهذان الحدثان التاريخيان الصحيحان — مضافاً إليهما تحديد ذكر بلاد العرب عينها موضعاً لمولد النبي — دليل لاسبيل إلى مناقشته، على أن النبوءة تقصد النبي محمداً صلى الله عليه وسلم.

نبوءة عيسى

وهنالك عدة نبوءات أخرى مماثلة من أنبياء بني إسرائيل، كداود وسليمان وغيرهما؛ وللاختصار نقتصر على واحد منهم، ونعني به آخر أنبياء بني إسرائيل: الذي يقول: (إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي، وأنا أطلب من الأب أن يعطيكم معزياً آخر، ليمكث معكم إلى الأبد: روح الحق.)

إنجيل يوحنا: الاصحاح الرابع عشر ١٥ — ١٣.

وأيضاً:

(أما المعزي الروح القدس الذي سيرسله الأب باسمي، فهو يعلمكم كل شيء).

(يوحنا: صح ١٤: ٢٦)

(لكي أقول لكم الحق، إنه خير لكم أن أنطلق، لأنه إن لم أنطلق لا يأتكم المعزي، ولكن إن ذهبت أرسله إليكم).

(إنجيل يوحنا: صح ١٦: ٧)

(إن لي أموراً كثيرة أيضاً لأقول لكم، ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن؛ وأما متى جاء ذاك روح الحق، فهو يرشدهم إلى جميع الحق).

(يوحنا: صح ١٦: ١٢ — ١٣)

وجميع هذه النبوءات تشير بوضوح لاريب فيه إلى مجيء نبي من بعد

Digitized by Birzeit University Library

عيسى . وليس منطوق هذه التنبؤات ما يضمن أنها تشير إلى الروح القدس ؛ ألم يقل عيسى « إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزى ؟ » وهى كلمات واضحة لاتحتاج إلى تفسير أو تعليق ! ويقول الإنجيل إن يوحنا كان ممتلئاً بالروح القدس من قبل ولادته . كذلك يسوع قد تلقى الروح القدس على شكل حمامة : يتضح أن الروح القدس قد اعتاد أن يزور الناس قبل ميلاد عيسى وبعده، فإلى من إذاً كانت الإشارة : (إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزى ؟) لاشك أنه ليس الروح القدس المقصود بها . . . لأنه يكاد يكون تجريحاً للدين أن يظن أن عيسى كان بدون الروح القدس ، بل إن الاحترام اللائق ليوجب الاعتراف حتى بتلامذته الأبرار ، وأنهم كانوا من الطهر بما يؤهلهم للجلوس بين يديه . والقرآن الكريم — على الأقل — يعرف لصحابة النبي مكانتهم فيقول : « وأيدهم بروح من عنده »

وكلمتا الروح القدس اللتان استعملتا فى النبوءة لم تجيئا على سبيل الحشو، أو من باب الإقحام ، بل كان المقصود بهما أن النبي المنتظر يكون على اتصال بالروح القدس ، حتى يظن أن ظهوره — مجازاً بطبيعة الحال — هو ظهور للروح القدس نفسه .

هنالك كلمات أخرى فى الروح القدس ، لاتنطبق إلا على النبي محمد . لأن الخصائص البارزة فى النبوءة قد تحققت جميعها، الواحدة بعد الأخرى: (ليمكث معكم إلى الأبد) أى أنه لن يكون نبي من بعد النبي المرتقب . وهو ما يقوله القرآن عن النبي : « خاتم النبيين » ، وتقول النبوءة (فهو يعلمكم كل شيء)، ويقول القرآن كذلك عن رسالة محمد رسول الله : «اليوم أكملت لكم دينكم » . وقد سميت النبوءة المنتظرة بروح الحق، وهو ما يصادق عليه القرآن : « قل جاء الحق وزهق الباطل ، إن الباطل كان زهوقا » .

Digitized by Birzeit University Library

الفصل الخامس

نسب النبي

« ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب
الفيل ؟ ألم يجعل كيدهم فى تضليل ؟ »

نسب النبي

إسماعيل هو الابن الأكبر لإبراهيم ، وقد ورد فى التوراة أنه أعقب اثنى عشر ولداً ، كان من بينهم (كادار) أوقيدار الذى غمر بنسله كل أرض الحجاز . أما أن العرب من سلالة قيدار، فهذا بديهى ، كما هو ثابت فى التوراة . والثابت أيضاً وما لا يقبل الجدل ، أن (عدنان) الذى إليه يرجع نسب النبي (صلعم) هو الحفيد الأربعون لإسماعيل، كما أنه لم يختلف اثنان فى أن النبي من سلالة عدنان . والحفيد التاسع لعدنان هو النضر بن كنانة مؤسس قبيلة قريش . وإذا نزلنا فى شجرة النسب خطوات أخرى وجدنا قصيا الذى عهد اليه بحراسة الكعبة ، وهى وظيفه من الدرجة الأولى فى الشرف ؛ وقصى هو جد عبد المطلب ، جد النبي صلى الله عليه وسلم . فالنبي على أعظم جانب من نبل المحتد ، وكرم النجار ، وشرف النسب .

نسبه لأمه

أما والدة النبي فكانت من بنى النجار . وقد خلف عبد المطلب عشرة أولاد ، نذكر منهم : أبا لهب ، حامل لواء معارضة النبي ، وأبا طالب الذى كفله وهو صبي ، وحمزة وهو من أول من أسلموا

Digitized by Birzeit University Library

وآمنو بالرسول ، واستشهد فى غزوة أحد ، والعباس الذى بقى طويلا خارج زمرة المسلمين ، إلا أنه ثبت على حبه لمحمد ، وعطفه عليه ، ثم عبدالله والد النبي . وقد تزوج عبد الله من آمنة بنت وهب بن عبد مناف من قبيلة زهرة . وكانا زوجين مرموقين ، لالنبالة مولدهما فحسب ، ولكن لأخلاقهما الطاهرة النقية . فى عهد تفشت فيه الجهالة والفساد .

ميلاد النبي

خرج عبد الله عقب زواجه بأيام قليلة فى رحلة تجارية إلى سورية . وفى عودته منها شعر بالمرض ، الذى لم يمهله طويلا ، فانتقل إلى رحمة ربه فى الأبواء ، قرب المدينة . وقد ولد النبي بعد وفاة أبيه . وأكثر المؤرخين على أن مولده يوم الاثنين الثانى عشر من شهر ربيع الأول ، والحقيقة أنه ولد فى التاسع من شهر ربيع الموافق للعشرين من أبريل سنة ٥٧١ ميلادية . وقبل أن تلده أمه بشرت به فى رؤيا . ويفهم من «حديث» عن النبي ، أن جده هو الذى أسماه محمداً ، وأن والدته دعته أحمد ، وقد فعلا ذلك وفقاً لرؤيا رآها كل منهما . وقد ذكره القرآن بهذين الاسمين ففى سورة الصف «ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد» وفى سورة آل عمران : «وما محمد إلا رسول» . وفى سورة الأحزاب «ماكان محمد أبا أحد» ، وفى سورة الفتح : — «محمد رسول الله»

وقد نقل من يوثق به حديثاً عن النبي أنه قال : إننى محمد بقدر ما أنا أحمد . وقد ورد اسمه محمداً وأحمد على السواء فى مختلف القصائد التى نظمت فى مدحه .

موافقة عام ميلاد الرسول غزو أبرهة الأشرم مكة (عام الفيل)

ويضيق المقام عن الإسهاب بذكر جميع الحوادث الخارقة التى قارنت مولد النبي ، وإننا لمكتفون بإيراد واحدة منها ، هى فى ذاتها دليل قوى قاطع . فى السنة التى ولد فيها نفسها ، شيد رئيس اليمن المسيحى كنيسة فخمة فى عاصمته

Digitized by Birzeit University Library

صنعاء، لجعلها مركزاً دينياً وتجارياً للناس، بدلا من الكعبة التي كان اعتزم هدمها، وكانت معركة حياة أو موت بين الوحدانية والثالوث المقدس.

فمشى أبرهة الأشرم على رأس جيش عرمرم إلى الكعبة، لكي بنيانها، وعسكر بجنوده على بعد ثلاث مراحل من مكة، وأرسل رسله إلى أهلها: أن أسلموا قيادكم. وفي الوقت نفسه كانت بعض إبل عبد المطلب قد وقعت في يد جنود أبرهة.

فجاء عبد المطلب بنفسه إلى الرئيس يطلب رد إبله عليه.

وقد تأثر أبرهة تأثراً عميقاً بمظهر عبد المطلب، فسأله: ما الذي قد أتى بك؟، إذ كان يعتقد أنه ما أتى إلا ليتوسل في أن يبقى على البيت الحرام، وما كان أشد دهشته عند ما أخبره عبد المطلب أنه ما جاء إلا في طلب إبله!، فقال أبرهة: أيهمك أمر إبلك، حتى ينسيك أمر الكعبة، التي مشيت كل هذا الطريق لهدمها؟.

فأجابه عبد المطلب: إنني أخاف على إبلي، لأنها متاعي: أما الكعبة فلها رب يحميها، وسوف يكلؤها برعايته!.

ووجدت قريش نفسها أضعف من أن تصمد أمام أبرهة، فأخلت مكة، ولاذت بالتلال المجاورة، وقبل أن يغادر عبد المطلب الكعبة، تعلق بأحد أستارها، ونادى ربه: ربي، هذا بيتك، ونحن أضعف من أن ندفع عنه، فلتحمه أنت يارب.

ويقول المؤرخون أن وباء عنيفاً (لعله الجدري) غمر معسكر أبرهة وأودى بحياة العدد الأعظم من جنده، وهرب من بقي منهم على غير نظام. وقد تمت هذه المعجزة في الوقت الذي ولد فيه النبي صلى الله عليه وسلم نفسه. وجاء في بعض السير أن يوم انهزام أبرهة، كان هو نفسه يوم مولد النبي. وقيل أيضاً. إنه ولد بعد ذلك بأربعين يوماً.

Digitized by Birzeit University Library

الفصل السادس

قبل الوحى

« فقد لبثت فيكم عمراً من
قبله أفلا تعقلون »

كانت العادة المتبعة عند نبلاء العرب وساداتها، ألا ترضع الأم فى حضانة حليمة وليدها ، بل كانت تعهد به إلى مرضع فى البادية ، وعند ماولد محمد أرضعته أمه يومين اثنين ، كما أرضعته ثويبة جارية أبى لهب يومين أوثلاثة، ثم عهد به إلى أمه آمنة ، ولكنها أعادته مع حليمة ، إذ كان بمكة يومئذ وباء منتشر ؛ وبقى فى حضانة حليمة حتى سن السادسة، عند ماأعيد إلى والدته . وقد رغبت آمنة فى زيارة قبر زوجها بالمدينة ، فأخذت ابنها معها ، ولكنها توفيت فى الطريق فى مكان يعرف بالأبواء ، حيث دفنت هناك . وبذلك فقد النبى المنتظر والدته وهو فى سن السادسة ، وحرم أن يربى فى ظلال أبيه ، أو فى رعاية أمه الرءوم ، ولم تتح له فرصة إظهار حبه وولائه ، غير أنه فيما بعد أفاض حبه وولاءه على مرضعه وإخوته فى الرضاعة ، كما لو كانوا أقرباءه .

زارته حليمة مرة ، بعد نزول الوحى ، فما وقعت عينه عليها حتى قام محيياً ، وبسط رداءه لها لتجلس عليه . ولم يمتد ظل عطفه وجميل رعايته على من ذكرنا وحدهم ، بل تعداه إلى قبيلة بنى سعد كلها ، لأنهم أهل حليمة وعشيرتها .

Digitized by Birzeit University Library

النبى فى كفالة عبد المطلب وأبى طالب

عند ماتوفيت والدته كفله جده عبد المطلب : ولم ينقض أكثر من عامين حتى اختطف الموت جده وحاضنه ، فكفله عمه أبو طالب . وكان محمد وقتئذ فى الثامنة من عمره ، ولكن سجاياه وخصاله الحميدة حببته إلى عمه ، بل إن جميع من اتصلوا به ، فى هذه السن المبكرة ، كانوا يفتنون بكريم أخلاقه ، فأحبه عمه أبو طالب، وصحبه أينما سار ، حتى إذا جن الليل قاسمه فراشه .

ولما كان تعلم القراءة والكتابة وقتئذ أمراً نادراً بين العرب ، فإن النبى لم يلقن منهما شيئاً. وعندما بلغ محمد الثانية عشرة، قام أبو طالب برحلة تجارية إلى سورية . ولما كان محمد جد متعلق بعمه ، حتى إنه لا يطيق صبراً على فراقه ، مدة طويلة كهذه ، فإن عمه أبا طالب سمح له بمرافقته فى رحلته الطويلة ، وقيل إنه فى غضون هذه الرحلة التقى براهب مسيحى يدعى بحيرا، فأمسك بالفتى ، كما روت كتب السيرة ، وتفرس فى وجهه وتنبأ بعظمة مستقبله ، ونصح أبا طالب بأن يعنى جهده بهذا الغلام، لأنه سيكون مهبط الوحى السماوى .

اشتراكه فى حلف للدفاع عن الضعيف

وفى العشرين من عمره ، اشترك فى الحرب التى نشبت بين قريش وقيس، والتى عرفت بحرب الفجار. وقد سميت بذلك لأن رحاها دارت إبان الأشهر الحرم . ولكن نصيبه منها لم يزد على إعداده القسى لأعمامه . وشهد فيما بعد الحلف المعروف بحلف الفضول ، الذى قام للمطالبة بحق الضعفاء والمحرومين فى مكة ، فكان على كل عضو فى الحلف يرتبط برباط الشرف ، أن يرد عن الضعفاء أية صورة من صور العسف والجور . وإلى النبى وأسرته — بنى هاشم — يرجع الفضل فى تأسيس هذا الحلف وإنفاذه .

Digitized by Birzeit University Library

وإن مد يد المساعدة والمعونة إلى المظلوم والمقهور ، لدليل على أن عواطف الإنسانية كانت من طبيعته المتأصلة فى نفسه .

الأمين

فى هذه السن المبكرة ، كانت نزاهة النبى وطهارة ذمته قد عرفت . وذاع أمرها بين سكان مكة كلهم ، فلقبوه جميعاً بالأمين . وهذا اللقب لم يقصد به أمانة يده فى شئون المال وحده ، بل هى الأمانة المطلقة فى كل الأمور . وكل من عامله أو اتصل به فى شأن من الشئون فى هذه الآونة ، لم يسعه إلا التمدح بأخلاقه ، وإطراء سجاياه طول حياته .

وفى تلك الأيام قضت الحاجة بتجديد بنيان البيت الحرام : الكعبة ، فلما جمعت مواد البناء اللازمة ، أخذت قريش مجتمعة فى العمل . وفى أثناء البناء ثار جدال عنيف فيمن يكون له الشرف فى رفع الحجر الأسود ، كاد يؤدى إلى التطاحن بين أفراد القبيلة الواحدة ، وفيه قضاء على عدة بطون : ولكن شيخاً من أشياخهم ، كسا الشيب رأسه وحنكته الأيام ، اقترح عليهم التحكيم ، على أن يكون لأول داخل إلى الكعبة فى اليوم التالى ، فقبلوا جميعاً .

وأصبحوا وهم متحرقون شوقا إلى من يتاح له هذا الأمر . فلما بدا أنه محمد ، هللوا جميعاً وقالوا فى رضا : إنه الأمين ، إنه الأمين ، لأن ثقتهم فيه كانت صادقة ، ولا حد لها .

فأخذ رداءه ، ووضع فيه بيديه الحجر الأسود ، ودعا زعماء كل عشيرة إلى أن يأخذ كل بطرف من أطراف الرداء ، وبذلك اشتركت كل قبيلة فى رفع الحجر إلى موضعه . وبصنعه هذا تحاشى محمد ما ربما انتهى إلى إشعال نار داخلية .

وكانت سنه يومئذ الخامسة والثلاثين .

Digitized by Birzeit University Library

زواجه من خديجة

كانت خديجة أرملة ذات مركز سام ، أطلق عليها قبل الإسلام لفضائلها واستقامتها لقب « الطاهرة » . وبلغها نبأ استقامة محمد ، فأطلقت يده بالعمل فى تجارتها ، وجعلت منه وكيلها . فلم ينقض زمن طويل حتى تزايدت أرباحها وتمت كثيراً ، بفضل أمانته وشريف معاملته . وكانت معاملته هذه ، الدليل البين على أخلاقه ، وهذا ماحدا بخديجة إلى الرغبة فى الزواج منه . فكان زواجه منها وهو فى الخامسة والعشرين من أرملة تكبره بخمسة عشر سنة .

وولدت له خديجة أربع بنات وولدين : أكبرهم القاسم ، وبه دعى النبى بأبى القاسم ، ولكنه مات صغيراً فى الثانية من عمره . وكبرى بناته هى زينب ، التى زوجت من أبى العاص ، ومن بعدها رقية ، التى زوجت من عثمان ، وقد توفاها الله يوم انتصار المسلمين فى غزوة بدر : ومن بعدها أم كلثوم التى زوجت من عثمان أيضا بعد وفاة شقيقتها . وصغراهن هى فاطمة التى من سلالتها من عرفوا فى الإسلام بأهل البيت ، وقد زوجت من على : وأصغر أبناء خديجة كان غلاماً ، ومات وهو فى المهد . وقد فقد النبى أولاده كلهم فى حياته ، عدا فاطمة التى عاشت بعده ستة أشهر . وكان له ابن واحد وهو إبراهيم ، من زوجة أخرى مصرية ولكنه مات صغيراً ، وعمره ثمانية عشر شهراً . وكان النبى شديد الحب لخديجة ، وكثيراً ما كان يذكرها بالخير بعبارات رقيقة حتى بعد مماتها .

وفى يوم أخذ يذكر محاسنها ، فسألته عائشة ألم يعوضك الله فى شخص من هى أحسن منها ؟ فكان جواب النبى : لا ! لقد احتضنتنى عند ما نبذنى الناس !.

وكان مخلصاً لخديجة بروحه وجسده ، بفضل ماعرف فيها من جميل الخصال ، فكان ينفق من مالها فى سبيل الله ، ولم ترقض خديجة مرة

Digitized by Birzeit University Library

ان تنفق ثروتها فى أعمال البر والخير ، فاشترت من مالها الخاص عبداً للنبى، وكان سرورها عظيما عند ما أعتقه النبى ؛ وزيد صاحب النبى المعروف كان هو الآخر عبداً فى يوم من الأيام ، وأعتق بفضل كرم خديجة .

وعند مانزل الوحى عليه، كان النبى يخشى المسئولية الجسيمة التى ألقيت على عاتقه ، وكان يشك فى مقدرته على المضى فى المهمة التى عهد إليه بها . ولكن خديجة — فى هذه الفترة — كانت تسرى عن فؤاده المكروب، وهى تردد : والله لايخزيك الله أبدا ، إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكل ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق . وهذا دليل على عميق تأثر خديجة بفضائل النبى، وعواطفه الإنسانية النبيلة. وهذا هو السر فى تحاب الزوجين ، فقد كانا منطويين على حب الغير والرحمة والرأفة . وليس أحد يعرف دخائل الرجل كزوجه ، فهى بحكم صلتها فى مركز يسمح لها بالاطلاع على ما فى سريرته وأعماق قلبه . والحقيقة أن خديجه كانت تثق وتؤمن بالنبى ، إيماناً وثقة لا حد لهما ؛ وهذا دليل وشهادة على أخلاقه المبنية على النزاهه التى لا تتزعزع .

وليس فى إمكان أى ناقد حاقد ، إزاء مثل هذه الشهادة ، أن يجرؤ على الشك فى إخلاص النبى وصدقه ، وصدق نيته ، لأن المخادع لايستطيع بحال أن يستحوذ على مشاعر شخص يعيش بالقرب منه ، ويطلع على سره ودخيلته .

خلق عظيم

إن شهادة خديجة لسمو خلق النبى هى بلا شك ذات قيمة عظيمة ، وإن غيرها ممن اختلطوا بالنبى لم يكونوا أقل منها تقديراً، ووالد زيد — عبد النبى المعتق — عند ما سمع بعتق ابنه، أتى إلى مكة ليعود به ؛ وبما جبل عليه النبى من الحنو والوداعة ، ما كان ليحول دون الابن وأبيه ، بل كان سروره عظيما أن يرى ولداً يعود إلى والده ،

Digitized by Birzeit University Library

ولكنه لم يستطع إقصاء زيد عن أبيه على الرغم منه ، ولما استأذن والد زيد النبي في أن يأخذ ابنه معه ، ترك النبي الأمر لزيد ليفصل فيه بنفسه . وما كان أبو زيد يطمع في أكثر من هذا ، فلم يكن يدور بخلده أن حب ولده للنبي قد غلب حبه لوالده . أعتق زيد من عبودية الجسد ، ولكنه بمحض إرادته استرق لشخصية النبي وخصاله الساحرة ، ففضل أن يبقى إلى جانب النبي ولو كره أبوه .

ومثل هذا ، كان ارتباط أبي بكر بالنبي أمراً معروفاً ، وكان أبو طالب لا يقل عن أبي بكر تأثراً بنبل طباع النبي ، فعلى الرغم من احتفاظه بدين آبائه ، وقف إلى جانب النبي في شتى المواقف ، اليسير منها والعسير ، يدافع عنه ، معرضاً نفسه لغضب جموع قريش المتحدة وانتقامها . كل أولئك كان من تأثير سحر خصال محمد في عقله ، فكان يرى من قلة الوفاء أن يتخلى عن رجل هذه خصاله السامية ، فكان يفضل أن يتعرض من أجله لتنازع وخصام ؛ وعند ما طلبت قريش إليه أن يسلم محمداً إليها سبهم سباً عنيفاً ، قائلا : لا أبالكم ! لم تتخل قط قبيلة عن سيدها . وهو سيد يحافظ على كل ما هو جدير بالمحافظة ، فلا هو بالمتغطرس المتجبر ، ولا هو بالواهن العاجز ، الذي يكل أموره إلى غيره . إنه كريم القلب ، يرتجى الغيث من طلعته ، حامى اليتيم والأرمل .

انضمام الشخصيات البارزة إليه

كان النبي بكلمة واحدة ، يستحوذ على ولاء من يتصل به ولو مرة واحدة ؛ وكان جميع من ارتبطوا به من ذوى المكانة ، والصفات الخلقية المتينة . وبجانب صحابته المعروفين في تاريخ الإسلام بسمو أخلاقهم ، كان للنبي أصدقاء قدماء من قبل الإسلام ، عرفوا هم أيضاً بسمو أخلاقهم ، أمثال حكيم بن حزام وضماد بن ثعلبة والأول من سادة قريش المحترمين ، وقد دخل في دين الله بعد فتح مكة ، كانا

Digitized by Birzeit University Library

صديقيه اخيمين ، وكانا على خلق متين — يشاهد أن كل من كان فى محيط دائرة شخصية النبى الجذابة ، حتى فى بداية حياته ، قبل نزول الوحى — كان يفتعش . ويستمد الحياة الطيبة من مجاورته للنبى ومن سمو خصاله ، وعلى غرار اللمسة الذهبية فى الأسطورة .

العطف على الفقراء

من أخلاق النبى عطفه الشديد على الفقراء ، وحنوه على المحرومين ، والأرامل ، واليتامى ، وأبناء السبيل .

شهد بذلك الأصدقاء والأعداء ، على حد سواء ، كل يلهج بثنائه ، ومن المأثور فى تسرية خديجة دليل على تأصل هذه الفضيلة عند النبى ، وجعل أبوطالب منها سبباً للدفاع عن النبى أمام أعدائه . واشتراكه فى حلف الفضول . وهو حلف كان الأساس فى تأليفه مناصرة قضيه المظلومين ، يدل على عطفه وحنوه على الضعفاء . والعطف على الفقراء والمحرومين الذين لاعائل لهم ، والأرامل واليتامى ، كان باختصار طبيعة متأصلة فيه ، وتعاليم القرآن تحث على العناية باليتيم والمحروم . فالذى يدع اليتيم ، ولا يحض على طعام المسكين ، هو مكذب بالدين : أرأيت الذى يكذب بالدين ؟ فذلك الذى يدع اليتيم ، ولا يحض على طعام المسكين ، (سورة الماعون) .

إن ذروة الإحساس الإنسانى كما راها القرآن ، هى فى إكرام اليتيم . والحض على إطعام المسكين . « كلا بل لاتكرمون اليتيم ، ولاتحاضون على طعام المسكين » سورة الفجر .

والذى لا يرعى جانب اليتيم مهدد بفقدان كرامته ومكانته ، وإن تدهور أمة بأسرها ليتبع إهمال أمر اليتيم ، والقرآن ملىء بالتعاليم التى تشدد فى العناية باليتيم والمسكين .

Digitized by Birzeit University Library

حياء النبي

نعرف من سيرة شباب النبي ، أنه منذ حداثته الأولى كان على جانب كبير من الحياء والرزانة ، فلم يعكف يوما على طيش الصبية كأترابه ، قال أبو طالب للعباس : لم أسمعه قط يقول كذباً ولا يميل إلى العبث والمزاح ، أو يأتى رذيلة أو قبيحة ، أو يختلط بأبناء السوقة .

كانت الحرب هى التسلية العامة فى بلاد العرب وقتذاك ، ولكن النبي بطبيعته يكره الاقتتال ويمقته . وفى حرب الفجار لم يذهب أبعد من إعداد القسى وعتاد القتال لأعمامه . وكانت نفسه تعاف الخزعبلات التى كانت متفشية ومنتشرة فى كل مكان بطبيعتها ؛ وكان يشمئز من عبادة الأصنام منذ حداثته الأولى . وقد حدث مرة أن جاء ذكر أوثان العرب المهمة ، كاللات والعزى ، فقال إنه لا يمقت شيئاً مقته لعبادة الأصنام ، فهو لن يقبل أبداً أن يشترك فى إقامة شعائر هذا الدين ذى الآلهة المتعددة . وقد رفض أن يشترك فى تناول الطعام على مائدة أعدت قرباناً لأحد الأصنام .

كان قلبه ينقبض لحال التدهور الذى وصلت إليه الإنسانية ، وكانت النار تتأجج فى صدره ، والأمل يلهبه إلى السمو بمواطنيه وإخوانه فى الإنسانية وجذبهم إلى الطريق القويم ، والصراط المستقيم .

فكثيراً ما كان يخلو بنفسه فى غار حراء حيث يبتهل إلى الله بحرقة ، والدموع تنهمر من عينيه ، أن يهدى العالم ، وأن يسدد خطاه إلى الطريق القويم ؛ طريق الهدى .

Digitized by Birzeit University Library

الفصل السابع

الدعوة . الرسالة ، البعث ، الوحى

« اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق
الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم.
الذى علم بالقلم . علم الإنسان مالم يعلم »

بدأ نزول الوحى

قبيل الأربعين حببت إليه الخلوة للتحنث ؛ فكان يذهب إلى غار حراء ، يفكر فى الله سبحانه وتعالى ، وكثيراً ما كان يقضى فى عزلته أياماً . وفى هذه الفترة تلقى عدة رؤى كثيرة ، كانت تتحقق بحذافيرها وتفاصيلها . وبينما هو غارق فى عبادة الله فى غار حراء ، ظهر له جبريل فى إحدى ليالى شهر رمضان ، سنة ٦٠٩ ميلادية ، وطلب إليه أن يقرأ . فأجاب النبى : ما أنا بقارىء ؛ فضمه إلى صدره بشدة ، وهو يطالبه بالقراءة ثلاث مرات متتابعة ، وفى المرات الثلاث كان النبى يجيب : ما أنا بقارىء . وأخيراً قرأ جبريل الآيات ، وقرأ محمد من بعده ، وكان هذا هو اليوم الأول ، الذى ألقيت فيه على عاتقه الرسالة الجسيمة . وبذلك كشف له عن الطريق القويم ، الذى كان يبحث عنه ، ويجد فى طلبه منذ زمن طويل . وجاء إليه النور الذى يتفقده بشغف زائد ؛ وأعلم فى الوقت نفسه أن أمر هداية البشرية قد ألقى على عاتقه ، وإذا كان الإنسان يقدر المسئولية التافهه : فما بالك إذا ألقيت عليه مهمة انسانية باقية بقاء الدهر

Digitized by Birzeit University Library

هى هداية البشرية ، وتلك أثقل مهمة يمكن إلقاؤها على عاتق بشر . وناهيك بموسى الذى أرسل إلى أمة واحدة ومع ذلك فقد وجد الأمر غير يسير. فضرع إلى الله أن يشد أزره بأخيه ومحمد كلف هداية البشرية جمعاء ، وقد انغمست فى حمأة التدهور ، ولكن جنانه الثابت لم يخذله لحظة واحدة ، ولم يهتز أو هى هزة ، على الرغم من عظم المسئولية الملقاة عليه.

الموحى إليه

وكان النبى عند نزول الوحى يتصبب جسمه عرقا ويثقل جسمه كله، وقد روى الصحابة أن فخذ النبى كانت تنزل إلى ركبته .

وكان لنزول الوحى أول مرة أثر فى جسم النبى ، فأخذ جسمه كله يضطرب ويهتز ، وعاد إلى منزله وهو يرتعد ، وبردت يداه وقدماه . وطلب من خديجة أن تدثر جسده . وبعد لحظة عند ما انقشعت الرعدة وما كان يزاملها من الخوف الذى لابد منه ، قص على خديجة الأمر كله ، فقالت : أبشر يا بن عم واثبت ، فوالذى نفس خديجة بيده إنى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة ، والله لايخزيك الله أبدا ، وإنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكل ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق .

وكان ورقة بن نوفل ابن عم خديجة ، قد أسقمته الوثنية ، فكان يتطلع إلى دين حق ، فاعتنق فى آخر الأمر المسيحية .

وكانت خديجة تعرف منه قلقه، لعدم اهتدائه إلى دين يحمل فى طياته الإقناع لقلبه، الذى يجرى وراء الحقيقة والصدق ، وربما سمعت منه عن قرب ظهور نبى مرتجى ، وهو «المعزى» الذى تنبأ به عيسى ، فلما أخبرها محمد بما وقع له ، أخذته إلى ابن عمها ورقة بن نوفل ، وكان يومئذ طاعنا فى السن ، عاجزاً عن الحركة ، أعشى البصر ، وما سمع ورقة عن الوحى الذى نزل على محمد حتى صاح قائلا :

« والذى نفسى بيده إنك لنبى هذه الأمة ، ولقد جاءك الناموس

Digitized by Birzeit University Library

الأكبر ،الذى جاء موسى، ولتكذبن ، ولتؤذين ، ولتخرجن ، ولتقاتلن، ولئن أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصرا يعلمه » .

نزل الوحى للمرة الأولى ،ثم انقطع جبريل مدة ، هى ما سميت بفترة انقطاع الوحى ، وفى مدتها اختلاف كبير ، قال بعضهم إنها سنتان ،وقال بعض إنها ثلاث، ونسب إلى (ابن عباس) أن الفترة كانت قصيرة الأمد، وذاك أقرب إلى الصواب الذى تعضده الأسانيد التاريخية . وما قيل من أن النبى إبان هذه الفترة كان يذهب إلى أعالى الجبال، ليلقى بنفسه منتحرا، ضرب من الخرافات السخيفة ، ولا يمكن الاعتداد برواية الزهرى التى اشتقت الخرافة السابقة، فقد كان من جيل لاحق ، ولم يعاصر النبى ، وفكرة ارتكاب النبى للانتحار ، تخالف آراءه التى عرفت عنه مخالفة تامة ، فنفسه منذ حداثته كانت تواقة إلى هداية الإنسانية ، فكيف به يفكر فى الانتحار الآن وقد عهد إليه بهذه المهمة ؟! فلو لوحظ على النبى أنه كان يأتى شيئا غير معتاد ، فهو أنه كان يخلو بنفسه فى الجبال أكثر مما اعتاد سابقاً . ولكن هذا لا يدفعنا إلى مثل تلك النتيجة التى لا يقبلها العقل، والتى تعوزها الشهادة أو السند على أنه ماذهب إلى الجبال إلا للانتحار .

لقد اعتاد الذهاب إلى الجبال من قبل أن ينزل عليه الوحى ، لأنه بطبيعته ميال إلى التأمل والتفكير ، وفى الجبال يخلو الجو لمن كان مثله ، ليسبح فى تأملاته ، وليس هناك من مبرر فى أن يقال إنه ما ذهب إلا لينتحر ! والحق أنه كان يبدو عليه الاهتمام أكثر مما سلف ، وهذا أقصى ما يمكن ادعاؤه ، والسبب فيه ليس ببعيد على المتأمل، لأن النور السماوى الذى كان يبحث عنه بشغف وعنف ، قد اختفى بمجرد أن زاره مرة واحدة ! وهذا ما أقلقه وأتعبه ، فكان يتحرق إلى رؤية الوحى ثانية ، وكان خروجه إلى الجبال لقصد واحد ، هو أن يظفر بجبريل مرة أخرى .

Digitized by Birzeit University Library

ولم يذهب لينتحر ! إن كل حدث فى حياته السابقة واللاحقة يكذب هذه الفرية .

لقد كان بإزاء أكثر الحوادث المخيبة للرجاء ، ثابت الإيمان بالله ، ولم تتزعزع ثقته به لحظة ، وإنه لم يتراجع قيد شعرة أمام الصعوبات الغامرة المكتسحة.

عودة الوحى

وانتهت أخيراً هذه الفترة ، وكانت فى نظره طويلة ، لأنها باعدت عنه ما يحبه من كل قلبه .

وهذا هو المعنى الذى قصد إليه عند ما قيل إن الفترة كانت طويلة الأمد ، والواقع أن فترة انقطاع الوحى كانت من نعم الله ، فإن الرؤيا الأولى قد أثرت فى جسد النبى ، وما كان جسمه ليتحمل تكرارها بالتقارب . لقد كانت هذه الفترة لازمة لبدنه وصحته . وحتى بعد كل فترة ، وكانت لا تتجاوز الستة الأشهر بأية حال ، كانت الرؤيا مصحوبة دائماً بنفس الأعراض ، ولو أنها كانت أخف من المرة الأولى ، فكان يسأل خديجة أن تدثره . وبهذه المناسبة نزلت عليه الآية : « يأيها المدثر . قم فأنذر » (سورة المدثر — ١ - ٣) .

وبهذا بدأت مرحلة جديدة فى حياة النبى : هى تبليغ رسالته للناس كافة .

Digitized by Birzeit University Library

الفصل الثامن

أول من أســـــلم

(والسابقون السابقون
أولئك المقربون)

خديجة

أول من اعتقد رسالة النبي خديجة زوجه ، ولم تشك في صحة دعواه للنبوة ، وفي لحظات المحن بدت خديجة معينا لا ينضب لمواساته ، والتسرية عنه .

ولخمس عشر سنة خلت ، ولم تكن قد تزوجته بعد ، عرفت فيه مزايا وصفات نبيلة ، قد أثرت في نفسها تأثيراً عميقاً ، وتطور عندها هذا الإحساس عمقا ، كلما ازدادت به معرفة ، خلال ارتباطهما برباط الزوجية .

فلما نزل الوحي على النبي للمرة الأولى ، وكان في حال من الارتباك ، لا يدري كيف يدبر أمره للقيام بهذه المهمة الهائلة ، مهمة الهداية التي ألقيت على عاتقه ، واسته هذه السيدة الفاضلة بكلمات طيبات ، صادرة عن قلب مؤمن .

وقد أدركت أن رجلا على مثل ما كان عليه النبي من سامي الطباع ، لا يمكن أن يخزيه الله أبدا .

لم يكن هنالك من يستطيع أن يدعي معرفة دخائل النبي أكثر منها ، فليس في حياة الزوج ما تجهله زوجه ، وبمعرفتها الكاملة لأفكاره وآرائه ، شعرت باقتناعها أنه هو وحده الرجل الحق الجدير بتلقي الدعوة الإلهية لهداية البشر ، فكانت خديجة أول من آمن به وصدقه .

Digitized by Birzeit University Library

ورقة

ويلى خديجة فى قائمة المؤمنين الأولين ورقة بن نوفل ، قضى نحبه خلال فترة الوحى ، قبل أن يكلف النبى نشر الدعوة ؛ ولذلك لم تتح له فرصة دخوله فى دين الله .

ومع ذلك فقد شهد فى المقابلة التى سبق ذكرها ، والتى تمت بسعى خديجة بينه وبين النبى ، أن محمداً هو النبى المرتجى بلا شك . وهذه الشهادة كافية لتجيز ذكره بين المؤمنين الأولين .

أبو بكر

ويليه أبو بكر أحد أشراف مكة ، وكانت له مكانة ، لأصالة رأيه ، ورجاحة عقله ، كان مواطنوه يحترمونه كثيراً ، وكان صديقاً حميماً للنبى زمناً طويلا ، قبل أن ينزل الوحى على محمد . وإن إيمانه بصلاح النبى ، واستقامته لا يقل عن إيمان خديجة ، وهو مثلها لم يتزعزع إيمانه لحظة واحدة ، فما سمع بدعوى النبى للنبوة ، حتى جاهر بإسلامه ، وبأن محمداً هو نبى الله حقاً ، وهو أول من أسلم من الرجال .

على

وكان على بن أبى طالب ، ابن عم النبى هو الآخر من أوائل المؤمنين ، يعرف النبى حق المعرفة ، وترى فى رعايته ؛ ولما كان يعرف أن صحة دعوى النبى لا يتطاول إليها أى شك ، لم يتردد لحظة واحدة فى الاعتراف به .

زيد

وزيد بن حارثة ـ الذى كان خادما للنبى ، وقد سبق لنا أن تحدثنا عن حبه وإخلاصه لمولاه ؛ ففضل البقاء بين يدى رسول الله ، على العيش بين ذوى قرباه ، ورفض أن يعود مع والده عند ما جاء يطلبه — كان هو أيضاً من السابقين إلى الدخول فى دين الله .

أول من آمن من آلاف النبى

خديجة ، وأبو بكر ، وعلى ، وزيد : كانوا كلهم من آلاف النبى ، يدخلون عليه وقتما شاءوا ، وكانوا أكثر الناس إيماناً بصدق دعواه ، فلم يشك واحد منهم ، أدنى شك

فى صحة الرسالة التى نزلت عليه ، فقد عرفوا فيه محمداً « الأمين » منذ أن عرفوه ، فلم يحدث خلال هذه الحقبة الطويلة من الزمن « ٤٠ عاماً » ومن قبل أن ينزل عليه الوحى ليصطفيه نبياً، أن خرجت من فمه كلمة كاذبة ، فكانوا لا يتصورون ولا يدور بخلدهم أنه قد اخترع أكذوبة عند ما أخبرهم برسالته .

ومن المؤكد أنهم كانوا لا ينظرون إليه نظرتهم إلى مدع دجال ، ولما كانوا يعرفونه منذ البداية ، كانت الفرصة سانحة لهم لمعرفة ما يبطن ، فنظرتهم إليه صادقة وخبيرة ، بل كان كلما ازداد اتصال شخص ما به ، ازداد حبه له ، وتقدم الصفوف فى تصديق دعواه ، وإن هذه الناحية من شخصية النبى « ترغم » النقاد — حتى غير المحابين من أمثال موير Muir ، وسبرنجر ، أن يعترفوا أن محمداً عليه صلاة الله وسلامه ، كان صادقا كل الصدق فى دعواه ، كامل الإيمان بصدق رسالته .

فلو كان هناك شيء من المغالطة ، أو المخاتلة ، أو النفاق ، لكان أول من يتشكك ويرفض التصديق هؤلاء الذين داخلوه فى حياته ، وعاشروه عن قرب ، ولكنهم كانوا على عكس ذلك أسبق من آمن بصحة نبوته .

مؤمنون آخرون من ذوى المكانة

بمجرد أن اعتنق أبو بكر الإسلام، خرج على الناس يدعو إلى اتباع دين الحق ، لقد كان إيمانه عميقاً بنبوة محمد ، فدخل بفضله فى الإسلام منذ البداية رجال من ذوى المكانة العالية، أمثال : عثمان والزبير وعبد الرحمن وسعد وطلحة الذين برزوا ، لا فى تاريخ الإسلام فحسب ، بل فى تاريخ العالم أيضا : ارتضوا الإسلام ديناً ، وتعلقوا به بإخلاص شديد ، ودعوا له ، ودخل فى الإسلام من هم أرق منهم حالا : أمثال بلال و« ياسر » ، وزوجه سمية ، وابنه عمار .

وكان من بين السابقين أيضاً : عبد الله بن مسعود وخباب ، وكذلك

Digitized by Birzeit University Library

الأرقم ، الذى اتخذ النبي داره مركزاً لنشر الدعوة الإسلامية نحو السنة الرابعة من النبوة .

وفى خلال السنوات الثلاث ، أسلم مالا يقل عن أربعين شخصاً ، وهذه الحقيقة الثابتة ، تكذب الادعاء القائل بأن فترة الوحى امتدت إلى ثلاث سنوات ، لأنه لو كان الادعاء صحيحاً ، لتأخرت حتماً بداية الدعوة إلى السنة الرابعة، ولما شرع المسلمون يدخلون فى دين الله قبل السنة الرابعة ؛ ولكن الثابت تاريخياً أن الإسلام فى ذلك الوقت ، كان قد عظم أمره ، وتكاثر أتباعه ، وأن هذا التكاثر فى عدد المسلمين، هو الذى أقلق مضاجع أهل مكة ، وجعلهم يكيدون للمسلمين . هذا مادعا النبي إلى أن ينتقل إلى مكان بعيد عن الاضطهاد، للمضى فى دعوته مطمئناً، فانتخبت دار الأرقم لهذا الغرض .

حمزة

كان عدد المسلمين آخذاً فى النمو على مر الأيام، وكان لإسلام بعض ذوى المكانة العالية من أشراف قريش، أثره فى اشتداد ساعد الفئة القليلة . وكان من أبرز هؤلاء حمزة، عم النبي وأخوه فى الرضاعة. كان رجلا شديد المراس، عسكرى الطباع، يهوى الرياضة العنيفة، صاحب صيد ، وكان القوم يحترمونه ويبجلونه، لأخلاقه العالية ؛ وكان أعز فتى فى قريش، وأشدهم شكيمة ، وكان يحب النبي، وينظر إليه نظرة إكبار ، وقد تم إسلامه على الوجه الآتى :

مر أبو جهل يوماً برسول الله ، فآذاه وشتمه، وعاب دينه ، فأعرض النبي عنه وانصرف، ولكن مولاة لحمزة شهدت ماحدث، فأفزعها ما رأت من قسوة أبى جهل ، وكان حمزة فى قنص له ، فلما عاد منه قصت مولاته عليه ماجرى ، وكان حمزة يحب ابن أخيه ويعظمه ، فلما عرف ما ناله من الإهانة والأذى ، هاجت هائجته ، وشعر بأنه الخزى والمهانة

Digitized by Birzeit University Library

التى لا تنمحى إن هو لم يناصر رجلا فاضلا مستقيما ذا حق ، كمحمد فقر قراره على أن ينحاز إلى جانب الحق ، وأن يدافع عنه بكل ما أوتى من قوة وعزيمة ، فذهب إلى الكعبة ، حيث كان أبو جهل وأصفياؤه فى ناد لهم يأتمرون بالإسلام ، فأعلن إليهم إسلامه .

والرجل العظيم الثانى ، الذى زاد فى عزة الإسلام ، هو عمر .

عمر

كان عمر رجلا حاد الطبع ، وكان فيما مضى قاسياً فى عداوته للإسلام ، وقد اعتزم يوماً أن يقتل محمدا بسيفه ، لأنه أصل الدين الجديد ، وبقتله ينتهى الاضطراب كله . وعلى هذا العزم أخذ سيفه فى يده ، ويمم شطر دار النبى ، ولم يكن يعلم أن شقيقته فاطمة وبعلها سعيد قد دخلا فى دين الله ، فحدث أن قابله وهو فى الطريق أحد المسلمين (١) ولاحظ عليه أنه يقصد شراً ، فسأله إلى أين يقصد ؟ فأجابه : ذاهب لقتل محمد . فقال المسلم : ألا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم ، ثم تفكر بعدئذ فى قتل محمد ، فإن أختك وابن عمك قد أسلما كلاهما . فلما سمع بإسلام أقاربه اندلعت نار غيظه ، فقصد دارهم ليحسم ما بينه وبينهم أولا . و كان خباب فى دارهما يعلمهما شيئا من آى الذكر الحكيم . وعند ما دخل عمر عليهم ، أخفوا الورقة التى كتبت عليها الآيات خوفا منه وفرقا ، ولكن عمر كان واثقاً من إسلامهم ، وكان قد سمعهم يرتلون القرآن . فدخل الدار صارخا : لقد علمت أنكما تابعتما محمداً على دينه . . . وأخذ يتلابيب سعيد ، ويبطش به .

فلما وقفت فاطمة بينهما محاولة كفه عن بعلها ، ضربها فشجها ، وسال الدم على وجهها . فهاج الزوجان ، وصاحا به : نعم أسلمنا ، فاقض ما أنت قاض : وكانت هذه الجرأة من جانب أخته ، على الرغم من إيذاء

(١) هو نعيم بن عبد الله — انظر سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٦٨ طبعة الحلبى سنة ١٩٣٦

عمر لهما، ذات أثر مهدئ له ، فكف عن ضربهما ، وطلب منهما أن يطلعاه على الصحيفة التى كانوا يقرءون فيها . وخشيت أخته أن يلحق إهانة بآيات الكتاب الكريم. فترددت ، ولكنه وعدها خيرا ، فأعطته الصحيفة وبها آيات من سورة طه . «طه . ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ، إلا تذكرة لمن يخشى ، تنزيلا ممن خلق الأرض والسموات العلى» . فلما استمع لم يعد يستطيع مدافعة قوة الحق : قوة القرآن التى جعلته يندم على حماقته السابقة، فى مناصبته العداء . أما خباب الذى كان قد اختفى خوفا على نفسه من بطش عمر، فلم يدع هذه الفرصة الثمينة ، فخرج من مكمنه، وأخذ يدعو عمر إلى الإسلام ، فهدأ عمر ، ولان قلبه ، واطمأنت نفسه ، فسأل خبابا أين يجد النبى ؟ وقصد من فوره إلى دار الأرقم، حيث كان النبى معتصما مع أربعين من المسلمين رجالا ونساء ، فقرع عمر الباب ، فنظر أحدهم من خلل الباب . فلما رأى عمر متشحا بحسامه ، استولى عليه الفزع ، خشية أن يكون قد أتى قاصداً شراً . فأمره النبى بفتح الباب ، وأن يدع عمر يدخل . فلما دخل وسأله النبى عن سبب مقدمه، صاح : يارسول الله ، جئت لأعلن إسلامى وإيمانى بالله وبرسوله . ففرحت جماعة المسلمين فرحا عظيما ، وارتفعت أصواتهم بالتكبير : الله أكبر ! الله أكبر ! حتى جاوبت التلال المجاورة صدى أصواتهم .

عامة المؤمنين مؤمنون متواضعون

كان فى إسلام عمر عزة ومنعة لجماعة المسلمين، وهى لاتزال ضعيفة عن مقاومة عدوان أعدائها . وقد تم إسلامه فى السنة السادسة من نبوة النبى، وحتى هذه الساعة لم يجسر المسلمون على الظهور على أعين الناس ، فقد قصروا نشاطهم على دار الأرقم، وبين جدرانها الأربعة . ولكن بعد أن أعلن عمر انضمامه إلى الإسلام ، شعروا بأن لديهم القوة الكافية للخروج لأداء الصلاة أمام الناس جهراً ، وفى

Digitized by Birzeit University Library

الكعبة بالذات ، فأسلم فى هذا الوقت عدد لا يستهان به من عامة الناس.

أما علية القوم من المسلمين، فكان فى إمكانهم بحكم مركزهم أن يتحاشوا كيد أهل مكة ، ولكن الأرقاء المسلمين كانوا فى حالة يائسة، ووهدة تعسة . فكانوا يلاقون كل أنواع العذاب والاضطهاد، بلا رحمة ولا شفقة، ولا أحد يجيرهم من غضب أسيادهم . ومن فضائل خلق أبى بكر السامى، أنه كان بمحض حريته ، يشترى بحر ماله هؤلاء الأرقاء من أسيادهم غلاظ القلوب؛ ويعتقهم ، وإن بلالا وعمارا ولبينة وزنيرة والنهدية وأم عبيس. بعض من يدينون بحريتهم إلى كرم أبى بكر .

ومما يسترعى الانتباه أن الإسلام قد انتشر فى مستهله بين جامعى الأحطاب وسقاة الماء، أما الارستقراطية فقد أعارت الإسلام أذنا صماء

وقد وردت فى القرآن قصة تشير إلى الحكمة الإلهية فى أن طبقات الأشراف لا أهمية لها فى الإسلام فى عصره الأول . كان النبى يوماً يعظ سيدا من نبلاء قريش ، فجاءه رجل أعمى ، هو ابن أم مكتوم ، وكان لا يعرف أن الناس يسمعون له ، فوجه إليه بعض الأسئلة ، وجعل يستقرئه القرآن ، وألح فى ذلك، حتى شق على النبى إلحاحه ، فتولى عنه ولم ينهره بكلمة ، وبدا العبوس على محياه ، ولكن الله العلى العظيم الذى أراد أن يكون النبى فى ذروة السمو من الأخلاق والعادات ، لم يدع الحادث يمر . فنزلت الآية : « عبس وتولى أن جاءه الأعمى، وما يدريك لعله يزكى ، أو يذكر فتنفعه الذكرى » ؛ ولما كان القرآن دستور الحياة ، فإنه يسمح لعامة الناس بالارتقاء إلى أعلى الدرجات .. وقد نصح النبى ألا يهتم اهتماما عظيما بالشخصيات الكبيرة ، فإن تقدم الإسلام وانتشاره رهين بالضعفاء والفقراء ، الذين فى جهادهم لإعلاء كلمة الإسلام ، يعلون قدر أنفسهم فى الوقت نفسه ، والواقع أن هذا هو سر الحكمة

الإلهية ، التى شاءت أن تكون عامة الناس فى مكة هى أسبق الناس إلى الترحيب بنور الإسلام ، لأن الله أراد أن يضرب مثلا ملموساً بأن فى استطاعة العامة متى نعمت بعطف الله عليها أن تأتى بالمعجزات .

وهذه حقيقة نعرفها جميعاً من ثابت التاريخ ، فالإسلام لم يرفع هذه الطبقة الضعيفة لتقبض بيدها على صولجان الملك ، وتسوس الشعوب بحسب ، بل إنه رفعهم إلى أعلى درجات الأخلاق الحميدة ، والفضائل النفسانية والروحية ، وجعلهم حاملى لواء المعرفة والفن والعلوم والفلسفة ، فى وقت كان العالم يرزح فيه تحت عبء الجهل الفاضح ، فهل كان فى الإمكان الإتيان بدليل أقوى وأنصع من هذا ، على قوة تعاليم الاسلام السامية .

الوحى ليس صوتا من داخل النبى

إن حادث الأعمى — مهما كان تافهاً فى ذاته — فهو دليل قوى على أمر آخر كبير الأهمية ، فهو الكلمة الفصل فى تكييف الوحى الذى كان النبى يلقاه ، أكان وحياً داخلياً ، هامساً فى قلب النبى وسريرته ، أم هى رسالة يلقاها من خارج جسده ؟ وإن نزول الآية الخاصة بعدم اكتراث النبى إلى الأعمى ، شاهد بأن الوحى لم يكن وليد انفعال داخلى فى جسد النبى ، فقد أنبت الآية النبى لتجاهله الأعمى ، فهل يرضى أحد من الناس أن يشهر بغلطته على رءوس الملأ ، إذا كان فى إمكانه تفادى ذلك ، مهما كان حليما طويل الأناة ؟ والنبى — بغض النظر عن تسامى قلبه العظيم — لم يكن مشغوفاً بإعلان هفوته ، مهما كانت صغيرة ، وغير مقصودة على رءوس الأشهاد ، وهذا برهان على أن الوحى كان يأتيه من خارج نفسه ، من عند الله عز وجل ، فلم يك بد من إذاعة الآية ، وهو يعلم أنها تقريع من الله ، وهو يعرف أنها ستخلد على مر الأجيال ، ولكنه مضى عن يتقبل من ربه ، ولا يشعر إلا بالغبطة والسرور .

Digitized by Birzeit University Library

الفصل التاسع

الاضطهاد والتعذيب

« أحسب الناس أن يتركوا أن
يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ».

اضطهاد المؤمنين

كلما شاء الله أن يكلف قوماً من المؤمنين هداية قوم مشركين، فإنه يقضى بأن تظهر فئة تعارضهم بكل ما أوتيت من قوة، وتوقع بهم ألوان الاضطهاد والعذاب؛ وإن ما يلقونه من العذاب إن هو إلا البرهان على صدق إيمانهم، وهو الدليل الفاصل الدال على ذلك. فهم يتقبلون الإيذاء فى سبيل الله، ويحتملون العذاب، ولكنهم لا يتنحون لحظة واحدة عن عقيدتهم. بل يعيشون لها، ومن أجلها يموتون إذا اقتضى الأمر. وإن الإيذاء لهو نوع من اختبار ثباتهم، الذى بدونه لا يبلغون مرتبة الكمال الروحى، وإن البأساء والضراء التى تقع على هؤلاء الناس هى فى الواقع نعمة مستورة تساعد على اطراد تقدمهم الروحى. وهناك جانب ثالث أهم من ذلك هو أن العلى العظيم يريد أن يشهد الخلق على أن لا راد لمشيئته، وأنها تقهر الصعاب مهما بلغت، وتذلل كل العقبات مهما كانت، وعلى ذلك، وتمشياً مع إرادة الله، كان من المقدر أن يقع النبى وأصحابه تحت اضطهاد أهل مكة واعتدائهم.

إيذاء النبى

كانت خطة أهل مكة فى معاداتهم للنبى فى بداية الأمر، الهزء والسخرية منه؛ فلم يعلقوا أهمية تذكر على حركته، معتقدين أنها مقضى عليها على مرور الزمن ولا شك، فكانوا

Digitized by Birzeit University Library

جديرة بأى اعتناء أو اهتمام ، فما كان ينالهم على أيدى قريش إلا التحقير والازدراء ، ولم يكن هنالك مايستدعى الاعتداء والمهاجمة ، فكانوا إذا مروا بالمؤمنين ضحكوا فى وجوههم استهزاء ، وسخروا منهم .

« إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون . وإذا مروا بهم يتغامزون . وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين . وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون » . وكانوا يدعون أحياناً أن النبى كاهن وشاعر .

« فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون . أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون » . كما ادعوا أن بعقله مسا ، ولكن لما أخذ رجال العلم والفضل يلتفون حوله ، شرع أهل مكة يتخوفونه ، فلم يكتفوا بعد بعدم الاكتراث له ، والسخرية منه ، ولكنهم أخذوا يبالغون فى إيذائه ، وحدث مرة ، بينما كان النبى يصلى بالكعبة ، وقد سجد خاشعاً ، أن وضع أبو لهب حول عنقه فرث ناقة .

ولما كان معتاداً الخروج من منزله فى الفجر لتأدية الصلاة ، فإنهم كانوا يتعمدون إيذاءه بوضع الحطب والشوك فى طريقه حتى يهفو فيقع فيها لشدة الظلام . وأحياناً كانوا يلقون التراب على رأسه ، ويرمونه بالحجارة أحياناً . وحدث مرة أن لقيته زمرة من سادة قريش ، فألقى عقبة بن أبى معيط رداءه حول عنق النبى ، وشده عليه ، حتى كاد النبى يختنق . وأقبل أبو بكر فى هذه اللحظة ، وخلصه من أيديهم قائلا : أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله .

تعذيب الأرقاء المؤمنين

وقد تحمل وطأة الاضطهاد والتعذيب هؤلاء الذين ليس لهم نسب أو مكانة فى قريش ، وبنوع خاص العبيد والنساء ، فكانوا يساومون أقسى ألوان العذاب ، ولكن عقيدة الإسلام كانت أعمق من أن تستأصل بمثل هذه القساوات ، لقد كانوا يفضلون مفارقة الحياة عن الارتداد عن إسلامهم ، الذى تغلغل حبه فى أعماق

Digitized by Birzeit University Library

قلوبهم . عذب بلال الحبشي بطريقة وحشية ، كان سيده يرقده على ظهره على أرض الصحراء اللاهبة ، تحت شمس بلاد العرب المحرقة في الظهيرة ، ويضع على صدره أحمالا ثقيلة من الحجارة ، وعلى الرغم من هذه الإساءات التي لا تطاق ، كان يردد بصوت عال ، وهو في حال من عدم الشعور : أحد . أحد : أحد . وكان والد عمار — ياسر — وأمه سمية يعذبان بطريقة غاية في الوحشية ، وإن قصة عذابهما لمما يشيب من هوله الوليد. فقد ربطت ساقا ياسر إلى بعيرين، وانطلق الحيوانان في اتجاهين مختلفين، فمزقت أوصاله بوحشية تفتت الأكباد . أما سمية فقد قتلت هي الأخرى في وحشية أبشع وأقبح ، فقد صوب أبو جهل رمحه إلى موضع العفة منها . وكانت لبينة مولاة عمر ، فكان يضربها قبل إسلامه بكل قواه ، حتى يبلغ منه الجهد منتهاه ، فيتركها ثم يقول : « أتركك الآن لا رحمة بك ، ولكن لأنني تعبت » .

إيذاء المؤمنين من علية القوم

كذلك لم ينج من العذاب علية القوم من المؤمنين ، فكان أقرباؤهم هم الذين يوقعون الأذى بهم ، فكان عثمان من سادة قريش، ومن بيت له مكانته، ولكن عمه أوثقه بحبل من مسد ، وراح يضربه ضربا مبرحاً ، وقد سبق ذكر معاملة عمر لشقيقته فاطمه وابن عمه سعيد . وكان الزبير يلف في حصير ويستنشق الدخان . وأبو بكر لم ينج من الأذى ، فعذب . فكانوا جميعاً يقعون ضحية الاضطهاد الغاشم، ولكن مهما بلغ الاضطهاد، فلم يكن مستطيعا نزع الإسلام من قلوبهم، وقد عجبت قريش نفسها لصمود المؤمنين ، واحتمالهم البلاء ، وصبرهم على الأذى وتمسكهم بعقيدتهم، فازداد حنقها ، وازداد إيذاؤها ، فما زاد ذلك المؤمنين إلا استمساكا بدينهم .

Digitized by Birzeit University Library

الفصل العاشر

الهجرة إلى الحبشة

« والذين هاجروا فى الله من بعد ما
ظلموا لنبوئنهم فى الدنيا حسنة » .

الهجرة الأولى إلى الحبشة

مضى على نزول الوحى خمس سنوات ، والتف حول النبى نيف وخمسون من المسلمين المخلصين ، الذين ألف الإيمان بين قلوبهم فأصبحوا بنعمته إخواناً .

وقد زاد فى تآخيهم اشتراكهم فيما أصابهم من أذى ، وكان عدد المسلمين يزداد يوما بعد يوم ، والنبى رقيق القلب ، يؤلمه الأذى حتى ما يقع بأعدائه . فكيف به فى تعذيب أصدقائه المخلصين ؟ ولقد كانوا مصدر قوة ومنعة وعزة ، فكان من العسير عليه أن يفرط فيهم .

ولكن عند ما رأى قريشا تبالغ فى عدوانها ، نصح المسلمين بالهجرة إلى مكان أمين ، وفضل أن يلقى قومه منفردا ، يقاومه وحده عدوان قريش المرير ، على أن يرى أصحابه ضحايا التعذيب والتنكيل ، وأشار على أصحابه أن يلجئوا إلى الحبشة قائلا : فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد ، وهى أرض صدق ، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه . وكانت الحبشة ، وصاحبها النجاشى من المسيحيين ، وإليها رحلت الطائفة الأولى من المهاجرين المسلمين ، وكانوا أحد عشر رجلا وأربع نساء ، وكان فيهم عثمان وزوجه رقية (ابنة النبى صلى الله عليه وسلم) . هاجرت هذه الطائفة فى شهر رجب من السنة الخامسة للرسالة . فلما وصل المهاجرون الميناء ، ركبوا

Digitized by Birzeit University Library

السفينة وأقلعوا ، مخلفين وراءهم وطنهم ، لاجئين إلى أرض الغربة ، حيث السلام والطمأنينة .

مطاردة قريش لهم

ولما علمت قريش أرسلت الرسل فى عقبهم ، ليحولوا دون هجرتهم ، ولكن خاب أملهم ، فقد سارت السفينة قبل وصولهم ، فعادوا والإخفاق فى ركابهم ، وفكروا فيما يفعلون ، حتى لا تثبت قدم الإسلام فى أى مكان ، فقر قرارهم على بعث وفد إلى النجاشى ، رجاء ألا يسمح للمسلمين بالالتجاء إلى بلاده ، وأن يسلمهم إلى قريش ، وكان عبد الله بن أبى ربيعة ، وعمرو بن العاص ، هما اللذان انتخبا لهذه البعثة ، فذهبا إلى الحبشة يحملان الهدايا النفيسة ؛ وكان أول ما عملاه هناك محاولة استمالة رجال الكهنوت ، فأدخلوا فى روعهم أن المسلمين قد ابتدعوا دينا مضادا للنصرانية ، وعززوا تأثيرهم هذا بما كان فى أيديهم من الهدايا النفيسة ، فنجحا فى التسلط على رجال الدين ، واستغلوا نفوذهم لدى الملك . وأمكنهم أن يصلوا إلى بلاط النجاشى ، والتمسوا رد المسلمين الذين خرجوا عن دين آبائهم الأولين ، فاستدعى النجاشى المسلمين إلى بلاطه ، وطلب منهم أن يردوا على اتهاماتهم . وهنا قام أحدهم : جعفر ابن أبى طالب وقال : أيها الملك : كنا قوما أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتى الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسىء الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف ، وكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا ، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات ، وأمرنا أن نعبد الله ولا نشرك به شيئاً ،

Digitized by Birzeit University Library

وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام . فصدقناه وآمنا به ، واتبعناه على ما جاء به من الله ، فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئاً ، وحرمنا ما حرم علينا ، وأحللنا ما أحل لنا ، فعدا علينا قومنا فعذبونا ، وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى ، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث ، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا ، خرجنا إلى بلادك ، واخترناك على من سواك ، ورغبنا فى جوارك ، ورجونا ألا نظلم عندك أيها الملك .

رفض النجاشى تسليم المسلمين

ثم قرأ عليه جعفر بعض آيات القرآن (صدراً من كهيعص) ، فأثرت فى قلبه ، فرد على وفد قريش بأنه لن يسلم المسلمين أبداً ، فلما خاب أملهم ، حاولوا فى اليوم الثانى إهاجة الملك ، بإبلاغه أن المسلمين لا يعتقدون فى قدسية المسيح ؛ ولكن طاش سهمهم إذ اعترف المسلمون بأنهم لا ينظرون إلى المسيح نظرتهم إلى إله ، ولكنه نبى من عند الله . فأخذ النجاشى عوداً وخط به على الأرض ، وقال : ليس بين دينكم ودينا أكثر من هذا الخط ، وباءت بعثة قريش بالخيبة .

أسباب التعقب

ضاقت قريش بهجرة المسلمين إلى الحبشة ، فتعقبوهم أول ما تعقبوهم إلى الميناء للقبض عليهم ، فلما لم يفلحوا لحقوا بهم فى بلاط النجاشى ، فما الذى ضايقهم ؟ أدعاية المسلمين عبادة الأصنام هى التى أقامت قريشا وأقعدتها ، إن المهاجرين كانوا جد بعيدين عنهم فما كانوا يجرحون شعورهم بما كانوا يقولونه عن أصنامهم . الثابت أن العداوة التى بدأت دينية ، تحولت وأصبحت شخصية ، فكان القرشيون لا يطيقون رؤية المسلمين الذين أخرجوا من ديارهم ، وقد اطمأنوا فى الخارج ، فعقدوا العزم على استئصالهم فسافروا هذه السفرة الطويلة إلى النجاشى للايقاع بهم ، إن هذا هو السبب الحقيقى

Digitized by Birzeit University Library

الذى جعلهم لا يتركون النبى وصحبه يتنفسون الصعداء ، حتى فى المدينة مهاجر النبى ، ولم يكن فيها قوة تحمى المهاجرين المسلمين من أعدائهم المتعطشين إلى دمائهم ، فطمع أهل قريش فى القضـــاء عليهم ، واستئصال شأفتهم بحد السيف ، وإن غريزة المحافظة على النفس ، قد دفعت المسلمين إلى تسديد الضربات الدفاع عن أنفسهم . وكانت هـذه هى بداية الحروب الإسلامية ، التى خاض المسلمون غمارها مدافعين لا معتدين . إن قريشا لم تتركهم وشأنهم ، حتى بعد أن أجلوهم عن بلادهم وديارهم ، فلم يكن أمام المسلمين غير طريق واحدة ، هى وقفهم عند حدهم وصدهم ، وأن يقفوا فى وجههم وقفة الرجولة المكافحة ، وعلى الرغم من ذلك ، فإن بعض الناقدين الذين تعاموا عن الحقائق التاريخية الثابتة ، ادعوا أن الخطوة الأولى فى هذه المعارك كانت من جانب النبى ، وبذلك وصفوا الإسلام بأنه دين السيف ؛ وليس هنالك ماهو أبعد من ذلك عن الحقيقة ، وإن هجرة الحبشة — كما ورد ذكرها سابقا — تثبت إثباتا قاطعا أن المسألة لم تكن مسألة مروق أو خروج على الدين ، فإن قريشا كانت قد عقدت العزم على إبادة الإخاء الإسلامى إبادة تامة ، ونأى بثمن .

الهجرة الثانية

لما عاد وفد قريش تحف به الخيبة والفشل ، هاج هائجهم ، واستأنفوا إيذاءهم وعدوانهم كأشد ما يكون ، وكانوا يدهشون لثبات المسلمين أمام هذا العذاب المروع ، أقنعتهم الهجرة إلى الحبشة ، بأن المسلمين قد عقدوا العزم على المضى فى الأمر حتى النهاية ، وأنهم على استعداد للمخاطرة ، وتحمل ألوان العذاب ، فى سبيل القضية الإسلامية ، فهم لا يجزعون من الملمات فى سبيل الله ، ثم إن بقية المسلمين الباقين بمكة ، عند ما علموا بحسن وفادة النجاشى الكريمة لإخوانهم ،

Digitized by Birzeit University Library

هاجر فريق آخر منهم إلى الحبشة فى العام التالى .

وقد حاولت قريش جاهدة أن تحول دون هذه الهجرة ، وعبثاً حاولت ، وهاجر الرجال والنساء معاً إلى الحبشة ، وبلغ عددهم مائة وواحدا ، أقاموا هناك جميعهم ماعدا عثمان وزوجه ، فقد عادا إلى مكة بعد وقت قصير ، ولم يجتمع المهاجرون بإخوانهم المسلمين إلا فى المدينة ، بعد أن هاجر إليها النبى بسبع سنوات « فى السنة السابعة من الهجرة » بعد عقد صلح الحديبية ، الذى تم فى السنة السادسة من الهجرة ، على وقف القتال بين الطرفين لمدة عشر سنوات .

وكان من أثر هذا الصلح أن عادت الطمأنينة للمسلمين فى بلاد العرب ، وسمع به المسلمون بالحبشة ، فعادوا إلى ديارهم ، وأقاربهم ، وأوطانهم ، ومعنى هذا أن المسلمين الذين كانوا بالمدينة ، لم يكونوا آمنين حتى السنة السابعة للهجرة ، حتى صلح الحديبية الذى كان متنفساً لهم .

علاقات المسلمين بالنجاشى

معاملة النجاشى الحسنة للمسلمين ، وعطفه عليهم ، حملتهم على أداء الواجب ؛ فنى أثناء إقامتهم فى مملكته ، نشبت الحرب بين الحبشة ودول معادية لها ، فانضم المسلمون بمحض إرادتهم إلى جانب قوات النجاشى .

وصلوا وابتهلوا إلى الله ، داعين له بالنصر ، وبرهنوا على أنهم قوم مخلصون يعترفون بالجميل ، ومنذ بدء الإسلام كان شعار المسلمين « ما جزاء الإحسان إلا الإحسان » .

دعوى مهادنة الوثنية

وثمة حادث جدير بالذكر بمناسبة الهجرة الأولى إلى الحبشة ، وقع بعد أن نزلت سورة النجم على النبى « والنجم إذا هوى ، ماضل صاحبكم وما غوى . . . » فنى نهايتها آية خاصة بالسجود لله ؛ كان النبى إذا قرأ هذه السورة ،

Digitized by Birzeit University Library

وجاء إلى نهايتها « فاسجدوا لله واعبدوا » سجد لله وسجد معه أهل مكة المشركون ، لأنهم كانوا يعبدون الله على الرغم من عبادتهم الأوثان . وقد شوه بعضهم هذه الحقيقة ، ورواها على شكل آخر .

ادعوا أن النبي رأى من الحكمة مهادنة الوثنية ، فتسامح فى هذه السورة ، فقرأ بعد « ومناة الثالثة الأخرى » تلك الغرانيق العلا ، وإن شفاعتهن لترتجى ، ولهذا خر عبدة الأصنام ساجدين ! ، ولكن هذه الرواية تفتقر إلى إثبات ، فلم يذكر الحادث فى السير الموثوق بها ، وليس معنى رجوع بعض المهاجرين من الحبشة أن هناك مهادنة قد وقعت مع الوثنيين ، وأن سجود المشركين تأويله أنهم اعتنقوا الإسلام ، فعاد المسلمون المهاجرون من الحبشة إلى أوطانهم لما سمعوا بذلك .

والحقيقة أن المهاجرين القليلين الذين عادوا إلى مكة ، عادوا إليها إخوانهم بالحرية والطمأنينة التى يتمتعون بها تحت حكم النجاشى ، إقناعهم بالرحيل معهم إلى هناك ، وقد حدث ذلك بالفعل لهجرة الثانية إلى الحبشة .

الفصل الحادى عشر

محاولات الاجهاز على الاسلام

« ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن ،
« إليهم شيئاً قليـــــــــلا ،

لم تقف محاولات إخماد حركة الدعوة الإســـلامية على الاعتداءات التى كانت تصب على النبى وصحبه : بل تنوعت طرق محاولات إطفاء نور الله ، كانت الدعوة فى أول الأمر تجرى خفية، حتى نزل الوحى على النبى بأن يجهر بالدعوة التى أمر بها (فاصدع بما تؤمر، وأعرض عن المشركين)، وأن ينذر ذوى قرباه: (وأنذر عشيرتك الأقربين) ، فكان عليه إذن أن يصدع بما أمر به .

صعد يوماً على جبل الصفا ، وأخذ ينادى قبائل قريش بأسمائها حتى التأم جمعهم ، فسألهم النبى : أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل أكنتم مصدقى ؟ فأجابوا جميعاً : نعم أنت عندنا غير متهم ، ماجربنا عليك كذبا قط .

قال : فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد . إن الله أمرنى أن أنذر عشيرتى الأقربين ، وإنى لا أملك لكم من الدنيا منفعة ، ولا من الآخرة نصيبا إلا أن تقولوا : لا إله إلا الله . وهاج هائجهم ، وكان أبو لهب أكثرهم تمادياً فى إساءة الأدب ، وكانت عداوته للنبى تزداد فى كل يوم مرارة . وكان هو وزوجه يضايقانه ، ويؤذيانه بشتى أنواع الإيذاء .

وفى أيام الحج عند مايجتمع الناس من جميع بقاع بلاد العرب ، كان

Digitized by Birzeit University Library

النبي يعرض نفسه عليهم ، لينشر دعوته بينهم ، وأينما ذهب كان أبو لهب يحث الناس على ألا يصدقوه ، لأنه شاعر أو مجنون .

الوفد الأول إلى أبي طالب

لما رأت قريش أن اضطهاد النبي لم يجد ، والعراقيل ليست بمؤدية إلى إخماد الحركة الإسلامية ، وأن المؤمنين لا يبالون الاضطهاد والأذى ، وأنهم يفضلون التشريد على الارتداد على دين الله ، اجتمع رأي المشركين على التخلص من النبي ، وبذلت شتى المحاولات للقضاء على حياته خفية ، ولكن لم يجد ذلك ، فلا بد من الاقدام على ذلك جهراً ، فكان على كل قبيلة أن تحكم أفرادها ، فاغتيال النبي قد يؤدي إلى حرب أهلية ، فقر رأيهم على التماس موافقة أبي طالب عم النبي ، قبل الشروع في عملهم الشنيع ، فتألف وفد من سادة قريش ، على رأسهم أبو سفيان ، ومشوا لمقابلة أبي طالب ، فقالوا « يا أبا طالب ، إن ابن أخيك قد سب آلهتنا ، وعاب ديننا ، وسفه أحلامنا ، وضلل آباءنا ، فإما أن تكفه عنا ، وإما أن تخلي بيننا وبينه » .

ولكن أبا طالب ردهم مصطنعاً جميل اللفظ . ولا شك أن الاتهامات التي ألصقت بالنبي كانت جد مبالغ فيها ، فإنه لم يندد بآلهتهم ، لأن القرآن الكريم ينهى عن ذلك (ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله) ، والقرآن الكريم الذي في أيدينا اليوم صحيح كامل كما أنزل في اليوم الأول ، ولمن شاء البحث فيه من أوله إلى آخره ، فلن يجد كلمة واحدة من السباب لآلهة المشركين .

وكل ما يقوله : إنهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ، كما لا يملكون دفع الأذى عنهم ، وأن تعدد الآلهة ، وعبادة الأصنام عمل بغيض : « يعبدون من دون الله مالا ينفعهم ولا يضرهم » .

Digitized by Birzeit University Library

الوحدة الثانية

ومضى النبي يدعو إلى دين الله ، ويشتد في دعوته، فساء الأمر بينه وبينهم ، واستمر النبي على أداء رسالته ، فتأثرت قلوب كثيرة بنور الإسلام وصدقته ، ولما وجدت قريش أن وعيدهم لم يلق أذناً واعية ، قرروا أخيراً أن يحسموا الأمر ، فمشوا إلى أبي طالب وقالوا له : يا أبا طالب ، إن لك سنا وشرفا ومنزلة فينا ، وقد سألنا أن تنصفنا من ابن أخيك ، فلم تنهه عنا ، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا ، وتسفيه أحلامنا ، وعيب آلهتنا ، حتى تكفه عنا ، أو ننازله وإياك حتى يهلك أحد الفريقين ، وهذا ما يسمونه في محيط السياسة بالبلاغ النهائي. إنه موقف دقيق فكان أبو طالب بين أمرين أحلاهما مر ، وإحدى اثنتين : إما حرب قومه وإما التخلص من ابن أخيه الذي يحبه كل الحب .. وكان من العسير أن يختار ذلك وفي حيرته هذه أرسل إلى النبي ، وشرح له الموقف كله . قال له : فأبق على نفسك ، ولا تحملني من الأمر مالا أطيق .

حزم النبي

موقف حرج . قريش بأسرها متعطشة إلى دمه . ولولا حماية أبي طالب لاختطفت روحه في رائعة النهار . والآن يكاد باب أبي طالب يوصد دونه ! ولم يعد على الأرض قوة تحول دون وصول يد قريش إليه ، وإن صحبه الذين كانوا يتمنون افتداءه بحياتهم بعيدون عنه ؛ إنهم هناك في مكان ناء بإفريقية ! وكان طبيعيا أن تدفعه غريزة حب الحياة إلى المهادنة ، وبذلك ينقذ حياته ، ويتمكن من الهجرة إلى مكان آخر ، يتسنى له فيه نشر دينه ، فهل داخل قلبه مثل هذا الميل المعقول جدا ، في مثل هذه الظروف الحرجة ؟ لا . والله ، فقد كان إيمانه في الله لا ينزعزع ولا يهن . فهو لن يحيد قيد أنملة عن رسالته ، التي هي كل شيء في حياته .

فما نطق أبو طالب بما قاله ، حتى قال النبي : ياعم ، والله لو وضعوا

Digitized by Birzeit University Library

الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى ، على أن أترك هذا الأمر : حتى يظهره الله أو أهلك فيه ، ماتركته . وكان يقدر الحرج الذى جلبه بموقفه هذا لعمه الذى رباه صغيرا وحماه وتعرض للأذى كثيراً بسببه . . فاغرورقت عيناه بالدموع ، وتركه والأسى يملأ قلبه . لم يكن أبو طالب قد ترك دين آبائه وأجداده ، ولكنه كان يقدر صفات النبى الجليلة ويتعشقها ، فكان يفضل أن يلاقى الموت على أن يترك النبى وشأنه منفرداً ، فنادى محمداً : أن أقبل . فلما أقبل قال له : اذهب يابن أخى ، فقل ما أحببت ، فوالله لا أسلمك لشىء أبداً .

الوفد الثالث

كانت قريش تعتقد اعتقاداً جازماً بأن أباطالب سوف يتقهقر أمام طلبهم هذا ، لذلك كان دهشهم عظيما عند ماعلموا أنه يقف بجانب النبى صلى الله عليه وسلم ! مهما حدث ، وأياً كانت الظروف فلاح شيح الحرب الأهلية بين القبائل ، ولكنها عمل مفعم بالمخاطر ، وربما كانت القاضية على نفوذ عشيرتهم إلى الأبد ، فرأوا الاتفاق مع أبى طالب بدلا من التهديد . فمشوا إليه ومعهم عمارة بن الوليد ، وهو فتى وسيم الطلعة ، وطلبوا إليه أن يتخذه ولداً ، وأن يسلم إليهم محمداً فأبى ، وقال لهم : والله لبئس ماتساومونى . . . أتعطونى ابنكم أغذوه لكم ، وأعطيكم ابنى فتقتلونه !! هذا والله لايكون أبداً ! وباءت قريش بالخيبة مرة أخرى . وجمع أبو طالب أهل بيته كلهم وحذرهم من الخطر المرتقب خشية أن تلجأ قريش فى آخر الأمر إلى عمل عدائى مسلح ضد بنى هاشم ، فقر عزمهم جميعا على ألا يسلموا النبى إلى قريش مهما حدث ، ومهما كان من وعدهم لبنى هاشم ، إلا أبا لهب ، فقد تحالف مع العدو وآزره . إن الأسرة كلها على استعداد لا متشاق الحسام ، للدفاع عن رسول الله . هذه مكانة النبى بين أهله ، فليس فيهم إلا من يحبه لما اتصف به من

السجايا العالية النبيلة ، فعلى الرغم من اختلافهم معه فى الدين ، كانوا على استعداد للتضحية بحياتهم فى سبيل الذود عنه .

قريش تعرض الملك والثروة

لم تكن قريش قد استنفدت بعد جميع وسائلها للوصول إلى حل يكفيهم مؤونة سفك الدماء . فما زال فى جعبتهم سهم أخير ، لقد انتهت حملات الاضطهاد والاعتداء على غير جدوى، فاعتقدوا أنهم قد ينجحون عن طريق الإغراء المباشر . وعلى هذا تألف وفد لمفاوضة النبى . فقصدوا داره ، وعرضوا عليه أجمل الأمانى ، وأكثرها إغراء ، فقالوا: «إن كنت جئت بهذا الحديث تطلب مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت إنما تطلب الشرف فينا ، فنحن نسودك علينا ، وإن كنت تريد ملكا ملكناك علينا » .

مغريات بلا شك ! إنها خطوة واسعة تلك التى يقفزها هذا الضعيف المعدم المضطهد ، حتى يصبح سيدهم وملكا عليهم ! ولكن النبى ما طمع فيما يطمع فيه سواد البشر . فيالها من دهشة ، ويالها من خيبة أمل ، عند ما سمعت قريش جواب الرسول .

« ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ، ولا الشرف فيكم ، ولا الملك عليكم ، ولكن الله بعثنى إليكم رسولا ، وأنزل على كتاباً ، وأمرنى أن أكون لكم بشيراً ونذيراً ، فبلغتكم رسالات ربى ، فإن تقبلوه فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وإن تردوه على ، أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم .

وضاع أمل قريش الأخير فى التفاهم الودى ، فقد باء الإغراء بنفس ما باء به الاضطهاد والإيذاء . كان الاضطهاد ثقيل الوطأة ، وكان الإغراء عظيماً حقا . ولولا أن ثبت الله قلب نبيه لخذله الإيذاء الذى تعرض له ، ولبهره الإغراء الذى عرض عليه ، ولكنه بقى ثابتاً يسخر من المحاولات التى

Digitized by Birzeit University Library

بذلت فى سبيل تغيير عقيدته ونبذ رسالته ، وإلى هذا أشار القرآن الكريم: « ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا » .

مقاطعة بنى هاشم

قلت جميع أسلحة الاضطهاد التى استعملتها قريش ، ففكروا فى سلاح آخر ، وكانت السنة هى السنة السابعة للرسالة ، وكان أغلب المسلمين قد هاجروا إلى الحبشة ، ودخل عمر وحمزة فى الإسلام ، فازداد بهما منعة ، ورفض أبو طالب رفضاً باتاً التخلى عن حماية ابن أخيه ، وعقد بنو هاشم كلهم ، إلا أبا لهب ، العزم على الدفاع عن محمد أو يهلكوا دونه ، وفضلا عن ذلك فإن نور الاسلام كان يسرى من قبيلة إلى أخرى ، فقر قرار قريش على مقاطعة بنى هاشم ، فكتبوا كتابا فيما بينهم تعاهدوا فيه على ألا ينكحوا إليهم ولا ينكحوهم ، ولا يبيعوهم شيئاً ، ولا يبتاعوا منهم ، وعلقوا هذه فى جوف الكعبة ، فاحتمى النبى وبنو هاشم بشعب فى الجبل ، فضربت قريش نطاقا من الحراس يمنعون المسلمين من الخروج ، كما يمنعون الناس من الدخول ، وكان أبو جهل يتفقد الأمر بنفسه ، ليتحقق من أن المقاطعة نافذة كما ينبغى ، وحدث أن حاول حكيم بن حزام أن يمد خديجة ببعض الزاد ، وهى من قريباته ، فتدخل أبو جهل ، وعارضه . لم تجد هذه المقاطعة ، فما وهن واحد من بنى هاشم ، فقد تحملوا جميعا الاضطهاد بنفس مطمئنة ، حبا فى النبى ، وما كانوا ليقبلوا مشاركته فى مثل هذا الاضطهاد المروع ، لولا تقديرهم العميق له ، واحترامهم إياه ، وما كان النبى يستطيع تجاوز الشعب . ولكن فى الأشهر الحرم ، عند ما تنام الخصومات ، ويصبح القتال محرما ، كان النبى يعترض الحاج من مختلف القبائل بالدعوة إلى الله ، ولكن أبا لهب كان أتبع له من ظله ، فكان يحذر الناس الاستماع إليه ، ويدعى أنه كذاب ، فكان النبى يقابل بالصد ، بحجة أنه لو كان صادقا لكان

Digitized by Birzeit University Library

قومه أول من صدقه ، وأولى الناس بتصديقه ، وبالاختصار كانت هذه الحقبة جد عسيرة على محمد وبنى هاشم، توقفت الدعوة فيها توقفا كلياً.

نقض الصحيفة

ارتفعت همسات التذمر والاستياء من الظلم الذى أوقع ببنى هاشم ، وشعر رقيقو القلب من قريش بقسوة المقاطعة والحصار ، وجاء يوم أعلن فيه بعضهم التذمر ، وأجمع خمسة من سادات قريش أمرهم ، وتعاهدوا على القيام فى أمر الصحيفة حتى ينقضوها ، وكانت الصحيفة معلقة بأستار الكعبة ، وكان أبو طالب قد خرج إلى قريش ، وأخبرهم أن الله قد سلط على صحيفتهم الأرضة ، فلحست كل ما فيها من جور أو ظلم أو قطيعة رحم ، وبقى فيها كل ما ذكر بالله ، فأرسلوا إلى الصحيفة وفتحوها ، فلم يجدوا بها سوى اسم الله ، فتلاوم رجال قريش الذين اتفقوا على نقض الصحيفة ، على ما صنع ببنى هاشم ، ولبسوا السلاح ، ثم خرجوا إلى بنى هاشم وبنى المطلب ، فأمروهم بالخروج إلى مساكنهم ، ففعلوا . ودام الحصار ثلاث سنوات .

وفاة أبى طالب وخديجة

توفى أبو طالب عم النبى بعد رفع الحصار مباشرة ، وعلى الرغم من أنه لم يدخل فى الإسلام فقد وقف بجوار ابن أخيه دواما ، وثبت معه أبداً ، فأحبه النبى حباً جماً ، وأحس لفقدانه حزناً عميقاً . لقد فقد فيه سنداً ، وتلاحقت المصائب ، فقد توفيت عقب ذلك بقليل خديجة زوجه الوفية . التى خدمته طوال الوقت من كل قلبها ، والتى لم تهن أو تتراخ لحظة ، فقد كانت مصدر التسرية فى لحظات الحزن والأسى ، وقد فقدانى بفقدانهما نصيرين طالما شد أزره ، وخسر النبى بموتهما خسارة كبيرة لا تعوض . وقعت هذه الصدمات فى العام العاشر للإسلام ، ولهذا سمى فى التاريخ الإسلامى بعام الحزن . فقد النبى فيه مواسيين كريمين ، ونصيرين قويين ، فأصبح أمام صعوبات كبيرة . وكان موتهما فاتحة عهد جديد من المتاعب والصعاب ، والأهوال .

Digitized by Birzeit University Library

الفصل الثانى عشر

أيام مكة الأخيرة

« وإن كادوا ليستفزونك من الأرض
ليخرجوك منها ، وإذاً لا يلبثون
خلافك إلا قليلا » .

كان على النبى أن يوطن نفسه على مقابلة صعاب أشد قسوة مما قابل فى سبيل نشر رسالته ، فقد زالت الآن تلك الحصانة التى استمدها من منزلة خديجة وأبى طالب عند قريش ، وأطلقت يد المشركين تفعل به كل ماوسعه كيدهم . وعلى الرغم من شدة وطأة الاضطهاد والطغيان ، فإن ثقة النبى فى النصر النهائى لم تهن ولم تتزعزع . وبينا كان يمر فى الطريق ، إذ اعترضه معترض من قريش ورمى على رأسه ترابا ، فعاد إلى داره ، فقامت إليه ابنته ، وجعلت تغسل عنه التراب وهى تبكى ، فقال لها : « لا تبكى يابنية ، فإن الله مانع أباك » ، ولم يفكر قط فى أن يشد الرحال كما رحل صحبه إلى الحبشة ، حيث كان الملجأ أميناً ، ولم يداخله اليأس لحظة فى هداية أهل الأرض التى ولد بها ؛ ستفيق أرض الجزيرة يوما ما ويبهرها نور الإسلام ، وإن كانت الظروف التى تحيط به جد مؤسة . إنه ليعتقد اعتقاداً جازماً أن أعداء اليوم سيصبحون فى يوم من الأيام أصدقاءه الأوفياء . إن قلب قريش أقسى من الصلب ، وهذه القسوة جعلته يولى وجهه شطر الطائف حيث يأمل أن يستجيب الناس إليه ؛ فذهب إلى هناك برفقة زيد ، وقابل إخوة ثلاثة من أكرم بيوت

Digitized by Birzeit University Library

الطائف ، فعرض عليهم أمره ، ولكن خاب فأله ، فقد أعاروه جميعا أذنا صماء ، وأقام نحواً من عشرة أيام يتلو رسالته على الناس ، ولا من مجيب ، وكان الناس يطلبون منه إقناع قومه أولا ، لو أن دعواه صادقة . وطلب منه أخيرا أن يغادر الطائف ، وما هم بمغادرة المدينة حتى أغرى القوم به سفهاءهم ، يسبونه ويصيحون به ، فاصطفوا على جانبي الطريق في مسافة طويلة ، فلما مر من بينهم ، جعلوا يرشقونه بالحجارة في عقبيه ، فسال منه الدم ، وكان كلما اشتد نزيف الدم منه ، وأعياه التعب ، جلس يستريح ويستجمع قواه ، ولكنهم ما كانوا ليتركوه ، بل كانوا يأمرونه بالرحيل ، واستمر الحال على هذا المنوال قرابة ثلاثة أميال ، فكف عنه متعقبوه ، وقد غمر الدم نعليه ، فاتجه إلى بستان لعتبة ابن ربيعة ، وجلس في ظل شجرة ، وتحركت نفس عتبة شفقة عليه ، فبعث غلامه النصراني (عداسا) ، بقطف من عنب ، فلما وضع النبي يده فيه قال : باسم الله ، ثم أكل ، ونظر عداس دهشا وقال : هذا كلام لا يقوله أهل هذه البلاد ! فسأله محمد عن بلده ودينه ، فلما علم أنه نصراني من نينوى قال له : أمن قرية الرجل الصالح يونس بن متى ؟ فسأله عداس : وما يدريك ما يونس بن متى؟ قال محمد : ذاك أخي ، كان نبيا وأنا نبي ، فأكب عداس على محمد يقبل رأسه ويديه ورجليه وأسلم .

دعوة النبي

نبذت دعوة محمد في كل مكان ، وأعرض عنه الناس ، واشتد كربه ، فاتجه إلى الله العلي العظيم ، لا ليعلن يأسه وقنوطه . فما له أن يقنط وهو المطمئن على المستقبل ، بل ليستمد من الله العون ، فراح يضرع : «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي ، وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين وأنت ربي ، إلى من تكلني ؟ إلى بعيد يتجهمني أو إلى عدو ملكته أمري ، إن لم يكن بك على غضب فلا

Digitized by Birzeit University Library

أبالى ، ولكن عافيتك أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك ، أو تحل على سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك »

أى إنسان لايقدر صفاء هذه النفس التى تنبض بمثل هذا السمو ، وفى مثل هذه الظروف الصعبة القاسية ؟ أمن الممكن أن يفيض قلب رجال بمثل هذه الأحاسيس النبيلة ، فى مزدحم الآلام وشدة الكروب ؟ لقد احتمل فى الاضطهاد مالا يحتمله غيره من البشر ، وظل مطمئنا اطمئناناً رائعاً يدعو إلى الإعجاب ، وأعجب من ذلك تجلده وتحمل الحرمان الذى كان كافيا ليقود غيره إلى الانتحار . يالثقة الراسخة فى الله ، ويالخضوع العجيب لإرادة الله ، ويالسعادة الروحيـــة الصافية التى لا يشوبها شىء ! إن كل أذى ليهون فى جانب رضا الله .

دعوة القبائل

(٥) عاد محمد إلى مكة بعد أيام قليلة ، بعد أن أجاره مطعم بن عدى ، وجاء موسم الحج فجعل يعرض نفسه على قبائل العرب يدعوهم إلى الاسلام ، ويخبرهم أنه نبى مرسل ، ويسألهم أن يصدقوه . وكان كلما عرض نفسه على قبيلة جاء أبو لهب من ورائه يحرض الناس على ألا يستمعوا له ، زاعما لهم أن محمدا يسب اللات والعزى ، ويسلبهما سلطتهما الروحية ، فلم يلتفت إليه إلا القليل ، بل لقد أغلظ له بعضهم فى القول ، فلم ييأس . وأظهرت إحدى القبائل ميلا إلى تعاليمه ، ولكنها اعتذرت بضعفها ، فهى لا تجرؤ على أن تفض يدها من دينها القديم الموروث دفعة واحدة ، وسأله سائل عما يفعل إذا كتب له النصر ، هل يشركهم فى ملكه ، إن أصبح له ملك بمساعدتهم ؟ فأجابه النبى بأن الأمر بيد الله يهب الملك لمن يشاء . هذا الحادث على ضئولته يدل ويشهد للنبى ، فإن كان يطلب جاها ، فما أيسر قبول العروض

Digitized by Birzeit University Library

السابقة ، فيصبح سيد قريش وملكها . ولكن مما لا جدال فيه أن السلطة الدنيوية لم تكن هدفه أبدا ، إن قلبه كان يهتصر حزنا لرؤية ماوصلت إليه الإنسانية من تدهور ، إن هدف حياته أن يرقى بالإنسانية جمعاء ، وإنه ليتطلع إلى الله بحرارة يستمد منه العون ، وإنه لآت لاريب فى ذلك .

مبايعة العقبة الاولى

لقى النبى رهطا من الخزرج ، وهم إحدى قبائل المدينة ، بينما كان يعرض دعوة الإسلام على أفواج الحجاج ، فسألهم عن شأنهم فعرف أنهم حلفاء يهود ، فعرض عليهم الإسلام ، ولما كانوا يسمعون من اليهود عن النبى المرتجى (المعزى) كما تنبأت بذلك الكتب اليهودية السماوية ، فإن دعوى النبى أنه «نبى» لم تكن شيئا جديدا بالنسبة إليهم ، وإن تعاليم الإسلام التى عرضها عليهم قد بهرتهم ، فثبت لديهم أنه النبى المنتظر ، ونقلوا هذا إلى بلادهم عند عودتهم ، وقد ساعد هذا على تصديقهم له ، وقبولهم ماعرض عليهم من الإسلام . وقد حدث ذلك فى السنة الحادية عشرة للإسلام . عادوا إلى المدينة ، فاهتم كثيرون بالدين الجديد ، الذى راح ينتشر هناك بسرعة ، وأصبح اسم النبى علما بينهم ؛ ودخل فى دين الله أفواج كثيرة من الناس ، فلما استدار العام ، وجاء موسم الحج ، أتى الموسم اثنا عشر رجلا من أهل يثرب ، فالتقوا بالنبى بالعقبة ، وبايعوه بيعة العقبة الأولى . بايعوه على ألا يشرك أحدهم بالله شيئا ، ولا يسرق ، ولا يزنى ، ولا يقتل أولاده ، ولا يأتى ببهتان يفتريه بين يديه ورجليه ، ولا يعصيه فى معروف ، فإن وفى ذلك فله الجنة ، وإن غشى من ذلك شيئا فأمره إلى الله ، إن شاء عذب وإن شاء غفر ، وسميت هذه المبايعة بمبايعة العقبة الأولى ، وحدث ذلك فى السنة الثانية عشرة للاسلام .

Digitized by Birzeit University Library

متابعة العقبة الثانية

أنفذ النبي معهم مصعب بن عمير يقرئهم القرآن ، ويعلمهم دينهم . وكان لإنفاذه أجمل الأثر فى انتشار الإسلام انتشاراً يدعو إلى الغبطة ، فدخل فى دين الله عدد من سادات الأوس والخزرج ، وظهر أثر انتشار الإسلام فى يثرب فى موسم الحج التالى . فوفد على مكة ثلاثة وسبعون رجلا مسلماً وامرأتان ، واجتمع النبي بهم فى العقبة ليلا ، وكان معه عمه العباس ، وكان مايزال على دين قومه . وكان أول من تكلم فقال : يا معشر الخزرج ، إن محمداً منا حيث قد علمتم ، وقد منعناه من قومنا ممن هو مثل رأينا فيه ، وهو فى عز من قومه ، ومنعة فى بلده ، وقد أبى إلا الانحياز إليكم ، واللحوق بكم ، فإن كنتم ترون أنكم وافون له فيما دعوتموه إليه ، ومانعوه ممن خالفه ، فأنتم وما تحملتم من ذلك ، وإن كنتم مسلميه وخاذليه بعد خروجه إليكم فمن الآن فدعوه .

فقال أهل المدينة ، الذين عرفوا فى التاريخ الإسلامى فيما بعد باسم الأنصار : سمعنا ماقلت ، فتكلم يارسول الله ، فخذ لنفسك وربك ما أحببت .

فتلا النبي القرآن ورغب فى الإسلام ، ثم قال :

— أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم .

فقام كبيرهم براء بن معرور ومد يده يبايعه على ذلك ، وقال :

— بايعنا يارسول الله ، فنحن والله أبناء الحروب ، وأهل الحلقة ، ورثناها كابراً عن كابر .

ولما فرغوا من البيعة قال لهم النبي :

— أخرجوا الى منكم اثنى عشر نقيباً ، يكونون على قومهم بما فيهم

وهكذا لم يذهب النبي إلى المدينة إلا بعد أن دعاه أهل المدينة بأنفسهم وكانت عادة العرب أنه إذا نزل غريب من قبيلة بقبيلة ما، فعلى التي نزل بها أن تتعهد بحمايته، على الرغم من أن القاعدة، هي أن القبيلة لا تحمي إلا أفرادها فقط، وكان النبي يعرف، كما كان العباس يعرف، أنه على الرغم من انتقال النبي من مكة إلى المدينة، فإن قريشاً لن تتركه آمناً هناك. فكان أمراً ضرورياً أخذ العهد والميثاق على الأنصار بحمايته في حالة اعتداء القرشيين عليه، وكان لهذا التخوف أساس، فقد سبق أن ظهر سوء نية قريش لما اقتفت أثر أتباع النبي المهاجرين إلى الحبشة، وقد عرف هذا الميثاق بمبايعة العقبة الثانية، وكانت في السنة الثالثة عشرة للإسلام.

قريش تطارد الأنصار

تم هذا الاجتماع، وهذا الميثاق خفية، ولم يدر به إلا هذا النفر القليل من المسلمين، والعباس عم النبي، ولم يعلم به حتى أهل يثرب من غير المسلمين، ولكن عرف الأمر عند ما انتهى الحج، وغادر الناس مكة، فخرجت قريش في إثر قوافل أهل يثرب، فلم تلحق إلا باثنين منهم، هرب أحدهما، وردوا الثاني، سعد ابن عبادة، إلى مكة، فأجاره الحارث بن أمية، وجبير بن مطعم، لأنه كان يجير لهما من يخرجون في تجارتهما إلى الشام حين مرورهم بيثرب.

وبعد ذلك، أخذ الصحابة يهاجرون خفية في زمر قليلة، متسللين إلى يثرب.

النبي بمكة وليس معه إلا اثنان من أصحابه

هاجر المسلمون جميعاً إلى المدينة، وبقي النبي بمكة وحده، وليس معه من أصحابه إلا اثنان: علي وأبو بكر. وإن هذا الحادث لدليل آخر على إيمان النبي العميق لله، فقد كان عداء قريش الشديد يزداد على الأيام، وزاد في حنقهم

Digitized by Birzeit University Library

وغيظهم أن المسلمين قد أصبحت لهم الكلمة العليا فى يثرب . بقى محمد منفرداً بين أعدائه الكثيرين الذين أقسموا على قتله ، ثابت الجنان ، لا يخشى على حياته بقدر ما كان يخشى على أصحابه الذين أنفذهم إلى يثرب . إن ثقته التى لاحد لها فى الله هى التى جعلته يبقى بين أعداء متعطشين إلى دمه ، ولو شاء أن يهاجر إلى يثرب قبل غيره من الناس ، لما كان لأحد أن يعترض عليه ، فقد كانوا جميعهم يوقنون أن سلامة دينهم ، الذى كانوا على استعداد لفدائه بأرواحهم ، هى فى سلامة نبيهم ، ولكن حبه الشديد لهم جعله يهتم بأمرهم قبل أمره ، ويطمئن على رحيلهم قبل رحيله ، معرضا نفسه للخطر ، دارئا الخطر عنهم ، لقد كان يثق ثقة لاحد لها فى أن الله يرعاه وأنه لن يتخلى عنه أبداً .

الفصل الثالث عشر

الهجـــرة

« إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه
الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار ،
إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا »

مجلس قريش

مضى على الإسلام أربعة عشر عاما والنبى فى مكة بين أعدائه ، ومعه على وأبو بكر . وأما باقى الصحابة فقد خلوا ديارهم وعشيرتهم ، وهاجروا إلى المدينة أو الحبشة ، حيث الأمن والدعة . وكان الموقف حرجا وطلب أبو بكر من الرسول الخروج إلى المدينة ، فأجابه النبى أن الله لم يأمر بذلك بعد . وظهرت حكمة ذلك عند ما قررت قريش قرارها الأخير ، فقد ذهبت جميع الجهود التى بذلوها لينالوا من محمد وصحبه ، فازداد حنقهم ، وطفح الكيل ، ولم يبق فى قوس الصبر منزع ، ووجدوا أخيرا أن محمدا يكاد يكون وحيدا فى مكة ، لا نصير ولا معين ، فعقدوا اجتماعا عاما فى دار النـــدوة ، حيث اعتادوا التداول والفصل فى شئون أمتهم ، اجتمع رؤساء قريش للتشاور فيما يصنعونه بمحمد ، فاقترح بعضهم أن يحبس فى الحديد ، وأن يغلقوا عليه بابا ثم يتربصون به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله ، ولكن هذا الرأى لم يلق سمعا ، فقال آخر : نخرجه من بين أظهرنا ونتفيه من بلادنا ، ثم لا نبالى بعد ذلك من أمره شيئا ، ولكنهم خافوا أن يلحق بالمدينة ، فيحرض أهلها عليهم ، بما له من قوة الإقناع ، فيقصدونهم ويبطشون بهم . واقترح

Digitized by Birzeit University Library

أبو جهل أخيرا أن يأخذوا من كل قبيلة فتى شابا جليدا ، وأن يعطوا كل فتى سيفا بتارا ، فيضربوه جميعا ضربة رجل واحد ، فيتفرق دمه بين القبائل ، ولا تقدر بنو عبد مناف على قتالهم جميعا ، فيرضون فيه بالدية ، وتستريح قريش من هذا الذى بدد شملها ، وفرق قبائلها شيعا . تقر رأيهم على هذا الاقتراح بالإجماع .

النبى يغادر منزله ويذهب إلى الغار

بينا كانت قريش تأتمر بمحمد ، وبينا كانت منهمكة فى وضع خطتها الإجرامية ، نزل عليه الوحى ، وأخبره بما يبيت له ، وأمره ألا ينام فى فراشه تلك الليلة ، فأرسل إلى على وأسر إليه أن ينام فى فراشه ، وأمره أن يتخلف بعده بمكة ، حتى يؤدى عنه الودائع التى كانت عنده للناس ، وعلى خير من يؤدى هذه الودائع إلى أهلها ، ثم يلحق به . . يا للمثل الرائع للأمانة ! العداوات تحيط به من كل جانب ، وحياته معرضة للخطر فى كل لحظة ، وبالرغم من ذلك ، يأتمنه الناس على أموالهم ، ولهـــذا وحده ترك عليا خلفه ، وأخبر أبا بكر أن يستعد للرحيل ، فقد جاء أمر الله . وكان أبو بكر جد مشغوف بمصاحبته ، فما أخبره النبي بالرحيل حتى غامت عيناه بدموع الفرح ، ولكن فيم الفرح والمتاعب والأخطار تحف بهما من كل جانب ! إنه الفرح بصحبة من يفتديه بروحه . وكان أبو بكر قد أعد راحلتين من مدة ، ينتظر الإذن بالرحيل ، فانتظر موافاة محمد لينطلقا .

اجتمع فتية قريش وحاصروا دار النبي للبطش به عند خروجه ، فليس من عادة العرب أن يقتلوا شخصاً فى عقر داره ، وكان الفتيان ينظرون من فرجة إلى مكان نوم النبي ، فيرون رجلا — وقد كان على فى فراش النبي — ، فيحسبون أن محمداً فى فراشه ، وأن فريستهم لن تفلت

من أيديهم . وجن الليل ، وخرج محمد فى رعاية الله الذى رعاه ثلاثة عشر عاماً ، خرج هادئا بين أعدائه الذين جاءوا لاغتياله ، وقصد دار أبى بكر ، وخرجا من خوخة فى ظهر الدار ، وانطلقا إلى غار ثور ، على بعد ثلاثة أميال من مكة . ودخل أبو بكر الغار أولا فنظفه ، وسد الثقوب التى أمكنه أن يراها فى الليل ، ثم دخل النبى . وه ثور » و « حراء » غاران مهمان فى تاريخ الإسلام ، ففى غار حراء نزل الوحى على النبى ، وفى غار ثور بدأ الإسلام صفحة جديدة ، فالهجرة يوم مشهود فى الإسلام . وقد اتخذت مبدأ لتأريخ جديد ، هو التأريخ الهجرى ، وعلى هذا يمكن القول إن من هذين الغارين خرج الإسلام .

الأعداء على باب الغار

أرسل الفجر ضوءه ، وقام على من فراش النبى ، فعقد الدهش ألسنة الأعداء المتربصين بالنبى . وانطلقوا يبحثون عنه فى كل مكان ، وأعدوا الجوائز لمن يعود بالنبى ورفيقه . ووصل جماعة من قصاصى الأثر حتى باب الغار ، ولما سمع أبو بكر وقع أقدامهم أحس حزنا ثقيلا ، لا خوفا على حياته ، بل ضناً بحياة غالية ، حياة أغلى من حياته ، حياة النبى ، يا للحظة الحرجة ، إن سيوف الأعداء متعطشة إلى الدماء ، إنها لتهتز فوق رأسيهما ، نظرة واحدة داخل الغار فينتهى كل شىء ، إن أشجع شجاع ليرتجف فرقا من هول هذا الموقف . لقد وطن العدو نفسه على قتلهما ، وهو على قيد أنملة منهما ، والموت فاغر فاه ينتظر فريسته ، ولا قوة على سطح الأرض تحميهما ، وتحول عنهما الموت ، ولكن النبى بقى ثابت الجنان ، لا يعرف الخوف إلى قلبه سبيلا . إنه يثق فى الله ، ويعلم أنه يحميه ، وأنه لن يضيعه أبداً .

مغادرة الغار :

بقى النبى وأبو بكر فى الغار ثلاثة أيام كاملة ، وكان يتردد عليهما عبدالله بن أبى بكر ، ويزودهما بالأنباء ، وكانت أسماء

Digitized by Birzeit University Library

بنت أبي بكر تأتي إليهما بالطعام ، وكان عامر بن فهيرة يرعى غنم أبي بكر ، فإذا أمسى الليل اتجه بالغنم صوب الغار فيحتلبان ، وفي اليوم الرابع سكن الناس عنهما وخفت الرجل ، وخلت الطريق ، فغادرا الغار ، واتخذا من عبدالله بن أريقط — ولم يكن قد أسلم — دليلا لهما ، وانطلقوا صوب يثرب ، وفي الطريق وقفوا ليستريحوا ، ففرش أبو بكر رداءه ليجلس عليه النبي في ظل شجرة ، وانطلق يبحث عن طعام ، فألفى بدوياً يحلب شاته ، فتقدم أبو بكر ومسح ثدي الشاة ، وحلبها في قدر نظيفة ، وغطى القدر بقطعة من القماش ، فقد كان يعلم حب النبي للنظافة وتمسكه بها ، ثم أتى بالقدر إلى النبي .

سراقة في أثرهم

وعدت قريش من يقبض على النبي مائة جمل ، فخرج سراقة ابن مالك ، فيمن خرج للبحث عنه ، وكان سراقة رجلا متين البنيان ، أخبره رجل أنه رأى ثلاثة نفر مروا عليه يعتقد أنهم محمداً وصحبه ، فتدجج سراقة بسلاحه ، وامتطى جواده ، وانطلق في أثرهم وكبا به جواده في الطريق ، فضرب القداح مستشيراً الآلهة في استئناف سيره ، فكانت الآلهة تشير عليه بعدم السير ، ولكنه ركب جواده وانطلق في أثر محمد وصحبه ، حتى أصبحوا منه على مد البصر ، فلكز جواده ، ولكنه كبا به كبوة شديدة ، وألقى به بعيداً . وقال سراقة عند ما كان يقص قصته فيما بعد : شعرت عندئذ أنه قد قدر أن تفوز قضية النبي ، فأقلعت عن فكرة اغتياله ، وهتفت : أنا سراقة بن جعشم . أنظروني أكلمكم فوالله لا أريكم ولا يأتيكم مني شيء تكرهونه . والتفت محمد وأبو بكر إليه ، فاقترب منهما ، وطلب إلى محمد أن يكتب له كتاباً يكون آية بينه وبينه ، وكان المداد بين يدي النبي دائما ، ليدون كل ما ينزل به الوحي

فى الحال ، فأمر أبو بكر أن يكتب له الكتاب ، وتنبأ لسراقة بنبأ سار. فقد أخبره أنه سيأتى يوم يلبس فيه سراقة سوار كسرى عاهل فارس ، وقد تحقق هذا النبأ العجيب بعد مضى ستة عشر عاما ؛ فقد تحققت نبوءة دخول امبراطورية خسرو فى حيازته فى خلافة عمر ، وقد استدعى سراقة عقب سقوط المدائن عاصمة إمبراطورية فارس ، وألبس سوارا آل خسرو ، أليس من العجيب أن تتحقق هذه النبوءة ، وأعجب من ذلك أن تصدر من رجل فار هارب ! !

رؤيا مطمئنة

كان الوحى مرجع الثبات الذى أبداه النبى طوال هذه الأخطار الداهمة ، فقد كان كثيراً ما ينزل عليه ليطمئنه ويسرى عنه ويثبت أقدامه . ونزلت آية « إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد » وهو بين مكة والمدينة ، فكانت مؤاساة أخرى ؛ وقد أعلم النبى من زمن أنه سيغادر مكة ، وأن ضوء الاسلام سينبعث من مكان آخر حتى يغمر العالمين ؛ والقرآن الكريم يفيض بالنبوءات عن هذا الموضوع لذلك كان النبى فى أشد الظروف حرجا ، وعند ما يبلغ الضيق منتهاه ، يعتقد اعتقاداً راسخاً أن الاسلام سينتصر فى نهاية الأمر ، ولو كره الكافرون . وقد كانت قصص الأنبياء الذين لاقوا الشدائد والصعاب فى أول أمرهم قبل الايمان برسالتهم ، تنزل على النبى فى هذه الآونة الحرجة ، فتواسيه وتشد أزره فى محنته ، وقد حدث للنبى أن رأى قبل الهجرة بقليل أنه هاجر إلى مكان غنى خصيب ، ولم يكن هذا المكان سوى يثرب التى اشتهرت بوفرة بساتينها .

أهمية الهجرة

كان نجاح الاسلام مرتبطا بالهجرة ، وهذا الأمر يعرفه المسلمون الأولون ، ويقدرونه حق قدره ، فهم ينظرون إلى هذا الحادث الخطير ، نظرتهم إلى ميلاد الإسلام ، فبه أرخوا

Digitized by Birzeit University Library

التاريخ الاسلامى ، ولم يبدأ الإسلام بنزول الوحى للمرة الأولى فى غار حراء ، ولكن بدأ يوم هاجر النبى . فقد بلغ ضعف النبى منتهاه قبل الهجرة ، وقد أشار القرآن إلى هذا الحادث الجليل ، ووعد بمظاهرة الإسلام ، ونصرة نبيه وإن خذله أهل مكة إبان ضعفه ، « إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين » .

كانا فى الغار فى حماية الله وحده ، وكان أبو بكر يرتعد فزعا ، ولكن محمداً ظل يطمئنه ويهدىء من روعه ، ويقول له « لا تحزن إن الله معنا » وقد كان إيمانه الصادق هو الباعث له على ألا تفلت من بين شفتيه كلمة يأس أو شكوى أو تذمر ، لقد فاه نبى آخر بكلمات اليأس والقنوط لما ابتلى بالمحن ، فقال : ليته يلحق بآبائه وأجداده ، ونطق آخر بما يشبه هذا ، فقال واليأس يتملكه (إيلى ، إيلى ليماسا باكتانى) أى ربى . . ربى . . لم خذلتنى ؟ ولكن محمداً عليه الصلاة والسلام لم يعرف القنوط أو اليأس إلى قلبه سبيلا ، بل ظل ثابت الجنان دواما ، شجاعا أبداً مهما تحرجت الظروف ، وساءت الأحوال . إنه فى أشد ساعات الهول ، إذ هما فى الغار ، والسيوف العطشى إلى الدماء تهتز فوق رأسيهما ، التفت إلى صاحبه فى هدوء واطمئنان ، وقال : « لا تحزن إن الله معنا » ! .

ماطر أعلى مكة من تغيرات

قام النبى قرابة ثلاثة عشر عاما ، يعمل تحت سمع أعدائه من قريش وبصرهم وقد تمكن بفضل الله وعونه أن يهدى ثلاثمائة مؤمن ومؤمنة ، إلى الصراط المستقيم ؛ نفث من روحه القوية فيهم ، فأوجد ثلاثمائة روح قوية فتية ، لم تتزعزع ثقتها فيه لحظة ، ووقفت إلى جانبه على الرغم مما ذاقت من صنوف العذاب ، وألوان الاضطهاد ، وقد فضلوا ترك الديار ، وتوديع الأحبة ،

Digitized by Birzeit University Library

وركوب الصعاب على تركه والتخلي عنه .

إن هذا التحول العظيم المعجز الذي تم على يديه في هذا المدى القصير من الوقت — ١٣ عاما — على الرغم من مقاومة الأمة كلها له ، لهو عمل يستحق كل تقدير وتعظيم ، وقد قدر هذا الانقلاب العظيم حق قدره الناقد السير وليم موير فكتب عن الصحابة يقول : « في وقت قصير كهذا ، انقسمت مكة حزبين متعاديين بسبب ماجاء به محمد ، فانمحت الفوارق القديمة الأصل الموروثة ، فواصل العصبية والقبيلة ، وأصبح هناك مؤمن وغير مؤمن ، وكان المؤمنون يتحملون صنوف الأذى والاضطهاد بصبر عجيب ، مفضلين الأذى على الارتداد عن دينهم العزيز ، لقد تركوا الديار والخلان والأموال ويمموا شطر الحبشة حتى تمر العاصفة ، ثم تركوا مع النبي بلدهم الذي يحبونه حتى الجنون ، بلدهم المقدس ، ومعبدهم المقدس ، وإن بلدهم في نظرهم لهو أقدس مكان في الوجود ، تركوا كل هذا وهاجروا إلى المدينة ، وهناك حدث نفس الشيء المدهش العجيب مرة أخرى ، فتمكن محمد في ظرف سنتين أو ثلاث أن يؤاخي بينهم ، وأن يبث فيهم من الروح ما يجعلهم على استعداد لبذل دمائهم للدفاع عن النبي ومن معه عن طيب خاطر ؛ لقد كانت تعاليم اليهود قد رقت في آذان أهل يثرب من زمن بعيد ، ولكن ما سمعوا ماجاء به النبي العربي ، وما أحسوا لمحات من عقليته ونفسيته ، حتى انتشت عقولهم ، فصحت وعادت إلى الحياة من جديد ، ويمكن وصف ما اصبحوا فيه بهذه الآية : « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا ، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما » هذه الآية ومئات أخرى غيرها من الآيات تصور ما كان عليه صحابة النبي من حميد الخصال : إنها القوة

المعنوية الكامنة فى صدر رجل واحد هى التى أحدثت هذا التبدل المعجز فى زمن قصير يدعو إلى الدهش وعدم التصديق .

لقد رفع مئات من الناس الذين يتقلبون فى حمأة الرذيلة ، ويعتقدون فى الخزعبلات ، ويسفون إلى أحط درجات الوثنية ، إلى قمم الفضيلة ، لقد حطم قيود العادات القبيحة التى كانت تكبلهم ، وأطلق أسارهم ، ورفعهم من عالمهم المنحط إلى عالم رفيع ، لقد نفث فيهم حياة جديدة ، وعلمهم الحق والفضيلة ، وإسداء المعروف إلى الناس ، وجعلهم يستمسكون بهذه القواعد الفاضلة ، ولا يفرطون فيها مهما لاقوا فى سبيلها ، لقد نفخ فيهم روح الكرامة الإنسانية ، وتقدير المسئولية ، إن محمداً على التحقيق لأكبر مصلح عرفته الإنسانية .

Digitized by Birzeit University Library

الفصل الرابع عشر

أيام المدينـــــة الأولى

« إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا
بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، والذين
آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض »

النبى فى المدينة

أتم النبى وصحبه الرحلة إلى المدينة فى ثمانية أيام ، وهى تتم عادة فى أحد عشر يوماً ، فوصلوها فى الثانى عشر من ربيع الأول ، الموافق ٢٨ من يونيه سنة ٦٢٢ ميلادية ، بعد أن مضى على الإسلام أربعة عشر عاماً ، وقد انتهى إلى المدينة خبر خروجه من مكة ، ولكن لم يعرف أحد قصة اختفائه فى الغار مدى ثلاثة أيام ، وكانت المدينة تتحرق شوقا لمقدمه ، فكان الناس يخرجون فى صبيحة كل يوم لمدى عدة أميال فى طريق مكة ، فى انتظار النبى الهادى ، وانتهت ساعات الانتظار القاسية ، وظهر الزائر الكريم عند أرباض المدينة . فعلى بعد أميال ثلاثة من المدينة تقع القباء ، وهى من ضواحى يثرب ، ويسكنها عدد من الأنصار ، وأشهر بيت بها بيت عمر بن عوف ، فدعا النبى ، وقبل النبى دعوته قبل دخول المدينة ، ونزل بقباء ، ونزل بها أيضاً بعض المهاجرين ، وأقبل الناس زمراً إليها لاستقبال نبيهم العظيم ، ومكث النبى بينهم أربعة عشر يوماً . ولحق به على هناك ، وبنى النبى مسجداً ، وهو المسجد الذى يشير القرآن إليه بأنه المسجد الذى أسس على التقوى ، وعمل محمد فى بناء المسجد بيديه ، وراح المسلمون ، المهاجرون والأنصار ،

Digitized by Birzeit University Library

يشاركونه فى بنائه حتى أتموه . ثم دخل النبى يثرب ، وقد ازدانت ولبست حلة قشيبة ، فانجفل الناس إليه لتحيته ، وكانوا متحلين بأجمل ثيابهم ، واعتلت النساء الدور ، ورحن ينشدن للضيف الكريم ، وانطلق النبى على ناقته القصواء والناس معه عن يمينه وشماله ، فاعترضه الأنصار لا يمر بدار من دورهم إلا قالوا : هلم يا نبى الله إلى القوة والمنعة والثروة . فيقول لهم خيراً ، ويدعو لهم ويقول : « إنها مأمورة ، فخلوا سبيلها » ، وانطلقت الناقة حتى بلغت مربداً أمام دار أبى أيوب فوقفت .

مسجد النبى

بركت ناقة النبى عليه الصلاة والسلام على مربد لغلامين يتيمين ، فشاءا أن يقدماه هدية إلى النبى ، ولكنه ابتاعه منهما ليبنى مسجداً له ، وعمل محمد وصحبه فى بناء المسجد ، وكانوا جميعاً يشعرون بالغبطة وهم يعملون ، وراحوا ينشدون

اللهم إن العيش عيش الآخره فاغفر للأنصـــار والمهاجره

وأقيم المسجد ، فكان فناء واسعاً بنيت جدرانه الأربعة من الآجر ، وسقف جزء منه بسعف النخل ، وترك الجزء الآخر مكشوفا ، وخصصت إحدى نواحيه لإيواء الفقراء الذين لم يكونوا يملكون سكناً ، وعرف من نزلوا فيها بأهل الصفة ، وكانت بمثابة مدرسة ملحقة بالمسجد فقد كانوا طوال وقتهم يتدارسون دينهم ، وأقيمت حول المسجد مساكن الرسول .

الأذان والصلاة

كان المسلمون بمكة لا يستطيعون الأذان للصلاة جهراً ، ولكن تبدل الحال فى المدينة ، واستتب الأمر للمسلمين فيها ، ففكروا فى وسيلة تجمعهم للصلاة ، واقترح الناقوس ، ولكن حدث أن رأى عمر رؤيا ، رأى رجلا ينادى : الله أكبر ! الله أكبر ! الله أكبر ! الله أكبر ! أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمداً رسول الله ، أشهد أن محمداً رسول الله ، حى على الصلاة ، حى على

Digitized by Birzeit University Library

الصلاة ، حى على الفلاح ، حى على الفـلاح ، الله أكبر ! الله أكبر ! لا إله إلا الله . فقص مارأى على النبى فى صبيحة اليوم الثانى ، وحدث أن رأى صحابى آخر نفس الرؤيا ، فأقر النبى الأذان .

وأقيمت صلاة الجمعة جماعة لأول مرة ، يوم أن غادر النبى قباء ودخل المدينة .

الأخاء الاسلامى

انتهت مسألة الأذان ، فاهتم النبى بأمر المهاجرين ، وكان جلهم يعيش بمكة فى بحبوحة من العيش ، فلما غادروها مخلفين ديارهم وأموالهم ، آخى النبى بينهم وبين الأنصار ، إخاء فريداً فى تاريخ العالم ، إخاء وفاء وإخلاص ، فقد كان الرجل من المهاجرين يرتبط برباط الأخوة بآخر من الأنصار . فكان لكل من الأنصار أخ من المهاجرين ، يشاطره داره وماله وإبله وتجارته ، وقد كان الأنصار أصحاب زراعة ، فعرضوا على المهاجرين مشاطرتهم مزارعهم أيضاً ، ولكن المهاجرين أهل تجارة ، ولاعهد لهم بالزراعة . فلما علم الأنصار ذلك ، أصروا على زراعة الأرض بأنفسهم ، وقسموا المحصول فيما بينهم ، وبالاختصار قد كانت روابط الأخوة الجديدة أوثق مما كانت أخوة حقيقية يربطها الدم ، وكان إذا توفى أحدهم يرثه أخوه فى العقيدة لا شقيقه ، ثم حرم القرآن ذلك ، وأمر أن يبقى الميراث فى الأسرة : « وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض » .

ازدهار تجارة المهاجرين :

كانت هذه عواطف الأنصار نحو إخوانهم المهاجرين ، ولكن المهاجرين لم يستغلوا هذا العطف ، فعند ما عرض سعد بن الربيع على عبد الرحمن بن عوف أن يشاطره ماله ، أبى عبد الرحمن ، وطلب إليه أن يدله على السوق ، وهو ضمين بكسب ما يقيم أوده ، واستطاع بمهارته التجارية أن يصل إلى الثروة فى زمن قصير .

Digitized by Birzeit University Library

واشتغل بعض المهاجرين بالتجارة أيضاً ، ومن لم يكن فى يده مال كان يجهد نفسه فى العمل أشد إجهاد ، حتى لا يكون عبئاً على غيره ، وقد عاونوا جميعاً فى جمع المال لبيت المال ، ليصرف فى الوجوه العامة ، وما انقضى وقت طويل حتى ازدهرت تجارة المهاجرين ، حتى إن عير بعضهم كانت تتألف من ٧٠٠ ناقة . وقد أتى على المسلمين حين من الدهر عسير ؛ روى أنه قدم على النبى ضيف ، ولم يكن فى داره طعام ، فطلب من أبى طلحة أحد الصحابة ، أن يقوم عنه فى أداء هذا الواجب ؛ فلما دخل أبو طلحة داره ومعه ضيف النبى لم يجد فى الدار ، إلا ما يكفى أولاده ، ومع هذا قدم إلى الضيف كل ما فى الدار ، وجلس أبو طلحة وزوجه إلى الطعام ولا يأكلان ، وقضت الأسرة يومها بلا طعام . وانقضت أيام البؤس هذه بفضل جهد المسلمين ، فانقلب الفقر غنى ، والضيق يسرا ، وأصبحت الحياة هانئة سعيدة ؛ وعلى الرغم من هذا التبدل ، لم تتبدل أخلاق المسلمين ، بل كانت دواماً تدعو إلى الإعجاب ، فما داخلهم اليأس أيام الشدة ، وما استخفهم الفرح فى أيام الرخاء ، بل كانوا ينفقون أموالهم فى سبيل الله ، وللفقراء وأبناء السبيل ، والنازلين بالمسجد من أهل الصفة ، ممن يقضون نهارهم فى تحصيل دينهم ، وليلهم فى الصلاة والتسبيح ؛ ومن هؤلاء خرج جماعة الفقهاء الذين رفعوا منار الإسلام ، فشع نوره ، وانتشر حتى غمر العالمين ، وإن أبا هريرة الذى نقل عنه كثير من أحاديث رسول الله أحدهم ؛ ولم يكن أهل الصفة من الأغنياء ، ولا ممن يتكسبون معاشهم ، فكان أغنياء المسلمين يدعونهم لتناول الطعام معهم ، وكان سعد وحده يستضيف منهم أحياناً ما يربو على الثمانين .

المهادنة بين القبائل : مما عنى به النبى بعد أن اطمأن بهذه المؤاخاة إلى وحدة المسلمين ، هو تحقيق وحدة يثرب ، وإقامة

Digitized by Birzeit University Library

روابط الألفة والصداقة بين مختلف القبائل ؛ فقد كان اليهود بها قوة لا يستهان بها ، وقد اعتادوا أن يتحالفوا مع قبائل الأوس والخزرج ؛ وأن يشتركوا فى الحروب التى نشبت بين القبيلتين ، وكان اليهود منقسمين إلى قبائل ثلاث : بنى قينقاع ، وبنى النضير ، وبنى قريظة ، فكان بنو قريظة حلفاء الأوس ، وكان بنو النضير حلفاء الخزرج ، ولكن بعد أن شمل الأوس والخزرج الإسلام أصبحوا إخوانا ، فرأى محمد أن يوحد بينهم وبين اليهود ، فكتب بين المهاجرين والانصار كتاباً ودع اليهود وعاهدهم . وهذا الكتاب يقرر أن : « المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم أمة واحدة من دون الناس ، وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين ، وأن المؤمنين لايتركون مفرحا بينهم - المفرح المثقل بالدين والعيال - أن يعطوه بالمعروف فى فداء أو عقل ، وألا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه ، وأن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة - أى عظيمة - ظلم أو إثم أوعدوان أو فساد بين المؤمنين ، وأن أيديهم عليه جميعا ، ولوكان ولد أحدهم ، ولا يقتل مؤمن مؤمنا فى كافر ، ولاينصر كافراً على مؤمن ، وأن ذمة الله واحدة ، يجير عليهم أدناهم ، وأن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس . . . وإن من اتبعنا من اليهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم ، وأن اليهود ينفقون مع المسلمين ما داموا محاربين ، وإن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم ، وللمسلمين دينهم ، ويهود بنى النجار ، وبنى الحارث ، وبنى ساعدة ، وبنى جشم ، وبنى ثعلبة ، وبنى الأوس ومواليهم وبطانتهم كبنى عوف سواء ، وإن على اليهود نفقتهم ، وعلى المسلمين نفقتهم ، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة ، وبينهم النصح والنصيحة والبر

Digitized by Birzeit University Library

دون الإثم ، واليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين ، وأن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة ، وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم ، ولا تجار حرمة إلا بإذن أهلها ، ولا تجار قريش ولا من نصرها ، وأن بينهم النصر على من دهم يثرب ، وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه ، فإنهم يصالحونه ويلبسونه ، وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله ، وإلى محمد رسول الله » .

Digitized by Birzeit University Library

الفصل الخامس عشر

غزوة بدر

« ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة ،
فاتقوا الله لعلكم تشكرون »

استقر المقام بالمسلمين فى المدينة ، وراحوا يؤدون شعائر دينهم ، لا يأذون ولا يؤذون ، وأقيمت المساجد ، وأذن للصلاة ، ولكن هل خمد العداء للإسلام ، وانتهى كل شىء؟ لا والله . لقد كان المسلمون يؤدون شعائرهم فى المدينة وادعين آمنين ، وكانت نار البغضاء للإسلام تعتمل فى صدور أهل مكة .

قريش تمعن فى الكيد

إن قريشا لم يهدأ لها بال عند ما هاجرت فئة قليلة من المسلمين إلى الحبشة ، فلم تتركهم فى هجرتهم وادعين ، بل تعقبتهم حتى بلاط النجاشى ، محاولة إبادتهم ، فهل تترك المسلمين وشأنهم فى المدينة بعد أن طاب المقام للنبى وصحبه ، وأخذ نفوذهم فى الانتشار ؟

الخوف من مهاجمة قريش المدينة

كان لعبد الله بن أبىّ بن سلول نفوذ كبير بالمدينة ، فهو من البارزة . وقد فكر أهل المدينة قبل هجرة النبى ، فى تنصيبه ملكا عليهم ، فلما قدم الرسول إلى يثرب تضاءلت شخصية ابن أبى ، وضاعت منه الفرصة ، فحنق على المسلمين ، واتخذ موقفا عدائيا إزاء الإسلام . لذلك استعدته قريش عليهم ، وحرضته على إخراجهم ، ولكن كان أغلب قبيلته قد دخل فى الاسلام ، فأصبح

Digitized by Birzeit University Library

من العسير عليه مقاومة النبي ، فخاب رجاء قريش فيه ، وراحت تحرض العرب القاطنين بين مكة والمدينة ؛ ولما كانت قريش تقوم بحراسة البيت الحرام ، كانت موضع التجلة والاحترام من العرب أجمعين ، وكانت ذات نفوذ وسلطان ، فرأى المسلمون أنفسهم ويحيط بهم الأعداء من كل جانب ، بل كان فى الداخل أعداء يتربصون بالمسلمين الدوائر ، كعبدالله ابن أبيّ ، لذلك كان المسلمون على حيطة وحذر دائما ، يترقبون الانقضاض عليهم فى أية لحظة من الخارج ، ويتحرزون من الخيانة فى الداخل .

حيطة المسلمين

اعتادت بعض السرايا من قريش الخروج لقطع الطريق ، والضرب فى الصحراء حتى ضواحى المدينة ، وحدث يوما أن سرية من هذه السرايا سلبت بعض الإبل من مراعى المدينة ؛ والحق أنهم منذ الهجرة كانوا يتحينون الفرص للقضاء على الإسلام بحد السيف ، فتجهزوا للإغارة على المدينة ، وكان الحال يتطلب اليقظة والسهر من جانب المسلمين ، ونزل الوحى بإباحة القتال للدفاع عن النفس ، وما ورد فى القرآن جلى صريح ، وهو جدير باسترعاء نظر النقاد ، الذين ادعوا أن الاسلام دين السيف ؛ يقول القرآن الكريم : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا » وفى آية أخرى : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا » . وعلى هذا فقد اشترط الاسلام للقتال شرطين : أن يكون للدفاع عن النفس ، وأن ينتهى بانتهاء الدافع إليه ؛ وعلى ذلك نهى الإسلام المسلمين عن أن يكونوا البادئين بالقتال ، وحتم عليهم أن ينتظروا حتى يبدأ عدوهم بالاعتداء . هذا من جهة البدء فى القتال ، أما فيما يختص بالقتال نفسه ، فإن رأى المسلم من عدوه ميلا إلى المصالحة ، فينبغى للمسلم أن يقبل الصلح من فوره ، وأن يساعده على ذلك .

Digitized by Birzeit University Library

إجراءات احتياطية

اتخذ النبي بعض الإجراءات على سبيل الاحتياط ، فقد كان من الضروري أن يعرف ما تبيت له قريش ، وكانت الحاجة الملحة تشير بخلق علاقات ود وصداقة مع القبائل المحيطة بالمدينة ، لذلك أرسل النبي سرايا صغيرة للاستطلاع ، وكشف حركات العدو ، والاتصال بالقبائل التي بين مكة والمدينة ، لضمان حيادها ، وربما كان هناك فائدة أخرى ترجى من حركة الاستطلاع هذه ، هي إحباط هجوم مفاجيء للعدو ، فإذا ما علمت قريش أن محمدا ساهر لا يغفل ، فإنها تحجم عن التفكير في مباغتة المسلمين ، فإذا ما هممت بالهجوم فكرت كثيرا قبل إقدامها ، لأنها تعلم أن يثرب في طريق تجارتها مع سورية ، وهذه التجارة عماد ثروتها وعزها ، فإن اضطرب حبل الأمن فيها ، ووقعت الواقعة ، هددت تجارتها ، وكان في هذا ما يكفي لتأجيل القتال ، وقد أعطى النبي الأوامر المشددة إلى السرايا باجتناب القتال .

معاهدات مع القبائل الوثنية

وكان من نتيجة المفاوضات التي أشرنا إليها ، أن قبلت عدة قبائل الارتباط مع المسلمين بمعاهدات ، على الرغم من أنهم وثنيون كأهل مكة ، ومما هو جدير بالملاحظة أن هذه المعاهدات كلها ذات صبغة دفاعية محضة ، وقد ذكر في معاهدة كتبت بين محمد وبني حمزة أن حياتهم وممتلكاتهم في أمان ، فإذا اعتدى عليهم معتد ساعدهم المسلمون ، إلا إذا حاربوا مؤمنين ، وأن عليهم مساعدة النبي إذا اعتدى عليه معتد .

مرية نخلة

بعث رسول الله عبد الله بن جحش في جمادى الثانية ، من السنة الثانية من الهجرة ، ومعه جماعة من المهاجرين ، ودفع إليه كتابا ، وأمره ألا ينظر فيه إلا بعد يومين من مسيره ، فيمضي لما أمره

Digitized by Birzeit University Library

ولا يستكره من أصحابه أحدا ، وفتح عبد الله الكتاب بعد يومين. فإذا فيه : «إذا نظرت فى كتابى هذا ، فامض حتى تنزل نخلة، بين مكة والطائف فترصد بها قريشا ، وتعلم لنا من أخبارها» . لم يكن بعث هذه السرية سوى إجراء من إجراءات الاحتياط والاستطلاع ، حتى لا يباغت المسلمون بهجوم العدو ، ولم يكن هناك غرض آخر لهذه السرية ، فليس من المعقول أن يكون غرضها مهاجمة مكة ! لقد كانوا فئة قليلة ، أقل من أن تقوم بمثل هذا الهجوم ، ولم يكن النبى ليضيع بعض أصحابه بهذا الهجوم الضائع . وكل ما هنالك أن النبى كقائد ماهر عرف قيمة الاستطلاع ، وكشف حركات العدو ، واستقراء نياته .

مقتل حضرمى

سارت السرية حتى نزلت نخلة ، ومرت بهم هناك عير لقريش ، فهاجموها على الرغم من أوامر النبى الصريحة المشددة ، وقتلوا عبدالله بن حضرمى ، وأسروا أسيرين ، وعادوا بهما إلى النبى ، فلما بلغ النبأ الرسول قال لعبد الله : ما أمرتكم بقتال فى الشهر الحرام ، وعنفه تعنيفا شديدا ، أما قريش التى كانت تنتظر مواتاة الفرصة من أمد طويل لتطلق العنان لعدائها وكيدها ، فقد وجدت فى الحادث فرصتها فاهتبلتها .

ما كان لحادث القتل عن غير قصد أهمية خاصة عند العرب ، وإنه لحادث عادى ، يقع مثله كل يوم ، وإن الاجراء المتبع فى مثل حادث الحضرمى هو المطالبة بالدية ، ولكن قريشا واتتها الفرصة لإثارة الناس عامة ضد المسلمين ، وقد نجحت فى ذلك ، وراحت تستعد نحو شهرين ، للهجوم على المدينة فى شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة ، وخرجت ووقعت المعركة التى عرفت فيما بعد فى تاريخ الإسلام بغزوة بدر .

Digitized by Birzeit University Library

قريش تغزو المدينة

ومن غريب الصدف أن قافلة تجارية قرشية تحت إمرة أبي سفيان كانت في هذا الوقت نفسه عائدة من سورية. وقبل أن تغادر سورية أرسل أبو سفيان إلى قريش من يعلمها بضرورة العمل على تأمين القافلة، ففهم من ذلك أن المسلمين عازمون على التربص بالقافلة لمهاجمتها. ومن هنا نشأت غزوة بدر. وهذا رأي عار عن الصحة لا أساس له. فإن هذه القافلة بالذات وهي في طريق ذهابها إلى سورية قد مرت على المدينة بسلام ولم يعترضها أحد. ثم إنه في محاولة قريش إثارة عامة الناس ضد الإسلام لم يأت ذكر لهذا الزعم الكاذب القائل بأن القافلة كانت في خطر.

إن مقتل ابن حضرمي هو الحادث الوحيد الذي أمكنهم استغلاله لإثارة الناس في طلب الثأر. يضاف إلى ذلك أن القافلة قد غيرت مسلكها وخالفت الطريق العام، فسارت بمحاذاة الشاطىء، ووصلت إلى مكة سالمة قبل أن يشتبك الجيشان في بدر!! وهكذا يظهر واضحاً أن لا أساس من الصحة لأي زعم آخر ينسب إلى المسلمين.

أدى إلى معركة بدر رغبة قريش الجامحة، في إبادة قوة الإسلام النامية المتزايدة؛ إن هذه الرغبة هي السبب الوحيد للمعركة. ولا يعدو الحقيقة القول بأن المسلمين قد استدرجوا إليها استدراجاً. ومن الثابت أن قواتهم يوم ذاك لم تتعد ٣١٣ شخصاً بما في ذلك الفتيان وكانوا عزلا من السلاح. وهذا دليل على أنهم ما كانوا ليستطيعوا مقابلة أعدائهم وعددهم ألف مقاتل، مجهزين بالعدة والسلاح؛ وقد وصف القرآن حالة المسلمين النفسية عندما استدعوا للدفاع في الآية الآتية: «كما أخرجك ربك من بيتك بالحق، وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون، يجادلونك في الحق بعدما تبين، كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون».

Digitized by Birzeit University Library

خرجت قريش كلها لمحاربتهم ، فكان لابد من أن يدافعوا عن أنفسهم ، وما كان للنبي أن يسكت على عدو لن يستريح إلا إذا أبادهم ، فجمع النبي أصحابه ، وعرض عليهم الموقف ، وكان الأنصار قد بايعوه يوم العقبة على أن يمنعوه مما يمنعون منه أبناءهم ونساءهم ، ولم يبايعوه على اعتداء خارج مدينتهم ، فقال النبي لهم : أشيروا على أيها الناس ، فقال صاحب رأيهم : « لقد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ماجئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض لما أردت فنحن معك ، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ، وما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا ، إنا لصبر في الحرب ، صدق في اللقاء ، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله .

هذه الفئة القليلة من المسلمين ، التي عملت على عجل ، ولما يكتمل سلاحها ، خرجت معتمدة على الله ، إلى طريق مكة العام لوقف هجوم قريش ، فما كان من المرغوب فيه أن تبلغ المعركة ديارهم في المدينة ، فلما وصلوا إلى بدر ، بئر هناك ، وجدوا جيش القرشيين قد عسكر هناك ، فعسكروا انتظاراً لبدء القتال .

النبي يصلي في المعركة

ما كان جيش المسلمين ليبلغ ثلث جيش الأعداء ، الذي كان مكونا من رجال مارسوا الحرب وألفوا فنونه ، وكان في جيش المسلمين أحداث لاخبرة لهم بالطعن والنزال ، فما كان المسلمون أكفاء لقريش عدداً ودربة ومهارة ، وقد أقلق هذا النبي ، واختلى في عريش أعد له ، واستقبل القبلة ، واتجه إلى ربه بكل نفسه ، وجعل ينشده ماوعده ويبتهل إليه أن يتم نصره : « اللهم هذه قريش قد أتت بخيلائها تحاول أن تكذب رسولك ، اللهم فنصرك الذي وعدتني ،

Digitized by Birzeit University Library

اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد ، واستمر فى مناشدة ربه حتى خفق خفقة من نعاس ، رأى خلالها نصر الله ؛ فخرج من العريش والبشر بادعلى وجهه ، وقرأ بصوت مسموع «سيهزم الجمع ويولون الدبر» .

المعركة

لم يتقدم المسلمون للقتال تبعاً لأوامر القرآن التى تنهى عن الاعتداء، وانتظروا ابتداء قريش بالعداء، فخرج ثلاثة من صناديد قريش يطلبون النزال ، وكانت هذه عادة العرب فى القتال ، تبدأ المعركة ببعض منازلات ، ثم تدور رحاها ، فخرج لهم ثلاثة من أبطال المسلمين وشدوا عليهم وتركوهم كأمس الذاهب ، وحدثت بعض منازلات أخرى بعد ذلك، ثم كانت المعركة الكبرى ، فزحفت قريش على المسلمين بكل قواها . وحمد لهم المسلمون وردوهم على أعقابهم ، وجاء عون السماء ، فراح صناديد قريش وساداتها ، الذين ناصبوا الإسلام العداء ، يسقطون صرعى الواحد تلو الآخر ، وقتل غلامان من الأنصار أبا جهل ؛ فلما رأت قريش قتل ساداتها ، دب الذعر بينها ، وولت الأدبار ، تاركة سبعين قتيلا . وتعقبهم المسلمون، وأسروا منهم سبعين أسيراً ، وكان عدد ضحايا المسلمين ١٤ قتيلا فقط .

يد الله مع المسلمين :

ظهرت معونة الله للمسلمين فى غزوة بدر ظهوراً أخاذاً ، وقد تكون هذه الغزوة فريدة فى تاريخ المعارك والحروب ، وقد يحدث كثيراً أن تهزم فئة قليلة فئة كبيرة ، ولكن هذه الفئة القليلة تكون دائماً مجهزة بالسلاح الغزير المتفوق ، مكونة من جنود شجعان مدربين ، لها من المزايا ما يفوق مزايا الفئة الكبيرة ؛ أما فى غزة بدر فالحال على النقيض ، مما يجعلها فريدة فى بابها ، فالفئة الضعيفة من كل الوجوه ، تقاتل الفئة القوية من كل الوجوه ، وتنتصر عليها ! ! .

كان تعداد قوات قريش ثلاثة أضعاف قوات المسلمين ، ونزلت قريش فى مكان أمنع مما نزل فيه المسلمون ، وكانوا جنوداً خبروا الحرب ومارسوها

Digitized by Birzeit University Library

مدربين محنكين ، وكان جهازهم وعتادهم كثيراً ، أكثر مما يحتاجون إليه ، معهم أسلحة كاملة ، ومائة فرس ، وسبعمائة راحلة ، هذه قوتهم . فماذا كانت قوة المسلمين ؟ كان عددهم ثلث عدد عدوهم ، وقوام جيشهم فتية ماتدربوا على الحرب وماألفوه ، وبعض شيوخ المهاجرين والأنصار ، وما كانوا كلهم أكفاء لمنازلة قريش ، وكم كان معهم من الفرسان والأبل ؟ فرسان وسبعون جملا ، هذا كل ما يملكون ، أما الفرق فى العتاد فحدث عنه ولا حرج ، كان الافتقار التام يقابل الغنى والعز ، ولكن الله نفخ فى الضعفاء روح القوة ، قوة تفوق العدد والعدة والعتاد ، قوة فرت من أمامها الكثرة مدحورة مهزومة مذمومة ، إنها معجزة ، وإلى هذه المعجزة يشير القرآن : « قد كان لكم آية فى فئتين التقتا ، فئة تقاتل فى سبيل الله ، وأخرى كافرة ، يرونهم مثليهم رأى العين ، والله يؤيد بنصره من يشاء ، إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار » .

معاملة أسرى الحرب : عامل المسلمون أسرى الحرب معاملة رحيمة غير مألوفة ، فأثرت فى نفوس كثير منهم ، وعرفوا للإسلام نبله ، وقال أحدهم ، وقد أسلم فيما بعد ، معترفا بجميل ماعومل به وهو أسير ، إن من وكل اليهم أمره كانوا يقدمون اليه أفضل ما فى دارهم من الطعام ، ويكتفى أهل البيت بالتمر والماء ، وعلى الرغم من أن العداوة لم تنته ، فقد كان المسلمون يطلقون سراح أسراهم بمجرد تسلم الفدية من الأغنياء ، وكان يطلق سراح الفقراء بلا مقابل ، وكان على من يعرفون الكتابة والقراءة أن يعلموا عشرة من المسلمين قبل إطلاق سراحهم ، واعتبرت هذه فدية كافية لإطلاق السراح ، وكانت الفدية ٤٠٠٠ درهم ، وعلى ذلك كان تعليم عشرة من المسلمين يساوى ٤٠٠٠ درهم ، وهذا دليل على تقدير النبى للعلم والتعليم ، وما أغلظ المسلمون

Digitized by Birzeit University Library

لأسير، على الرغم من أن هذه هي المرة الأولى التي يقع فيها القرشيون تحت أيديهم، بعد أن ساموهم العذاب السنين الطوال ، وإن المعاملة الحسنة لتبدو جلية من الحادث التالي : كان بين الأسرى سهيل بن عمرو ، وقد اشتهر سهيل بالطلاقة والذلاقة التي لطالما استغلها في تحريض الناس على محمد ، فعز على عمر بن الخطاب أن يفتدي وينجو ، فقال : يا رسول الله دعني أنزع ثنيتي سهيل بن عمرو ، ليدلع لسانه ، فلا يقوم عليك خطيباً في موطن أبداً ، فكان جواب النبي: «لا أمثل به، فيمثل الله بي ، وإن كنت نبياً».

صدق وعده

كانت غزوة بدر ضربة قاصمة لقوة قريش ، كما كانت نصراً مؤزراً للمسلمين ، وكان لها أثر عجيب في اليهود ، وقبائل العرب المجاورة ، فكانوا يتساءلون في قرارة نفوسهم : كيف أمكن الفئة القليلة الضعيفة أن تنتصر على الفئة الكبيرة القوية؟ إن يد الله ساعدتهم ولا ريب، وكيف قتل صناديد قريش وأشرافها ؟ إن هذا من تدبير الله ولا شك.

وهناك ماهو أهم من ذلك ، وأجدر بالنظر ، ففي ميدان القتال اختلى النبي في عريشه، وراح يناجي ربه ،ويطلب عونه ، ويبتهل إليه ، ودموعه جارية ، أن يكتب النصر للمسلمين . وقد ابتهلت قريش إلى أربابها المنصوبة في الكعبة قبل خروجها للقتال ، وقد التمس كل من الفريقين عون ربه، وقد أجاب الله دعاء محمد، ونصره وأيده بروح من عنده ، لأنه كان على حق ، ولأن القرشيين كانوا في ضلالهم يعمهون . كانت نتيجة المعركة حكم السماء ، فكتب النصر للمؤمنين . كسر العدو ، وتحقق وعد الله للمسلمين ، ذلك الوعد الذي عاشوا في انتظاره اثني عشر عاماً ، وعد الله أن يتم نوره ولو كره الكافرون . لقد كانوا طوال سنين الاختبار القاسية ، يسامون الاضطهاد والايذاء والتعذيب ، وكانت السماء عونهم الوحيد ، لقد وعدوا بأن هذا الاضطهاد سينهزم في نهاية الأمر ، وهاهو ذا الوعد قد تحقق . وأصبح حقيقة ناصعة الجبين .

Digitized by Birzeit University Library

الفصل السادس عشر

« ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون
إن كنتم مؤمنين » .

هجوم قريش الثاني على المدينة :

لم يهدأ لقريش بال بعد اندحارها في بدر ، ورأت فيه عارا لايحسن السكوت عليه ، بل ينبغي الأخذ بالثأر ، لقد وجهت الفئة القليلة الضعيفة الذليلة إليهم ضربة قاصمة ، وقتلت جل قادة قريش وساداتها ، ولم يبق إلا أبو سفيان لقريش ، فانتخبته سيدا لها ، فأقسم لينتقمن للإهانة المزرية التي لحقتهم ببدر ، فتم الاتفاق على تخصيص المال الوارد مع القافلة العائدة من الشام تحت إمرته ، لتجهيز حملة الانتقام والأخذ بالثأر ، فجند جيشا كان قوامه بعد اثني عشر شهرا من هزيمة بدر ٣٠٠٠ مقاتل ، كان من بينهم مائتا فارس ، و ٧٠٠ من الجنود المدربين ، المجهزين بالدروع الواقية ، وسمح للنساء بالخروج مع الجيش ، لإثارة حمية المقاتلين بأناشيدهن الحماسية ، وفي السنة الثالثة للهجرة تحرك الجيش قاصدا المدينة ، في يوم الخميس التاسع من شوال ، وعسكر أسفل أحد ، وهو تل يبعد عن المدينة ٣ أميال ، وأطلقت قريش خيلها وإبلها ترعى زروع يثرب المحيطة بها .

النبي يعقد مجلسا حربيا :

في اليوم التالي ، العاشر من شوال ، عقد النبي اجتماعا حربيا من أهل الرأي من المسلمين ، وراحوا يتشاورون فيما يفعلون ، فقص النبي عليهم رؤيا رآها . فقد رأى في ذباب سيفه ثلما ، وفسر ذلك بأنه سيجرح ، وأنه حمى صدره بدرع ، وفسر ذلك بأنه

Digitized by Birzeit University Library

من المستحسن أن يبقى فى المدينة ، وأن بقرة له تذبح ، وفسر ذلك بأن أحد أهل بيته يقتل ، فكان من رأى النبي أن يبقى المسلمون فى المدينة للذود عنها ورد المعتدين ، وانحاز إلى رأى النبي أصحابه ذوو السن ، وكان من هذا الرأى أيضا عبدالله بن أبى بن سلول ، كبير المنافقين ، فقد أسلم نفاقا بعد غزوة بدر ، ولكن كان رأى الأغلبية ، وجلها من الفتيان المتحمسين ، الخروج لملاقاة العدو خارج المدينة ، وكانت حجتهم أن العدو قد يؤول عدم خروجهم بضعفهم عن ملاقاته ، فيطمع فيهم ، وإنه لمما يخدش الكرامة — كما قالوا — أن يروا مزارعهم تنهب وهم صامتون ، لا يحركون ساكنا ، ونزل النبي عند رأى الأغلبية ، ولبس لامته ، وخرج بهم من المدينة عند غروب الشمس ، على رأس قوة مؤلفة من ١٠٠٠ مقاتل ، وفارسين اثنين ، ومائة من الدراعين .

وصول جيش المسلمين إلى أحد

أمضى المسلمون ليلتهم خارج المدينة ، وفى صبيحة اليوم التالى ، استأنفوا سيرهم ، ولما لمحوا قوات العدو ، انخذل ابن أبى مع أصحابه ، وبقى النبى ومعه سبعمائة مقاتل من المؤمنين ، لمقابلة جيش عدته أربعة أمثالهم ، وحتى الذين ثبتوا مع النبي لم يكونوا ذوى دربة بفنون القتال ، ولكنهم كانوا ممتلئين حماسة للذود عن دينهم ، وأثار الإيمان فى قلوب الشيوخ حماسة الشباب ، وجعل الأحداث يتظاهرون باكتمال الرجولة ، حتى يسمح النبي لهم بالخروج ، فقد جاء أن صبيا ، رفض قبوله لحداثة سنه ، كان يشد أعصابه ، ويقف على أطراف أصابعه ، ليبدو أطول من حقيقته ، وتقدم فتى آخر ، والتمس قبوله بين المقاتلين ، فرفض ، فقال إنه قوى ويستطيع أن يصرع رجلا ، فتقدم اليه رجل ، فتغلب الفتى عليه ، فقبلوه ، وتقدم شيخ مسن من

Digitized by Birzeit University Library

رسول الله وقال : يا نبي الله ، إني رجل كبير على شفا القبر ، فإن أستشهد وأنا أقاتل كان نعم الختام .

التأم جيش المؤمنين ، وكان يفتقر إلى الدربة ، ويعوزه السلاح ، ولكن نفسه كانت عامرة بالإيمان واليقين ، والإخلاص لدين رب العالمين ، تقدم هذا الجيش الصغير ، لملاقاة جيش عدته ثلاثة آلاف مقاتل ، أقوياء مدربين ، وكان النبي قائداً محنكا ، فاتخذ المكان العالي الذي يشرف على العدو ، جاعلا أحدا خلفه لحماية ظهره ، وكان هناك ممر في الجبل ، فخشي النبي أن ينقض العدو منه عليهم ، فأجلس خمسين من الرماة لحماية هذا الممر ، وقال لهم : « لا تبرحوا ، إن رأيتمونا ظهرنا عليهم لا تبرحوا ، وإن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تعينونا » .

جعلت نساء قريش يمشين خلال الصفوف ، ليحرضن المقاتلين .

أبو عامر

وليثرن حماستهم ، وقد خرج راهب مسيحي يدعى (أبو عامر) مع قريش ليقف في عضد جيش المسلمين ، فقد كان أبو عامر من سكان المدينة ، وكان أهل المدينة يجلونه ويحترمونه لما عرف عنه من التقوى والورع ، ولكن لما وفد النبي على المدينة ، قابله الأنصار مقابلة حماسية ، فحز ذلك في نفس أبي عامر ، وامتلأ غيظاً ، فخرج لتحريض قريش على محمد ، وكان يزعم أنه إذا نادى أهله من الأوس المسلمين ، الذين يحاربون في صف محمد ، استجابوا له ، وانحازوا معه ، ونصروا قريشاً ، فخرج فنادى : يا معشر الأوس ، أنا أبو عامر . فأجابه الأوس المسلمون : لا أنعم الله بك عيناً يا فاسق . فعاد يجر ذيول الخيبة .

انهزام قريش وتعقبها

وكما هي العادة ، فقد وقعت منازلات فردية أولا ، فقتل حمزة طلحة حامل لواء المشركين ، ثم تزاحف ، والتقى الجمعان ، فانقض المسلمون على الكافرين كليوث كواسر ،

Digitized by Birzeit University Library

وأبدى أبو دجانة ضروباً من الشجاعة . وآيات بينات من الاستبسال . ومشت قوات المسلمين إلى قريش ، فاندحرت ، وشاع الاضطراب بين صفوفها ، وفقد فغر الموت فاه لهم ، وسقط حمزة أخيراً صريعاً ، رماه عبدحبشي ، يدعى وحشيا ، استأجرته هند زوجة أبي سفيان لهذا الغرض ، فأرداه . كان المسلمون يقاتلون بحمية فائقة . فسقط سبعة من حاملي لواء قريش مجدلين ، الواحد إثر الآخر ، فعم الاضطراب ، ولاذ القرشيون بالفرار ، وتعقبهم المسلمون . لقد لاح النصر للمسلمين ، ولكن إهمالا تافهاً أودى بنصر عظيم . لقد أهمل الرماة الذين عهد اليهم حماية الممر . ما صدر إليهم من أوامر مشددة ، فانقلبت الآية ، وتحول ميزان القدر ، رأوا انهزام قريش وفرارها ، ورأوا المسلمين يتبعونهم ، فشاءوا أن ينطلقوا في أثر المنهزمين ، ولكن رئيسهم نصحهم بألا يخالفوا أمر رسول الله ، فعصاه أكثرهم ، وانطلقوا ولم يبق معه إلا نفر قليل .

خالد بن الوليد خلف المسلمين

كان خالد بن الوليد على فرسان مكة ، وكان يرقب الموقف باهتمام ، فلما رأى الممر وقد تخلى عنه المدافعون ، التف برجاله المائتين حول الجبل ، وشد برجاله على الباقين من الرماة فأجلاهم ، ثم صاح صيحة أدركت قريش معها أنه دار برجاله وراء جيش المسلمين ، فعاد منهم كل هزيم ، والتأم جمعهم ، وكان تفوق قريش العددي كافياً لإبادة المسلمين عن بكرة أبيهم ، ولكن النبي عند ما اختار موقفه وجعل الجبل خلفه ، كان يحتاط للهزيمة ، فوضع نصب عينيه أن يحتمي المسلمون بالجبل ، ويعتصموا به إذا دارت عليهم الدائرة .

جرأة النبي

بينا كان المسلمون جادين في تعقب العدو المدحور ، كان النبي وطلحة وسعد بن أبي وقاص في المؤخرة ، فما رأى هجوم خالد وإجلاءه الرماة من المسلمين ، حتى قدر خطورة الموقف ،

Digitized by Birzeit University Library

وأيقن بتعرض أنصاره للهلاك ، فكان أمامه طريقان لا ثالث لهما : إما النجاة بشخصه والفرار إلى مكان أمين ، تاركا أصحابه لمصيرهم المحتوم ، وإما أن ينطلق إليهم ليخلصهم من الخطر الداهم ، معرضاً نفسه للهلاك ؛ فاختار طريق المخاطر . رأى أصحابه وقد أطبق أعداؤهم عليهم ، فصاح بهم ، التفوا حولى ! إنى رسول الله ، فما صك صوته آذانهم ، حتى اتجهوا إليه ، شاقين طريقهم فى صفوف الأعداء ، ولكن صوته نبه إليه أعداءه ولما كان الغرض الأول من هذه الحروب هو القضاء عليه ، والتخلص منه ، أصبح الهدف الأول لضربات المشركين ، فراح أصحابه الذين كانوا على استعداد للموت دونه يدافعون عنه دفاع المستميتين ، وراحوا يسقطون من حوله الواحد أثر الآخر ، وقتل مصعب بن عمير ، فحسبه الكافرون النبى ، فانتشر خبر قتل النبى انتشار الريح ، فزاد ذلك فى ارتباك المسلمين ، وتوقف بعض المسلمين عن القتال ، فرآهم أنس بن النضر فقال : ما يجلسكم ؟ قالوا : قتل رسول الله . قال : فما تصنعون بالحياة بعده ! قوموا فموتوا على ما مات عليه .

التأم جمع المسلمين ثانية

أخذ المسلمون يشجع بعضهم بعضا ، فقويت عزيمتهم ، واستردوا شجاعتهم ، فقاموا يذودون عن نبيهم الحبيب ، الذى أثخن جراحا ، وسقط فى حفرة ، وراح أصحابه المخلصون يذبون عنه ، ويجعلون من أجسامهم تروساً تقى النبى ، وهاجمهم العدو بشدة وعنف ، ولكن السياج الآدمى كان أمنع من أن يفل ، فإذا ما فتحت ثغرة فيه بسقوط أحدهم مجدلا ، هب آخر ليحل مكانه ، وبعد أن أفاق المسلمون من هول الصدمة ، التأم جمعهم من جديد ، وراحوا يقاتلون أعداءهم بعناد وإصرار ، فتالا رهيبا لا هوادة فيه ، فكانوا يقابلون الهجوم بهجوم أعنف منه وأمر ، هاجمتهم قريش المرة تلو

Digitized by Birzeit University Library

الأخرى ، ولكنها كانت ترد على أعقابها فى كل مرة ، فقدت كل أمل فى إبادة المسلمين ، وأخذت سهام أبى طلحة تتطاير منذرة بالموت ، وانكسر فى يده سهام ثلاثة ، وأبلى سعد بلاء عظيما ، فأفرغ كل ما فى جعبة النبى ، وراحت سهامه تتلاحق فى أبدان الأعداء .

رأت قريش منعة مركز الرماة ، والشجاعة الفائقة التى لا تهن ، فقررت الانسحاب ، وقد بلغ منها الجهد كل مبلغ .

التمثيل بالقتلى

خاب فأل قريش فى محاولتها القضاء على المسلمين ، فراحت تشبع عواطفها الدنيئة ، بالتمثيل بضحايا المسلمين ، فارتكبت أسوأ الشناعات ، وأتت بأبشع الدناءات ، فمثلت بالقتلى ، وجدعت أنوفهم ، وبقرت هند بطن حمزة ، وأخرجت كبده ، وجعلت تلوكها بأسنانها ، وأخرجت أمعاءه ، وتحلت بها فى جيدها .

وصاح أبو سفيان : « أفى القوم محمد ؟ » فقال النبى : « لا تجيبوه » . فصاح : « أفى القوم ابن أبى قحافة ؟ » فقال النبى : « لا تجيبوه » فصاح : « أفى القوم عمر ؟ » فلم يبلغ أذنه إلا صدى صوته ، فصاح : « إن هؤلاء قتلوا ، ولو كانوا أحياء لأجابوا . فلم يملك عمر نفسه ، فقال : « كذبت يا عدو الله ! ألقى الله عليك ما يخزيك » . فصاح أبو سفيان : « اعل هبل » فقال النبى : « أجيبوه » . فقالوا : « ما نقول ؟ » : قال : « قولوا : « الله أعلى وأجل » قال أبو سفيان . « لنا العزى ولا عزى لكم » ، فقال النبى « أجيبوه » فقالوا : « وما نقول ؟ » قال : « قولوا ، الله مولانا ولا مولى لكم . فقال أبو سفيان . : « يوم بيوم بدر ، والحرب سجال » .

وانصرفت قريش ، وقام النبى للصلاة ، وطلب أصحابه أن يدعو الله ويبتهل إليه ، لإبادة قريش ، ولكنه كان رحيما حتى على أعدائه ، فإنه

Digitized by Birzeit University Library

ابتهل إلى الله وقال بخشوع : اللهم اغفر لقومى . فإنهم لا يعلمون .

كيف تلقت المدينة نبأ انهزام المسلمين

لما وقع الاضطراب بين صفوف المسلمين ، عاد بعضهم إلى المدينة ، بحجة أن جيشهم قد اندحر ، فما علمت نساؤهم أنهم تخلوا عن رسول الله ، حتى ألقين التراب على رءوسهم . وأسرع بعضهن إلى ميدان القتال ، يستفسرن عما لحق بالنبي ، فقد كان اهتمامهن بشخصه أشد من اهتمامهن بأزواجهن . وقد ذكر أنه نعى لامرأة زوجها فقالت « إنا لله وإنا إليه راجعون » . ونعى إليها أبوها وأخوها فرددت نفس الآية ، ثم سألت : فما فعل رسول الله ؟ ، قالوا : خيرا ، هو بحمد الله كما تحبين . قالت : « أرونيه حتى أنظر إليه » فبان البشر فى وجهها لما رأته ، ونسيت مصابها الفادح الأليم . وقد تحملت نساء أخر مصابهن بنفس الجلد والاصطبار . وكان مع المقاتلين بعض نساء المسلمين ، وكانت عائشة بينهم ، يحملن لهم الماء ، ويسعفن جرحاهم .

المسلمون يتعقبون قريش

أصبحت المدينة مكشوفة لهجمات العدو ، عقب احتماء المسلمين بالجبل . ولكن لم يكن لدى أبى سفيان وجحافله الشجاعة الكافية للهجوم عليها ، وإنهاء المعركة نهاية حاسمة . إنهم يخشون أن يتمكن المسلمون منهم ، فتكون الطامة الكبرى ، والهزيمة التى لا هزيمة بعدها ، فقفلوا عائدين إلى مكة ، يحدون فى السير ، قاطعين أميالا عديدة فى اليوم الواحد . وكانوا يتساءلون فى الطريق « هل انتصرنا حقا ؟ » . إنهم لم يغنموا شيئا . وليس معهم الدليل الذى يقدمونه لأهليهم على انتصارهم ، إنه انتصار غريب حقا ، ذلك الانتصار الذى لم يتمكنوا فيه من أخذ أسير واحد ! لقد تركوا جيش المسلمين منتصبا فى الميدان ، فهل هذا نصر ؟ ولم يكن فى استطاعتهم أن يميلوا على المدينة ، على الرغم من

Digitized by Birzeit University Library

خلوها من المدافعين . فهل يعد هذا ظفرا ؟ كانت هذه الأسئلة تتردد بينهم وهم فى الطريق ، فاقترح بعضهم أن يعودوا أدراجهم ليفصلوا بينهم وبين محمد ، ولكن خانتهم شجاعتهم ، فقد ترامت إليهم الأخبار بأن النبى يجد فى أثرهم ، وقد ورد فى القرآن « إذ تصعدون ولا تلوون على أحد ، والرسول يدعوكم فى أخراكم ، فأثابكم غماً بغم ، لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم والله خبير بما تعملون » .

لما كان الغد من يوم أحد ، خرج النبى يطلب قريشاً ، وانطلق حتى بلغ حمراء الأسد ، على بعد ثمانية أميال من المدينة ، وبلغ أبو سفيان أن المسلمين يتعقبونه ، فرأى أن السلامة أولى ، وأمعن فى الفرار .

أحداليست هزيمة المسلمين

إن استنتاج هزيمة المسلمين فى أحد يفتقر إلى حقائق تاريخية ، ولكن مما لاشك فيه أنه قد أصابهم بلاء عظيم ، ومما لاشك فيه أيضاً أن قريشاً قد خاب أملها . فهل ورد فى التاريخ ذكر انتصار فريق وعدوه لا يزال قائماً فى الميدان لم يفر ولم يسلم ، وعودة الجيش المظفر إلى قواعده وليس معه أسير واحد ؟ وأن الجيش المهزوم لا يلبث أن يقتفى أثر الجيش الغالب فى صبيحة اليوم الثانى للمعركة ؟ وأن المنتصرين يلوذون بالفرار عند ما يبلغهم أن عدوهم المهزوم يطلبهم ؟ لاشك أن المسلمين تجرعوا كأس البلاء حتى الثمالة ، فقد جرح نبيهم جرحاً بليغاً ، وطارت الاشاعة بأنه قتل ، ومعنى هذا انطفاء جذوة الإسلام ، لقد كان من الضرورى أن يمتحن النبى هذا الامتحان القاسى ، ليكون قدوة للأجيال القادمة فى الشجاعة والأمل ، ولكى يعلمهم الثقة بالله فى لحظات الشدة وضياع الأمل ، فللعدو أن يزهو بما نال وليعتبر انتصاره انحداراً للإسلام ، ولكن فلتطمئن أفئدة المؤمنين ، فالإسلام باق لن يموت ، ومهما اشتدت الكروب ، فسيلوح النصر المبين .

Digitized by Birzeit University Library

الفصل السابع عشر

قبائل العرب والاسلام

« ليس لك من الأمر شيء ، أو يتوب
عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون » .

آثار أحدى قبائل العرب

تركت موقعة أحد أثراً سيئاً فى قبائل العرب ، فراحوا يعارضون الإسلام ويناوئونه جهراً ؛ ألم ترد قريش أن تمحق هذا الدين محقاً ولولا ذلك ما كلفت نفسها مؤونة هذه الحملة الضخمة . فلما وثقت القبائل من عداء قريش وتفوقها ، بدأ كيدها وقد كان مستوراً حتى الآن ، لقد حسبوا أن نور الإسلام قد خبا ، فلا ينبغى لهم الوقوف بعيداً دون أن يكون لهم شرف الاشتراك فى اقتلاع جذوره واستئصاله ، فراحت القبائل المختلفة تعد العدة للبطش بالمسلمين .

ضمان مصالح المسلمين

كانت الثقافة الروحية هى رسالة النبى الأولى ، وما كان يمكن تحقيق هذه الرسالة النبيلة ، إلا عن طريق الفئة القليلة النبيلة المؤمنة ، التى هيأها النبى لهذا الغرض . لقد أضحت حياة هؤلاء النفر الذين كرسوا حياتهم لتطهير روح الإنسانية فى خطر ، فكان على النبى أن يتخذ جميع الإجراءات الممكنة لحماية هذه الفئة ، حماية للمثل الأعلى الذى وضعه نصب عينيه ، وفضلاً عن ذلك ، فإن النبى كان رئيس هذه الفئة ، وهو بهذا الوصف مسئول عن إسعادهم وحمايتهم ، فما ينبغى على الزعيم أن يقبل الزعامة لما تجلبه له من مزايا ، بل عليه أن يتحمل المسئوليات المضنية

Digitized by Birzeit University Library

والأعباء الجسيمة التي تجرها عليه تلك الزعامة، وإن النبي خير قدوة لمن شاء أن يتولى أمور الناس ، أضف إلى ذلك أن واجبه الإنساني يحتم عليه أن يفكر في دفع الاعتداء عن أنصاره ، واتخاذ التدابير اللازمة لضمان رفاهيتهم وسعادتهم .

لقد وجد النبي أن أنصاره محفوفون بالأعداء من كل جانب ، وكانت حياتهم في خطر دائم ، فنجاهم من الأخطار جميعها ببعد نظره ، وتضحيته بنفسه ، وعقد على رءوسهم أكاليل النصر والظفر ، ولو لم يكن للنبي حسنة غير هذه ، لكان ذلك كافياً لتبويئه مركزاً سامياً فريداً ، لانظير له في تاريخ الإنسانية جمعاء ، وإن النجاح الذي صادفه النبي العظيم في بناء أمته ، على الرغم من الصعوبات الهائلة التي وقفت في سبيله ، لانظير له في بناء الشعوب .

قلق المسلمين

اشتركت اليهودية في المدينة عقب غزوة أحد في المؤامرات القرشية ، التي كانت تدبر للمسلمين ، على الرغم من عهدهم ، واتضحت عداوة المنافقين ، فقر رأيهم على النيل من المسلمين في كل فرصة ، واعتزمت القبائل العربية أن تطعن الإسلام الطعنة القاتلة ، حاسبة أنه على شفا الانهيار ؛ وشعر المسلمون بالخطر في المدينة وخارجها ، ومرت إشاعة بالتأهب للهجوم على المدينة ، فكان على المسلمين أن يتسلحوا أينما ساروا ، وقد ورد في السير أنهم ما كانوا ينزعون سلاحهم حتى في الليل ، وقد أجهدهم في آخر الأمر هذا القلق الدائم ، ونفد صبرهم ، ففاتحوا النبي في الأمر ، فطمأنهم وسرى عنهم ، وأكد لهم أن نصر الله قريب ، وقد شاركهم النبي في محنتهم ، واتخذ الاحتياطات لإحباط كل هجوم .

وفي الصباح الباكر من يوم كان ليله دامساً ، سمعت جلبة ، فحسب المسلمون أن العدو قد أغار عليهم ، فنفروا للدفاع عن المدينة ، ولكنهم

Digitized by Birzeit University Library

رأوا النبي يعود على ظهر جواد عرى ، فقد قام بالاستطلاع فى ضواحى المدينة ، وأخبرهم ألا خطر هناك ، فلم يكن النبي رئيساً حازماً عاقلا فحسب ، بل كان جندياً شجاعاً لا يهاب المخاطر .

كانت المدينة فى قلق مستمر ، فكان على المسلمين أن يبقوا ساهرين دواماً ، وقد اتخذت الاحتياطات لقتل الفتن فى مهدها. فإذا ما بلغهم أن مؤامرة تبيت لهم فى الخفاء ، كانوا يرسلون سرية لمداهمة القوم، وكتم أنفاس المؤامرة قبل أن يتفاقم أمرها ، ويعظم شأنها ، وهكذا تلافى المسلمون ما قد يصبح حربا عوانا عليهم ، بقليل من الاحتياطات ، التى اتخذت فى الوقت المناسب .

إن النقاد المعادين يتهمون الاسلام بأنه هدى الناس بحد السيف ، وهو ادعاء يجانب الحقيقة وينافيها ، فلم يحدث قط أن هدى السيف إنسانا ، ولم يرد قط ذكر هداية واحدة كانت نتيجة حملة أوفدت .

كان النبي يعتمد فى نشر دينه على المتفقهين فى الدين ؟ وهم من حفظوا القرآن ، فكانوا ينشرون تعاليم الاسلام بين القبائل المختلفة ، وكان بعض الخونة المارقين يستدعون الحفاظ بقصد التفقه فى الدين ، فإذا خلوا بهم اغتالوهم غدراً . وحدث حادث وحشى كهذا ، فى بئر معونة ، فى صفر من السنة الرابعة للهجرة . فقدم أبو براء سيد قبائل بنى عامر وبنى سليم إلى النبي ومعه هدايا ، وطلب منه أن يبعث بعض رجال من أصحابه إلى أهل نجد ليدعوهم إلى الاسلام ، فخاف محمد على أصحابه أهل نجد ، وخشى أن يغدروا بهم، فرفض الهدايا، ورفض أن يبعث رجاله، ولكن أبا براء آجارهم، وضمن سلامتهم ، فبعث النبي معه سبعين رجلا من خيار المسلمين ، فلما وصلوا إلى بئر معونة ، وجدوا أنفسهم محوطين بجيش كبير ، وضربت أعناق الرجال الأبرار ، الذين كانوا يحملون رسالة السماء ، ولم يفر منهم إلا

Digitized by Birzeit University Library

رجل واحد هو عمرو بن أمية ، الذى حمل الخبر الفاجع إلى النبى ، فوجد لهم أشد الوجد ، وحزن عليهم أعمق الحزن .

مكيدة الرجيع

ووقعت مأساة كهذه فى الرجيع ، فقد وفد رهط من قبيلة إلى محمد قالوا له : إن فينا إسلاما ، فابعث معنا نفراً من أصحابك يعلموننا شرائعه ، ويقرئوننا القرآن . فبعث عشرة من كبار أصحابه . فكانت نهايتهم كنهاية سابقيهم ، ولكنهم دافعوا عن أنفسهم ، حتى قتل منهم ثمانية . وقال الرهط للاثنين ، إنا لانريد قتلكما ، فسلما ، وبدلا من إطلاق سراحهما بيعا كعبدين إلى قريش ، وقد اشترى خبيب بنو الحارث ، وخرجوا به ليقتلوه ، فقال لهم : إن رأيتم أن تدعونى حتى أركع ركعتين فافعلوا ، فأجازوه ما أراد ، فركع الركعتين ، أتمهما وأحسنهما ثم أقبل على القوم وقال : أما والله لولا أن تظنوا أنى إنما طولت جزعا من القتل ، لاستكثرت من الصلاة ، ورفعوه إلى خشبه . فلما أوثقوه إليها ، صاح : اللهم أحصهم عدداً ، واقتلهم بددا ، ولاتغادر منهم أحدا . ثم قتلوه .

أما زيد فقد اشتراه أبو سفيان ليقتله ، فجاءت سادات قريش لمشاهدة مقتله ، وارتفع السيف فى الهواء ، وقبل أن يهوى ليطيح رأسه ، سأله أبو سفيان : أنشدك الله يازيد ، أتحب أن محمداً الآن عندنا فى مكانك تضرب عنقه ، وأنت فى أهلك ؟ قال زيد : « والله ما أحب أن محمداً الآن فى مكانه الذى هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه ، وأنا جالس فى أهلى ، فيا للحب الكامن فى قلوب أصحابه .

ليس لك من الأمر شىء

حزن النبى حزنا شديداً على هؤلاء الرجال الذين راحوا ضحية تلك المذابح الوحشية الغادرة ، إنه ليستطيع

Digitized by Birzeit University Library

أن يصبر على الأذى الذى يلحق به ، ولكنه يشفق من رؤية من آمن بالحق يضطهد ويعذب ، إن هؤلاء الذين قتلوا ، هم أصحابه الذين شدوا أزره ووقفوا بجانبه ، ولم يخذلوه أبداً ، وضحوا بكل شيء فى سبيل الله ، فرضى الله عنهم . فكان لمصرعهم وقع أليم فى نفسه ، فراح يدعو الله بعد أداء فريضة الفجر لينتقم لهم من قتلتهم ، وقد كانوا يستحقون الانتقام منهم جزاء ماجنت أيديهم ، ولكن الله الذى أرسله رحمة للعالمين «وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين» لم يرض له أن يكون قاسياً حتى على مثل هؤلاء السفاكين ، إنه رحمة للعالمين ، فما له أن يفرق بين العدو والصديق ، فنزلت الآية : « ليس لك من الأمر شيء ، أو يتوب عليهم ، أو يعذبهم فإنهم ظالمون » وما نزلت الآية حتى سكنت نفسه ، وانقشع تأثره ، وأصبح لا يحقد على من دبروا اغتيال أصحابه ، فهل فى التاريخ ما يماثل هذا ؟ .

اشتباكات صغيرة

كانت بلاد العرب على بكرة أبيها تغلى بنار الحقد والكراهة للإسلام ، فقد عقد اليهود والمنافقون ، وعبدة الأوثان العزم على إبادة المسلمين ، ولولا أن النبى كان يقظا ، عاملا على إحباط كل مؤامره ، قبل استفحال أمرها ، لاستحالت على المسلمين الإقامة فى المدينة يوما واحداً ، كان أمام المسلمين أمر واحد ، هو تشتيت أعدائهم وعدم إعطائهم فرصة الاتحاد ، حتى لا يصبحوا قوة قادرة على القضاء عليهم . كان الموقف يتطلب عملا حازما سريعا ، فما كان من مصلحتهم الوقوف ينظرون إلى العدو وهو يتكتل ، وهم ساكنون ، لا يتحركون ، فيصبح أقوى من أن ينالوه ، فينال بغيته ، ويمحق الإسلام ، فكان على المسلمين معالجة الأمر إذا مابدرت بادرة خطر ، محافظة على أنفسهم ، فوقعت مناوشات عديدة مثل غزوة بدر الصغرى ، فقد دعا أبو سفيان المسلمين للقائه ببدر مرة أخرى بعد عام من

Digitized by Birzeit University Library

انتهاء غزوة بدر الأولى، فلما استدارت السنة خرج المسلمون إلى بدر، وأقاموا بها ثمانية أيام، ولم يقبل جيش قريش، فاتجر المسلمون بالسوق التي تقام هناك كل سنة فربحت تجارتهم، ثم عادوا إلى المدينة مستبشرين بفضل الله. ومنها غزوة دومة الجندل وذات الرقاع في السنة الخامسة للهجرة، وغزوة بني لحيان وغزوة ذي قرد في السنة السادسة للهجرة. وكانت ترسل هذه السرايا بعد أن تترامى الأنباء إلى النبي بأن العدو يستعد لقتاله، فكانت السرايا تفاجئه قبل أن يتم استعداده، فلا يجد خيراً من التشتت والتفرق. وكانت تقع بعض المناوشات في بعض الأحيان.

غزوة بني المصطلق: هي غزوة صغيرة وتعرف بغزوة المريسيع أيضا، ووقعت في السنة الخامسة للهجرة، وبنو المصطلق فرع من خزاعة، وهي قبيلة مرتبطة مع النبي برباط تحالف وثيق، كانوا يسكنون مكاناً يعرف بالمريسيع، على مسيرة تسعة أيام من المدينة وكان سيدهم الحارث بن ضرار يجمع الجيوش في حيه لقتال المسلمين. وكان ذلك في الغالب من تحريض قريش، فما ترامى الخبر إلى النبي وحققه واستوثق منه، حتى أسرع في الخروج ليأخذهم على غرة، ففر الحارث بجيشه، ولكن سكان المريسيع حاربوا المسلمين فانهزموا على أمرهم، ووقع في أيدي المسلمين ستمائة أسير، من بينهم جويرية بنت الحارث، فدفع النبي فديتها وتزوجها، بناء على طلبها ورغبتها، فلما بلغ الناس النبأ أطلقوا ما بأيديهم من أسرى بني المصطلق إكراماً لمصاهرة النبي لهم.

حديث الإفك: حدث عند العودة من المريسيع، في السنة الخامسة للهجرة، أن خرجت عائشة لبعض حاجتها، وكان لعائشة عقد انسل من عنقها، وهي في بعض حاجتها، ولما عادت إلى الرحل، التمست العقد

Digitized by Birzeit University Library

فلم تجده ، فعادت تبحث عنه ، ولما رجعت إلى المعسكر لتستقل هودجها ، وجدت القوم قد رحلوا ، وقد حسبوها فى هودجها ، وكان الليل قد خيم على الكون ، فجلست تنتظر أن يفطن قائد هودجها إلى خلوة منها ، فيعود أدراجه لأخذها ، وكان صفوان بن المعطل ، قد أمر أن يتخلف ليتحقق من أنهم لم يتركوا شيئاً خلفهم ، وكان النهار قد طلع عندما عثر صفوان على عائشة ، فأركبها بعيره ، وانطلق بها حتى لحق بالجيش فى منتصف النهار .

كان المنافقون يدأبون على انتهاز أية فرصة للنيل من الإسلام ، فوجدوا فى هذا الحادث المشئوم مادة للافتراء على سيدة فاضلة نبيلة ، وكان عبد الله بن أبى رأس المنافقين الذين ينشرون الشائعات الكاذبة ، فانتشر حديث الإفك ، فأجرى النبى تحقيقا شديداً ، أثبت إثباتا قاطعا حاسماً بعد هذه الفرية عن الحقيقة بعد السماء عن الأرض ، وقد نزل الوحى مبرئا لها : « إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم ، لا تحسبوه شراً لكم ، بل هو خير لكم ، لكل أمرىء منكم ما اكتسب من الاثم ، والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم . لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً ، وقالوا : هذا إفك مبين . لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء ، فإذ لم يأتوا بالشهداء ، فأولئك عند الله هم الكاذبون ، ولولا فضل الله عليكم ورحمته فى الدنيا والآخرة لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم ، إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ماليس لكم به علم ، وتحسبونه هينا ، وهو عند الله عظيم . ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا ، سبحانك ، هذا بهتان عظيم . يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً ، إن كنتم مؤمنين ، ويبين الله لكم الآيات ، والله عليم حكيم . إن الذين يحبون أن

Digitized by Birzeit University Library

يشيع الفاحشة فى الذين آمنوا ، لهم عذاب أليم ، فى الدنيا والآخرة ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون . ولولا فضل الله عليكم ورحمته ، وأن الله رءوف رحيم». وليس بغريب أن يبرىء القرآن سيدة طاهرة الذيل مما نسب إليها من الإفك الدنىء ، فقد برأ القرآن مريم من قبل ، عندما اتهمها اليهود بمثل ما اتهمت به عائشة ، فنزلت الآية : «وبكفرهم وقولهم على مريم بهتانا عظيما» .

الفصل الثامن عشر

غزوة الأحزاب

« ولما رأى المسلمون الأحزاب قالوا هذا
ما وعدنا الله ورسوله ، وصدق الله
ورسوله وما زادهم إلا إيمانا وتسليما » .

هجوم قريش على المدينة للمرة الثالثة

كانت قريش تستعد لهجوم جديد على المدينة ، لما كان النبي منهمكا فى إخماد ثورات القبائل، قبل أن يتطور أمرها ، فيصبح حربا عوانا عليه ، وتحالف يهود خيبر مع قريش، وقد أفلحوا فى إثارة القبائل العربية القاطنة بضواحى مكة ، فانضمت إلى المناهضين للإسلام ، وبذلك اتفق اليهود وقريش وسائر قبائل العرب على توجيه الضربة القاضية للإسلام ، فجمعوا جيشا عدته عشرة آلاف مقاتل ، وكان ذلك فى السنة الخامسة للهجرة . ونكثت القبائل اليهودية القاطنة فى داخل المدينة بعهدها ، فى اللحظة الأخيرة ، وانضمت إلى أعداء الإسلام ، فأصبح مركز المسلمين حرجا ، وبات أملهم فى النجاة أوهن من بيت العنكبوت .

حفر الخندق :

ترامت الأنباء إلى النبي بخبر هذا الجمع الحاشد الذى لم يسبق له مثيل ، فدعا أصحابه ، واستشارهم فيما ينبغى عمله . لقد كانت المدينة محصنة ، من جهة ، تحصيناً طبيعياً بالصخور ؛ وكانت تحميها أسوار المنازل الحجرية ، من جهة أخرى ؛ وهذه الأسوار ممتدة

فكانت حصناً متيناً بطبيعتها ، فلم يبق إلا جهة واحدة مفتوحة ، تسمح لهجوم العدو ، فاقترح سلمان الفارسى ، حفر خندق عميق فى هذه الجهة ، فشرع فى حفر الخندق فوراً ، وقسم المؤمنون إلى فرق ، تتكون كل فرقة من عشرة ، وعمل النبى معهم ، فكان يضرب الأرض ، ويحمل التراب ، ويقول :

اللهم إن العيش عيش الآخره ، فاغفر للأنصـــار والمهاجره

فيردد المسلمون خلفه

نحن الذين بايعوا محمدا على الجهاد ما بقينا أبدا

رؤيا النبى وهو يعمل فى الخندق : شخصية كبيرة ، سيطرت على شعب عظيم روحيا وسياسيا ، ثم تقوم بما يقوم به الرجل العادى فى ساعات الحرج ، عندما يتعرض الوطن للخطر ، إنه عمل فريد فى التاريخ ، وإنها لناحية ممتازة فى شخصية النبى ، إنه ليبهر البصر بأعماله ، فما قام بعمل إلا أداه بطريقة مشرفة ، وتواضع كريم نبيل ، كان أقرب الزعماء قربا من الرجل العادى ، وكان أرفعهم مكانة ، وأعزهم نفرا .

بينا كانوا يحفرون الخندق ، صادفوا كدية شديدة ، استعصت عليهم ، فجاءوا النبى فقالوا : هذه كدية عرضت فى الخندق ، واستأذنوه فى تغيير مجرى الخندق ، فقال : أنا نازل ، وتناول معوله ، وأخذ يضربها حتى صارت رملا لا يتماسك ، وكان كلما ضربها ضربة ، تطايرت شرارة ، فيصيح النبى : الله أكبر ! وقال إنه رأى فى الشرارة الأولى ، أنه أعطى مفاتيح سورية ، وأنه رأى فى الشرارة الثانية أنه أعطى مفاتيح فارس ، وفى الشرارة الثالثة ، أنه أعطى مقاليد اليمن ، وشرح لهم كيف شاهد قصور القياصرة ، وقصر كسرى ، وصنعاء ، وبشرهم بأنهم سيسيطرون

Digitized by Birzeit University Library

على هذه الممالك جميعها ، فيالها من ظاهرة عجيبة ! يرى النبي من خلال السحب القاتمة ، وجيوش الأعداء تحيط به من كل جانب ، عازمة على إبادتهم ، مستقبلا سعيداً عزيزاً للإسلام ! أليس هذا بعجيب ، فوق ما يتصور البشر ، ومن غير الله علام الغيوب ، يستطيع أن يكشف للنبي عن المستقبل ، وما يدخره لهم من عزة وسلطان ، في مثل هذه اللحظة العسيرة ، التي يهدد الأعداء فيها الإسلام بالانقراض والدمار ؟!

المدينة ترتج

كانت ساعة رهيبة ، تلك الساعة التي انقضت فيها جموع الأحزاب على المدينة ، وارتجت المدينة ، وقد وصف القرآن ما انتاب أهلها من قلق وفزع : « إذ جاءوكم من فوقكم ، ومن أسفل منكم ، وإذ زاغت الأبصار ، وبلغت القلوب الحناجر ، وتظنون بالله الظنونا ، هنالك ابتلي المؤمنون ، وزلزلوا زلزالا شديداً » . وعلى الرغم من مناظر الفزع والهلع ، فإن المسلمين كانوا مطمئنين إلى تحقيق ما وعدهم الله ورسوله ، وقد وصف القرآن شعورهم : « ولما رأى المؤمنون الأحزاب ، قالوا : « هذا ما وعدنا الله ورسوله ، وصدق الله ورسوله ، وما زادهم إلا إيماناً وتسليما » .

وفطن المسلمون إلى أن هذه المحاولة هي محاولة يائسة لعدو متهالك ، على الرغم من البلايا التي حاقت بهم ، ونزلت بساحتهم ، وأحسوا أن هذه هي المحاولة الأخيرة ، وستخمد شوكة الأعداء بعدها إلى الأبد ، وأنها بداية عهد عز الإسلام ، ونصره وانتشاره .

المسلمون يقاسون في الحصار

احتاط المسلمون للأمر ، فقد كانوا يخشون خيانة اليهود ، أو هجوم العدو المفاجيء ، فوضعوا نساءهم وأطفالهم في مكان أمين ، واستمر الحصار شهراً ، ذاق المسلمون خلاله ألوان العذاب والحرمان ، وقد شاركهم النبي في مصيرهم ، فجاعت بطونهم ،

Digitized by Birzeit University Library

وكادوا يهلكون ، وعصبوا بطونهم بالحجارة ، ولكن روحهم المعنوية لم تهن ولم تتزعزع . كان النبي قد وعد غطفان ثلث ثمار المدينة ، ولكن الأنصار رفضوا ، ولو أن غطفان أخذت ثلث الثمار لما انضمت إلى الأعداء ، ولنقصت قوات الأعداء كثيراً . ولكن الأنصار رفضوا على الرغم من البلايا النازلة بهم ، وعلى الرغم من جوعهم الشديد الذى بلغ حد الهلاك ، فقد أبوا أن يقبلوا عملا يعتبرونه ماساً لكرامتهم . فكيف يدفعون خراجاً لغطفان بعد أن شرفهم الله بالإسلام . وما كانوا يدفعون لها شيئاً أيام الجاهلية ، فليكن ما يكون ، وليذودوا عن أنفسهم حتى آخر رجل ، وإنهم لصابرون حتى يقضى الله أمراً كان مفعولا .

الأحزاب تولى الأدبار

كان اليهود والمنافقون ينتظرون هجوم الأعداء من الخارج ، ليثيروا الشغب فى الداخل . وابتدأت منازعات فردية داخلية ، انتصر فيها المسلمون ، وقتل على بن أبى طالب ، عمرو بن عبدود ، الذى كان يزعم أنه كفء لمنازلة ألف رجل والانتصار عليهم ! وهجمت قريش بكل قواها ، ولكنها لم تستطع اجتياز الخندق ، ونزل على المسلمين وابل من السهام والحجارة ، ولولا ثباتهم الرائع ، وإيمانهم العميق ، لتمكنت قريش منهم . وأخيراً جاء الفرج من السماء ، وجوزوا على ثباتهم خير جزاء ، فبعد أن أخفق جيش الأعداء العظيم فى اقتحام الخندق ، وبعد أن قلت المؤونة ، وسئموا الحصار ، أرسل الله عليهم ريحاً صرصراً عاتية ، قلبت قدورهم ، واقتلعت خيامهم ، فوقع الاضطراب فى صفوفهم ، وقد أشار القرآن إلى هذا : « فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها » ونجحت ريح الله فيما عجزت عنه أسلحة المسلمين . فلما رأت الأحزاب أن الطبيعة نفسها قد تألبت عليهم ، تطيروا ، فدب

القنوط فى قلوبهم ، وملئوا رعباً ، فقفلوا راجعين عن المدينة فى نفس الليلة ، فلما لاح الصباح ، كان سرور المسلمين عظيما ، فقد رحل الأعداء جميعاً ، وما بقى منهم أحد ، فهل يتسرب إلى أحد أدنى شك ، فى أن هذا النصر من عند الله ، وأن يد الله العليا هى التى حالت دون أن يتمكن هذا الجيش المتفوق تفوقاً ظاهراً ، من أن ينال من تلك الفئة القليلة ويسحقها ، لقد تآمر المنافقون واليهود على الإسلام ، وانضموا إلى أعدائه ، ولكن الله نصره ، وهكذا انتهت أقوى حملة وجهت إلى الإسلام بالخيبة والفشل .

Digitized by Birzeit University Library

الفصل التاسع عشر

العلاقة مع اليهود

« قد بدت البغضاء من أفواههم ،
وما تخفى صدورهم أكبر »

ضغن يهود المدينة على المسلمين

سبق لنا القول بأن اليهود يكونون جزءا هاما من سكان المدينة الأصليين ، وإنهم أثروا من التجارة والربا ثراء عظيما ، وأن الأوس والخزرج اعتادتا الاقتراض منهم ، وأنهم كانوا يمتازون عن بقية السكان فى العلم ، وفى جميع مناحى الحياة تقريباً . فلما جاء النبى إلى المدينة تحالف اليهود معه ، إلا أن ازدهار الإسلام ، وما وصل إليه من يسر ورخاء ، أشعل نار الغيرة فى قلوبهم ، فاتصلوا سرا بالمنافقين ، وأضروا بالمسلمين كثيراً ، ولم يتورعوا عن النيل نفسه ، فتطاولوا عليه بالسباب والإهانة والسخرية ، فإذا جاء ذكره على لسانهم وأرادوا أن يقولوا « راعينا » مثلا ، فإنهم كانوا يحذفون الكلمة ويقصرون الألف فتصبح « رعينا » ، وبدلا من أن يقولوا للمسلمين « السلام عليكم » كانوا يقولون : السأم عليكم ؛ وأخذوا يتفننون فى اختراع الأكاذيب التى تنال من كرامة الإسلام والمسلمين ، حتى إن بعضهم كان يذهب فى المراماة الى حد اعتناق الاسلام بقصد افتتان الكثيرين من المسلمين عن دينهم .

إنصاف بنى قينقاع

أخذت الغيرة التى كانت فى قلوب اليهود تضطرم وتتزايد من المدينة حتى انقلبت إلى عداء مستحكم استولى على أفئدتهم . فلم يتركوا

Digitized by Birzeit University Library

سبيلا للافتراء على المسلمين حتى سلكوه ، ولم تنج المحصنات المسلمات من بذاءتهم . فكانوا يذيعون الأشعار الماجنة البذيئة للنيل من كرامتهن وعفتهن ، بل ذهبت بهم العداوة والبغضاء إلى حد الاعتداء على المسلمين فى الطرقات العامة ، وقد حدث هذا الاعتداء فى بعض طرقات المدينة ، فأدى إلى شغب قتل فيه يهودى ومسلم ، واستمر القتال بين الطائفتين فترة طويلة ، وقد أنذر بنو قينقاع - ومنهم طارت الشرارة الأولى - المسلمين بقولهم «لا تحسبوا أننا كقريش ، فسنلقنكم درسا لن تنسوه » وهكذا نقضوا حلفهم ، واعتزموا محاربة المسلمين إلى النهاية ، واعتصموا بقلاعهم وحصونهم ، فاستعد المسلمون للحرب بدورهم ، وضربوا الحصار على معاقل يهود ، وبعد حصار دام خمسة عشر يوما عرضوا التسليم ، وقبلوا أية عقوبة يتراءى للنبى أن يفرضها عليهم لنقضهم حلفهم ، فطلب منهم النبى الخروج من المدينة فذهبوا إلى سورية . وكان ذلك بعد غزوة بدر بشهر واحد .

إبعاد بنى النضير :

وبنو النضير قبيلة أخرى من يهود ، كانت قد حالفت المسلمين ولكنها كانت متصلة بقريش من البداية ، حتى أن قريشا كتبت لها قبل غزوة بدر تطلب منها قتل النبى ، وحدث مرة أن دعا بنو النضير النبى إلى وليمة ، وحاولوا الاعتداء على حياته ، ولكنهم أخفقوا ، فلما بدت خيانتهم سافرة ، لم يكن فى استطاعة النبى أن يتركهم وهم العنصر المؤذى الشرير ليقيموا فى قلب المدينة ووسطها ، فعرض عليهم أن يختاروا واحدة من اثنتين ، إما الخروج من المدينة ، وإما الرجوع إلى العقل والاتزان وتجديد الحلف مع المسلمين ، وقد قبل بنو قريظة — وكان ضررهم على الاسلام ضئيلا — تجديد الحلف مع المسلمين عن طيب خاطر . ولكن بنى النضير — الذين كانوا يبيتون الشر — رفضوا ذلك

Digitized by Birzeit University Library

الحلف الجديد ، فأصبحوا أعداء الإسلام السافرين، وساعدهم على التشبث بإظهار العداء . وعد عبد الله بن أبي لهم بالمساعدة ؛ وينبغي ألا يفوتنا أن الإسلام كان يجتاز في هذه الآونة مرحلة جد عصيبة . فقد حدث هذا في فترة غزوة أحد ، أي في الوقت الذي كان فيه جميع أعداء الإسلام متشقين الحسام ، يحاولون تسديد الضربة القاضية إليه . إن الهجوم من الخارج مخيف ، ولكن الانفجار الداخلي الذي قد يحدث في أية لحظة أدعى إلى الرعب القاتل ، ولما كان الاحتراس نوعا من أنواع الدفاع ، إن لم يكن أهمها ، وكان الشغب المفاجيء الذي قد يحدث داخل أسوار المدينة نفسها معناه ضربة في الصميم ، ولما كان بنو النضير يظهرون الود والصداقة لأعداء الإسلام علانية ، وكان رفضهم تجديد الحلف مع المسلمين بمثابة إعلان للحرب ، علاوة على محاولتهم اغتيال النبي الكريم . لم يكن في الإمكان معاملتهم إلا معاملة الأعداء المعاندين . فضرب النبي الحصار على معاقلهم ، ولم يرفعه عنها إلا بعد أن وعدوا بمغادرة المدينة . وارتحل نفر منهم الى خيبر ، وأقاموا هنالك ، وكان ذلك في السنة الرابعة للهجرة .

مقاتلة بني قريظة

لعب بنو النضير دورا هاما في غزوة الأحزاب، فإنهم كانوا إلى جانب إثارتهم قبائل قريش ، يتشعبون في الصحراء ، ويدخلون مساكن العرب ويترددون عليهم بقصد إثارتهم على الإسلام والمسلمين . وقد تأثر بذلك بنو قريظة — وكان موقفهم من الإسلام حتى الآن ، موقف الحليف . وقد رفضوا في بادىء الأمر الاشتراك في قتال المسلمين ، غير أن بني النضير أعطوهم المواثيق بأن الاسلام مقضي عليه لا محالة ، وأنهم لا قبل لهم بمدافعة قوات القبائل العربية كلها ، وهي قوات في تزايد مطرد ، حتى ليخيل إلى المرء أنها —

Digitized by Birzeit University Library

كأنما تخرج من باطن الأرض ، ومن كل فج للقضاء على الإسلام والمسلمين، وقيل لهم: « لقد جاء الوقت وأزفت الآزفة ، وما عليكم إلا تجديد اختياركم، فإما الانضمام إلى جانب المسلمين . وإما وضع يدكم فى يد الأحزاب المناوئة له » . ولم يسع بنى قريظة إلا الخضوع لرأى القبائل الأخرى ، ونقض الحلف مع الإســـلام والانضمام إلى الأحزاب المناوئة لهم ، والوعد بالمؤازرة إذا ما نشب القتال فى غزوة الأحزاب .

وبالرغم من أن أمر الحلف بين الأحزاب كان سراً يراد كتمانه، فإن أثره وضح على الأثر، واشترك بنو قريظة فى الغزوة فعلا ، وفيهم نزلت الآية : « وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب ..... الخ » وقد أثبت التاريخ صحة اشتراكهم فيها ، وأثبت أنهم اعتزموا مهاجمة نساء المسلمين أيضاً . كانت هـذه الفترة فترة خطر وحرج للمسلمين ، فقد كان أربع وعشرون ألفاً من المحنقين المغيظين يتربصون بهم فى خارج الخندق، ويتحرقون شوقاً للقضاء عليهم وعلى دينهم، وكان المنافقون منهمكين فى إلحاق الأذى بهم فى الداخل ، ثم كانت خيانة بنى قريظة ثالثة الأثافى، وقد أضرت المسلمين كثيراً، وزادت فى محنتهم وكربهم ، فكان أمراً طبيعياً ومنطقياً ، بعد أن انتهت غزوة الأحزاب ، أن يلقوا جزاءهم العادل ، ليكونوا عبرة لمن يعتبر، وحتى لا تتكرر أمثال هذه الخيانة فى المستقبل ، فضرب الحصار على حصونهم ومعاقلهم ، وبعد شىء من المقاومة استسلموا وكان ذلك فى السنة الخامسة للهجرة .

عقابهم

وقد قبلوا أن يكون سعد بن معاذ حليفهم السابق حكماً بينهم وبين المسلمين، لتقدير العقوبة التى يستحقونها ، ورأى سعد

Digitized by Birzeit University Library

ـ الحكم الذى اختاروه بأنفسهم ـ أن خيانتهم فى ساعة الخطر والحرج أمر فظيع ، واعترف بأن جريمتهم الجسيمة تستحق عقابا صارما رادعا لهم ولغيرهم ، حتى لا تصبح المعاهدات والمواثيق فى المستقبل شيئا غير محترم، أو كقصاصات الورق التى لا قيمة لها ،وقر قراره على ألا يكون القصاص الذى يقترحه بأقل من القصاص الذى يلحق بالعدو المهزوم ، وعلى الصورة التى جاءت فى كتابهم المقدس : التوراة . وهاك ما جاء فى التوراة فى هذا المعنى :

« وعند ما ينهى بهما الله ربك إليك ، فسوف تقضى على كل رجل بحد السيف ، أما النساء والأطفال والأغنام وكل مافى المدينة حتى الغنائم، فهو لك أنت وحدك ، وسوف تأكل غنائم أعدائك التى أعطاها لك الله » .

فلو أنهم تركوا الأمر للنبى لما نالهم أكثر مما نال القبائل الشقيقة لهم، من أمثال بنى قينقاع وبنى النضير ، أو لأبعدوا على أسوأ فرض ، ولكن هكذا حكم سعد ـ وهو الحكم الذى اختاروه لأنفسهم ـ طبقاً لما جاء فى شريعة موسى ،حكم بالموت على رجال قبيلة بنى قريظة ، وعددهم ثلاثمائة ، أما النساء والأطفال فأخذوا أسرى، وصودرت أملاكهم . وقد يبدو أنه حكم صارم، ولكنه عين ما اعتادت يهود ـ بحسب ماجاء فى كتابهم المقدس ـ أن تفرضه على عدوها المهزوم ؛ فضلا عن أن جريمة الخيانة الدنيئة التى ارتكبتها قبيلة بنى قريظة لا يمكن فرض قصاص عادل لها ـ حتى فى زمننا هذا ـ غير ما كان ، كان القاضى من اختيارهم ، وكان الحكم مطابقا تمام المطابقة لشريعتهم . إن خيانتهم كانت من النوع الخطر ، فهل هنالك ما يمكن أن يعاب على النبى ؟ إن الاحتجاج بأن هذا حكم صارم

Digitized by Birzeit University Library

هو احتجاج على الشريعة الموسوية ، وربما كان فى ذلك إنصاف مستتر للإسلام ، فإن صح بأن الموسوية شريعة صارمة ، فكأن العالم كان فى حاجة إلى شريعة جديدة — الشريعة الإسلامية — أكثر سماحة ورأفة . وبمقارنة سريعة بين الشريعتين ترجح كفة شريعة الإسلام، إذ أنها شريعة الرحمة والسلام والسماحة والرأفة .

فتح خيبر

ثم فتح خيبر بعد صلح الحديبية ، أى فى السنة السابعة للهجرة ، ولما كانت هذه المعركة ذات مساس بالعلاقات بين يهود والمسلمين ، رأينا أن نأتى بذكرها هنا . لما طرد بنو النضير من المدينة ، نزل الفريق الأكبر منهم ، ولا سيما زعماؤهم ، فى خيبر ، وهى أهم معقل للهود فى بلاد العرب ، وتبعد مائتى ميل عن المدينة وعاشوا فيها عيشة الاستقلال والحرية ، وحصنوها تحصيناً قوياً ، ولكنهم بذروا بذور الكراهية والحقد للمسلمين ، فهم الذين هاجوا قبائل مكة وغطفان وقبائل العرب الأخرى (فى غزوة الأحزاب) ، وهم الذين أشركوا بنى قريظة فيها ، فلما انتهت الغزوة بهزيمة الأحزاب، ثبتت أقدام المسلمين فى المدينة ، ومكن الله لهم بأرضها ، إلا أن عداوة اليهود كانت كامنة فى قلوبهم ، تزداد مرارة على توالى الهزائم ، فاتصلوا سراً بعبد الله بن أبىّ ، كبير المنافقين ، الذى أعطاهم العهود والمواثيق وأكد لهم أن فى استطاعتهم القضاء على الإسلام ومحقه من الوجود ، وحدث فى السنة السادسة للهجرة ، أن حالت قريش دون حج النبى للبيت الحرام ، فاضطر إلى عقد صلح معها ، بشروط فيها شىء من الإجحاف له ، فزاد هذا فى اعتقاد يهود خيبر بأن الإسلام قد وهن ، وعادوا يدفئون صدورهم بآمال جديدة ، وأيقنوا بقرب زوال الإسلام واستئصاله من جذوره ، واتصلوا بغطفان ، يأتمرون من جديد ، ويطلبون منها تجريد حملة على

Digitized by Birzeit University Library

المدينة ، وعلم النبي بما كانوا يضمرون ، واستوثق من الأمر بالتحرى الدقيق، ثم سير إلى خيبر سرية من ١٦٠٠ مقاتل ، عسكرت فى الرجيع. وهى فى منعطف الطريق بين خيبر وغطفان ، واتخذت منها قاعدة أساسية لأسباب عسكرية ، فنية ، فاستطاع المسلمون بذلك أن يقطعوا الطريق بين المكانين (خيبر وغطفان) ، ولم يعد فى إمكان غطفان إرسال الحملة إلى خيبر ، وشعر يهود خيبر بحريتهم ، وباتوا يترقبون الهجوم عليهم . وساد الاعتقاد بأن يهود لن تقاوم ، وأنها ستستسلم سريعاً ، ولكن عندما تقدمت قوات المسلمين من خيبر، وجدت عدوا استعد جهده ، وبذل كل ما أوتى من قوة لملاقاتهم . وبدأ القتال ، واستولى المسلمون على عدة معاقل ، وقاومت قلعة (قموص) ، نظراً لمتانة تحصينها، وقوة حاميتها ، زهاء العشرين يوما ، ولكنها استسلمت فى آخر الأمر ، بعد قتال عنيف مر ، جرعها إياه على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، والتمس اليهود بعد ذلك أن تترك لهم أراضيهم ، على أن يؤدوا للمسلمين جزية مقدارها نصف النتاج ، فقبل ملتمسهم ، مع أن النبى كان يعلم أنهم لن يحفظوا عهده .

مؤامرة يهود ضد النبى

وما استقر الأمر ، حتى اجتمع زعماء يهود يأتمرون بالنبى ، ويبيتون النية على اغتياله ، فأوعزوا إلى زينب بنت الحارث — زعيم من زعماء يهود قتل فى معركة خيبر — أن تدعو النبى إلى وليمة ، وأن تدس له السم فى الطعام ، فتناول عليه السلام منه مضغة ولاكها ، فلم يسغها . وكان بشر بن البراء معه قد تناول منها مثل ما تناول ، فأما بشر فأساغها وازدردها . وأما النبى فلفظها ، وهو يقول : إن هذا العظم ليخبرنى أنه مسموم . ومات بشر من أكلته هذه ؛ إذن فهم قوم غادرون خونة ، لم تجد فيهم المعاملة الحسنة التى تعطف المسلمون عليهم بها ، وما استطاع الإحسان اليهم إطفاء

Digitized by Birzeit University Library

ما فى صدورهم من لهب الحقد والضغينة ، فبدوا على حقيقتهم ، منبعاً للشغب ، ومصدراً للاضطراب الدائم ، لا ينقطعون عن الكيد والتآمر ، فإن لم يكن لخيانة ، فلافتراء فى حق الإسلام والمسلمين ، واستمروا فى كيدهم هذا حتى خلافة عمر ، إذ ألقوا بابنه — عبد الله بن عمر — من أعلى منزل فى المدينة ، وأخفقت جميع المحاولات للتفاهم والتصافى معهم ، فانتهى الأمر بإبعادهم إلى سورية .

النبى يعامل بالحسنى

وعلى الرغم من كل هذا ، فقد عاملهم النبى معاملة حسنة ، وبذل كل جهده لإصلاح ذات البين بينه وبينهم ، ولكن على غير جدوى ، ومع أن حادث السم كان كافياً لاتخاذ أقسى الإجراءات ضد أمة يهود بأسرها ، إلا أن النبى كان على العكس يتوق لرؤيتهم وقد ارتبطوا والمسلمين بروابط الألفة والصداقة ، ولذا لم يوقع عليهم أية عقوبة ، واكتفى بقتل زينب ، لأنها تسببت فى قتل بشر بن البراء ، وأما المتآمرون الذين انغمسوا فى هذه المحاولة الطائشة — وهم زعماء يهود ، فقد سمح لهم جميعاً أن ينطلقوا أحراراً ! ؛ لقد حق عليهم الموت جميعاً ، ولكن النبى كان يرجو أن تغير المغفرة ما فى نفوسهم من حقد وكراهية .

زواجه من صفية

خطا النبى خطوة جديدة لخطب ود يهود ، فقد كان بين الأسرى الذين وقعوا فى أيدى المسلمين ، صفية بنت حيى ابن أخطب سيد يهود ، فأعتقها ، وتزوجها مرضاة لأهل خيبر ، وقيل إن كنوزاً هائلة وقعت فى يد المسلمين ، عند ما استولوا على خيبر ، وهذا قول عار من الصحة ، ويكفى للدلالة على عدم صحته ، أن النبى عند ما تزوج صفية ، لم يكن لديه صداق الزواج المعتاد دفعه عند قبائل العرب ، فى ذلك الوقت ، فقد أحضر المدعوون طعامهم ، والتأم الجمع ، وأقيمت وليمة الزواج ، ويالها من وليمة ، لم تحو إلا التمر والشعير ، وهما طعام العرب فى كل يوم ، وفى كل وجبة . . وعلى هذا النحو من البساطة ، تم زواج عاهل كبير مظفر من أميرة يهود .

Digitized by Birzeit University Library

الفصل العشرون

صلح الحديبيـــــة

« إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ، ليغفر الله ما تقدم من ذنبك ، وما تأخر ، ويتم نعمته عليك ، ويهديك صراطاً مستقيما »

الاسلام ينتشر على الرغم من السيف

كانت غزوة الأحزاب آية ساطعة على أن الله يؤيد الإسلام ، ويمده بروح من عنده ، لقد حاولت قريش أن تقضى على الإسلام فى بدر وأحد ، ولكنها ارتدت خاسرة ، ولم تنل منه ، وائتلفت قبائل العرب ، ورمته عن قوس واحدة ، ولكنه وقف ثابتاً ، لم يتزعزع ، وحاول المنافقون واليهود أن يبثوا سمومهم فى داخل يثرب ، وأن يؤلبوا الناس على النبى ، فرد كيدهم فى نحورهم ، وضاعت محاولات محق الإسلام هباء ، فلم يبق إلا تجمع قريش وقبائل العرب ، والمنافقين ، واليهود ، وشن الغارة على المسلمين من الخارج ، وحوك الدسائس فى الداخل ، ولكن حبط سعيهم ، وفشلت محاولتهم الأخيرة ، وطاش السهم الأخير ، فلن تقوم لهم قائمة بعدها أبداً ، ولن تهاجم المدينة أو تهدد ، كل هذه حقائق تاريخية يعترف بها أصدقاء الإسلام وأعداؤه على السواء ، ثم ينادى بعد ذلك بعض المغرضين بأن الإسلام ما انتشر إلا بحد السيف ، على الرغم من أن الوقائع التاريخية تكذب هذا الزعم كل التكذيب . إن الحقيقة واضحة وضوح الشمس فى يوم صائف ، فما انتشر الإسلام عن طريق السيف أبداً ، ولكنه انتشر على الرغم من السيف المشهور فى وجهه ،

Digitized by Birzeit University Library

متحديا الصعاب والأهوال ، وما صمد دين فى العالم أمام الاضطهاد والنضال كما صمد الإسلام ، أحاط السيف بالإسلام من كل جانب ، فما قامت فى عضده ، ولا نال منه، بل كان ذلك داعياً لانتشاره ، وذيوع أمره ؛ هوجمت المدينة ثلاثاً ، بقصد البطش بالإسلام ، وكان كل هجوم أقسى من سابقه وأمر ، فما كانت النتيجة ؟ هل ضعفت قوة الإسلام ووهنت ؟ لا والله . كان عدد المسلمين الذين يخوضون المعارك فى تزايد مستمر ، ففى غزوة بدر كان عددهم ٣٠٠ ، وفى أحد بعد بدر بعام واحد ، كان ٧٠٠ ، أى أكثر من الضعف ، وبلغوا ما يقرب الألفين فى الأحزاب . هذا التزايد المطرد الملحوظ يتناسب مع عنف الهجوم على الإسلام ، فكلما زادت محاولات القضاء عليه ، زاد دخول الناس فيه ، لقد كانت يد الله تظاهره، وتشد أزره، أفيقال بعد هذا إن الإسلام انتشر بحد السيف ؟ !

كان عدد الداخلين فيه يتزايد يوما بعد يوم، على الرغم من السيف فوق الرقاب .

منع النبى من الحج

مضى على غزوة الأحزاب مايقرب من عام ، وأنبأ النبى أصحابه أنه رأى أنهم سيدخلون المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رءوسهم ومقصرين ، لا يخافون ؛ وكان من المفهوم أن قريشا وسائر قبائل العرب ، الذين عملوا جاهدين للنيل من الإسلام بلا جدوى ، قد خضعوا للحقيقة ، فعرفوا للإسلام قوته ، وكان من المأمول أن يعترفوا بصدق رسالة النبى، وأن يكفوا عن مناصبته العداء ، وألا يقفوا حجر عثرة فى سبيل حج المسلمين ، وبخاصة وأن الحج حق لجميع العرب ، لا يمنع من تأديته حتى ألد الخصوم .

Digitized by Birzeit University Library

فلم يكن ثمة داع لتصدى قريش لمنع النبي وصحبه ، ففي السنة السادسة للهجرة ، خرج النبي ومعه ألف وأربعمائة حاج ميممين صوب مكة ، قاصدين العمرة ، وأمر النبي ألا يحمل المسلمون سلاحا ، حتى لا تظن قريش أنه ما خرج إلا لقتالها ، وأنه إنما خرج زائرا ، ولم يسمح النبي إلا بحمل السيوف فى القرب ، وكان حمل السيف فى تلك الأيام شيئاً معتاداً مهما كان الأمن مستتبا ، وساق الناس هديهم معهم ، كما هى العادة ، وانطلقوا إلى مكة ، فلما اقتربوا من أرباضهـــا ، رأوا فرسان مكة على استعداد للقتال ، لمنع محمد وصحبه من دخولها ، وجاء بديل بن ورقاء النبي فى رجال من خزاعه ، يسألونه ما الذى جاء به؟ فلما علموا أنه ماجاء يريد حربا ، وإنما جاء زائرا للبيت ، رجعوا إلى قريش يريدون إقناعهم ليخلوا بين الرجل وأصحابه وبين الكعبة ، ونزل النبي بالحديبية على بعد مسيرة يوم واحد من مكة .

هبوط المفاوضات

أبلغ بديل رسالة النبي إلى قريش ، فانحاز عقلاؤها إلى هـذا الرأى ، رأى الإخلاء بينه وبين الكعبة ، إنهم أعجز من أن ينالوا الإسلام بسوء ، فقدوا كل مافى جعبتهم من محاولات ، وبذلوا كل ما فى مقدورهم ، ولكنهم باءوا بخزى عظيم ، فإن تركوه وما يبغى ، تمكنوا من استئناف تجارتهم مع سورية ، تلك التجارة التى توقفت بسبب عداوتهم للمسلمين ، والمسلمون فى المدينة فى طريق قوافلهم ، فأوفدت قريش «عروة بن مسعود الثقفى» ، وهو حكيم تطمئن إلى حكمته ، فخرج إلى محمد وذكر له ، أن مكة بيضته ، وأنه إن يفضضها بأهله المقيمين بها بمن جمع من أوشاب الناس ، ثم انصرف هؤلاء الأوشاب عنه ، كان العار الخالد لقريش عاراً لا يرضاه محمد ، وإن اتصلت الحرب بينه وبين قريش ما اتصلت . فصاح أبو بكر فى عروة ، منكرا أن ينصرف

Digitized by Birzeit University Library

الناس عنه ؛ وانتهت المفاوضات بالخيبة ، وانصرف عروة من عند النبي وهو يعجب لحب أتباعه له ، فلما كان عند قريش قال لهم : « يا معشر قريش ، إني جئت كسرى فى ملكه ، وقيصر فى ملكه ، والنجاشي فى ملكه ، وإني والله ما رأيت ملكا فى قوم قط مثل محمد فى أصحابه .

بيعة الرضوان

أوفد النبي رسولا آخر إلى قريش ، فأساءوا استقباله ، وعقلوا جمله ، وخرجت سرية من قريش لمباغتة المسلمين ، وأخذهم على غرة ، فأخذوا أخذا ، وجيء بهم إلى النبي ، فعفا عنهم جميعا تشبثاً منه بخطة السلم ، وأخيراً عهد إلى عثمان بمفاوضة قريش ، فاعتقلته وألقت به فى السجن ، وشاع الخبر بين المسلمين بأنه قتل ، فاعتقدوا بأن قريشاً تثيرها حربا عوانا عليهم ، فكان موقفهم صعبا : إنهم قليلو العدد ، عزل من السلاح ، ولكن إيمانهم بالله ، وثقتهم فيه ، لا حد لها ، فلما حسبوا أن العدو عازم على القتال ، لم يتخاذلوا ، ولم يولوا الأدبار ، فما كان من شيمهم التخاذل والفرار ، فقال النبي ، « لا نبرح حتى نناجز القوم » ودعا إليه أصحابه ، وقد وقف تحت شجرة هناك ، فبايعوه جميعاً على ألا يفروا حتى الموت ، وبايعوه وكلهم ثابت الجنان ، قوى الإيمان عازم على القتال حتى النفس الأخير ، وعرفت هذه المبايعة فى التاريخ الإسلامى ببيعة الرضوان ، وإنها لعمل مجيد ، ومثل فريد فى نكران الذات ، والتضحية بالنفس فى سبيل نصرة العقيدة ، وهى يوم مشهود فى التاريخ الإسلامى ، وأخذ الناس يتوافدون على الشجرة ، بعد موت النبي للتبرك بها ، فخاف عمر ، فى خلافته ، أن يتطور الأمر إلى وثنية ، فأمر باقتلاعها ، وفى هذا دليل على غيرة المسلمين الأولين على مبدأ التوحيد ، فما كان يترك ما يشتم منه رائحة الخزعبلات ، أو الوثنية الأولى ، مهما كانت قيمته التاريخية .

Digitized by Birzeit University Library

شروط الصلح

كان لعزم المسلمين على الاستشهاد فى سبيل نصرة دينهم ، أثر فى رد قريش إلى رشدها ، وكان ما قاسوه من المسلمين لا زال عالقا بأذهانهم ، فما كانوا يفقهون لمثل هذا العمل الجرىء من جانب المسلمين معنى، فهم عزل من السلاح ، قليل عددهم ، فإذا دارت عليهم الدائرة ، أصبحوا جميعاً كأمس الدابر ، ولكنهم على الرغم من ذلك قد عقدوا العزم على ألا يفروا حتى الموت، فكان لذلك أثر رهيب فى أفئدة قريش ، فأوفدت سهيلا لمصالحة محمد ، فاتفقا أنهما تهادنا عشرسنين ، وأن يرجع النبى وصحبه عن مكة عامهم هذا على أن يعودوا إليها فى العام الذى يليه، فيدخلوها، ويقيموا بها ثلاثة أيام، ومعهم من السلاح السيوف فى قربها، ولا سلاح غيرها. وأن من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم، ومن جاء قريشا من رجال محمد لم يردوه عليه، وأنه من أحب من العرب محالفة محمد فلا جناح عليه . ومن أحب محالفة قريش فلا جناح عليه .

وجاء وقت كتابة الصلح، فدعا النبى عليا وقال له « اكتب » بسم الله الرحمن الرحيم » فقال سهيل : « أمسك لا أعرف الرحمن الرحيم ، بل اكتب : باسمك اللهم» فوافق النبى، ثم قال « اكتب ، هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو » فقال سهيل : « أمسك لو شهدت أنك رسول الله ، لم أقاتلك ، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك ، فاعترض بعض المسلمين ، ولكن النبى لم يعارض ، فما كان يعلق اهتماما كبيرا على التفاصيل التافهة ، ومد يده ، ومحا الكلمات المختلف عليها ، وقال لعلى : « اكتب من محمد بن عبد الله »

احتجاج عمر

ضاق بعض المسلمين بأمر هذه الاتفاقية صبرا، ولكنهم ظلوا ساكنين ، احتراما لرغبة النبى ، وما وقع من العهد

Digitized by Birzeit University Library

حتى ظهر أبو جنـــدل بن سهيل يصيح: « يامعشر المسلمين ، أأرد إلى المشركين يفتنونى فى دينى ! » وكان أبو جندل قد اعتنق الإسلام بمكة ، وكانت قريش تعذبه لترده إلى دينها ، ولما علم بوجود المسلمين خارج مكة فر ليلحق بهم ، وهو يأمل أن يلقى ترحيبا ، ولـكن عهد الحديبية يحتم رده إلى قريش ، فحزن النبى لرؤيته ، ورأى المسلمون آثار التعذيب به ، فاهتزت قلوبهم ، ومست حاله شغاف قلوبهم جميعاً ، فـكان يحزنهم أن يروا مسلما يعاد إلى العذاب قسرا ، وبلغ التأثر من عمر كل مبلـغ ، فلم يتمالك نفسه ، فاتجـــه إلى النبى وقال : « ألست برسول الله ؟ أو لسنا بالمسلمين ؟ فقال النبى « بلى » ، فقال عمر : « فعلام نعطى الدنية فى ديننا ؟ » فقال النبى « أنا عبدالله ورسوله ، لن أخالف أمره ، ولن يضيعنى » فقال عمر : « أو لست كنت تحدثنا أنا سنأتى البيت ونطوف به ؟ » فقال النبى : « بلى ، أفأخبرتك أن نأتيه هذا العام ؟ » فقال عمر : « لا » فقال النبى : « فإنك آتيه ، ومطوف به » . وحدث عمر أبا بكر فى نفس الموضوع ، وبنفس الحمية ، فأجابه أبو بكر : « ياعمر ، الزم مكانك ، فإنى أشهد أنه رسول الله » ، وبالاختصار ، أهاج حادث أبى جندل شعور المسلمين ، ولـكنهم لم يستطيعوا فعل شىء ، فما كان للمسلمين أن ينقضوا ما أبرموه ، وهم يعلمون أن عليهم أن يحافظوا على كلمتهم مهما كان الثمن ، والتفت النبى إلى أبى جندل وقال : « ياأبا جندل ، اصبر واحتسب ، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين مخرجا . إنا عقدنا بيننا وبين القوم صلحا وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله ، وإنا لا نغدر بهم » .

فتح مبين

نزل الوحى على النبى ، والمسلمون فى الطريق بين مكة والمدينة : « إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً » فكان ما ظنه المسلمون صلحا مهيناً ، نصراً مبيناً من عند الله ، فبعث النبى فى طلب عمر ، ليبلغه

النبأ السعيد ، وخشى عمر أن يكون النبي ما أرسل فى طلبه إلا لتأنيبه على إسرافه فى نقد الصلح ، ولكن ما سمع عمر الآيات حتى انقلب خوفه فرحا ، وأيقن كما أيقن المسلمون جميعاً ، أن هذا الصلح نصر من عند الله ، كانوا جميعا متذمرين من هذا الصلح ، ولكن ما نزلت سورة الفتح ، حتى راح الجميع يكررون تلاوتها ، فهل كان ذلك ضعفا عاماً فى سرعة التصديق ؟ لا بل قد دلتهم الحوادث السابقة ، والأزمات التى حاقت بهم ، على صدق الوحى ، وإن تاريخ الإسلام ملىء بالتنبؤات التى تنبأ بها الوحى ، وصدق جميعها .

الصلح يحقق النصر للاسلام

والدليل على أن صلح الحديبية كان فى صالح الإسلام والمسلمين ، أن النبى عندما مشى إلى مكة لفتحها بعد ذلك بنحو عام ونصف العام ، كان عدد من خرج معه من المسلمين عشرة آلاف ، وكان عددهم يوم صلح الحديبية ألفا وأربعمائة ، أوجدت حالة الاقتتال والتنافر بين المسلمين وقريش حاجزاً بين القبائل والإسلام ، فكانت القبائل تخشى الاختلاط بالمسلمين ، ولكن ما إن وقع صلح الحديبية حتى اختلطت القبائل بهم ، لأول مرة منذ ظهور الاسلام ، فناقشوا فى هدوء واطمئنان تعاليم الإسلام القوية ، ولاحظوا سموأخلاق صحابة الرسول ، فأعجبوا بهم : زالت بهذا الإختلاط غشاوة بغض النبى عن أعينهم ، فأيقنوا أنه ما جاء لقطع صلاتهم ، وأنه على خلق عظيم ، وأنهم كانوا ضحايا دعاوى كاذبة مضللة مغرضة ، ولمسوا مظاهر عظمته ، وسمو أخلاقه ، ونبالته ، ونقاوته ، وطهارته ، فدخلوا فى دين الله أفواجا .

النبى يبرأ من الافتراءات الكاذبة

انمحت جميع الافتراءات التى ألحقت بالنبى بسبب الحقد عليه ، وتحقق ما نزل به الوحى عليه وهو عائد من الحديبية : (ليغفر لك ما تقدم من ذنبك . وما تأخر)

Digitized by Birzeit University Library

وبانت شخصيته القوية الكريمة ، فإذا هى مفعمة بالكمال والجلال ، وإن كلمات « وما تأخر » وعد من الله بدفع كل افتراء يلحق به فى المستقبل. وإذا ما ألقينا نظرة عجلى على ماطرأ من تغير فى وجهة نظر العالم الغربى بالنسبة للنبى قدرنا هذه الفقرة من الآية حق قدرها ، فقد تحولت جميع الافتراآت التى ألصقت بالنبى بقصد تشويه شخصيته ، عن جهل أو عن عمد . محاسن له ، وتنبه العالم الغربى ، يوما بعد يوم ، إلى نبالته ، وقويم خلقه . وسيأتى يوم ، إن عاجلا أو آجلا ، يعترف فيه اعترافا عاماً بأن النبى على خلق عظيم ، كما قال القرآن . ومما لا شك فيه أن هذا الاعتراف سيحدث ، كما حدث من قبل ، حين تستتب شئون العالم . إن الجشع الاستعمارى فى أوربا ، قد بلغ منتهاه ، وقد حان الوقت لأن يشرق قريبا فجر جديد ، فجر عصر المثل العليا ، وقد جاء الوقت ، بفضل اختلاط الأوربيين بالعالم الإسلامى اختلاطا تاما ، أن تقلع أوربا عن غيها ، وأن تمحو من عقلها تلك الآراء الخاطئة عن الإسلام ، وعندئذ تتحقق ، كما تحقق أعداء الإسلام من ١٣ قرنا خلت ، أن وجه الإسلام نقى لا يعلوه غبار ، وأن الجهل والتحامل هما اللذان شوهاه ، وأنها ستجد فيه الحقيقة التى لم تجدها فى الكنيسة ، وستجد فيه السلام الدائم . إن أوربا التى شغفت بالبحث عن نور الهداية ، ستجد سعادتها فى الإسلام ، الذى ظلت تلونه بأقتم الألوان ، ومن يدرى فقد يعيد التاريخ نفسه ، ويعود مجد الإسلام ، فيقع الذين يبيتون له الشر ضحية قوته الروحية ، كما حدث عند صلح الحديبية .

حب النبى للسلام

لم ينزل النبى عند شروط صلح الحديبية المجحفة إلا لمشيئة سماوية ، وإن قبول النبى هذه الشروط ، هو دليل بليغ على حب النبى للسلام ، ومقته للشحناء والقتال ، كان

المسلمون منتصرين على طول الخط حتى الساعة ، فلم يهزموا مرة واحدة، على الرغم من تحالف قوى القبائل جميعها ضدهم ، فشعروا أن هذه الشروط القاسية ، تنال منهم ومن كرامة دينهم ، فألحوا فى رفضها ، وبايعوا النبى على منازلة العدو حتى الموت . ولكن النبى كان يميل إلى السلام ، فإذا ما رأى من العدو أقل ميل إلى المهادنة ، فإنه كان يستمع إلى شروطه بصدر رحب ، لم يهزم المسلمون ولكن أمليت عليهم شروط أشبه بتلك التى تملى على المهزوم ، وعلى الرغم من ذلك قبلها النبى ، أفبعد هذا يقال إن النبى كان يسعى للسيطرة على الآخرين ؟ إن هذا دليل منطق على حب النبى للسلام ، وقد فرض القرآن ذلك : « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها » .

انتشار الإسلام فى مكة

ماذا كانت نتيجة صلح الحديبية الذى عده المسلمون صلحاً مجحفاً ؟ هل أوقف هذا الصلح من دخول أهل مكة فى الإسلام ؟ كان المفروض ذلك ، فهذا الصلح المجحف دليل جديد على ضعف المسلمين ، وليس لمن يسلم فى مكة من يشد أزره ، غير المسلمين فى المدينة ، ولكن صلح الحديبية يحرم التجاء من يسلم فى مكة إلى محمد وصحبه ، وينص على أن من يأتى محمداً من قريش بغير إذن وليه يرده عليهم ، إنه لما يخفف على المرء ألمه ، أن يكون بين أصحابه فى ساعات الضيق ، حتى ولو كان أصحابه واقعين تحت الاضطهاد الشديد ، إنه نوع من المواساة ، على الرغم من الضيق الذى يحل بالجميع ، ولكن هذه المواساة الوحيدة ، كانت محرمة على مسلمى مكة بحسب نصوص صلح الحديبية ، فكيف يفكر إنسان ، فى مثل هذه الظروف ، فى الدخول فى الإسلام ؟ إنه عرضة للاضطهاد والتعذيب والتنكيل ، وإذا ما فر إلى المدينة رد إلى التعذيب والتنكيل ، وإن قصة أبى جندل لا زالت عالقة

Digitized by Birzeit University Library

بالأذهان . إن هذه العوامل مجتمعة لتفل حماسة أشد المتحمسين ، فكان المفروض والمفهوم طبيعياً ومنطقياً ، أن يقف الإسلام ، لا يدخل فيه إنسان . ولكن كان الحال على النقيض ، فقد انتشر الإسلام ، وعم نوره القبائل ، فأصبح عشرة أمثال ما كان عليه ، فى فترة صلح الحديبية ! فما هو الاستنتاج الطبيعى المنطقى لهذه الظاهرة ؟ الاستنتاج الطبيعى هو أن قيمة الإسلام كانت ترجح كل ما يقابلها من اضطهاد ، وتعذيب ، وألم . أنسى سحر الإسلام وجماله معتنقيه آلامهم وتعذيبهم ، لقد كانوا المنبوذين فى المدينة . والمضطهدين فى مكة ، ولكنهم ظلوا ثابتين ! لا يتزعزعون أمام الاضطهاد الشديد ، وذهبت كل الصعاب ، وانقشعت أمام قوة الإسلام المنيعة ، التى لا تنال . فأين هذا مما يدعيه النقاد ، وأين سيف الإسلام المسلط على الرقاب ؟ الحقيقة أن الإسلام قد انتشر على الرغم من السيف المسلط على رقاب المؤمنين .

مستعمرة العيص

اعتنق أبو بصير الإسلام فى مكة ، فاضطهد وعذب كما عذب أبو جندل ، فتمكن من الفرار إلى المدينة ، فجاء فى عقبه اثنان من قريش يطلبان رده ، وفقاً لصلح الحديبية ، فقال له النبى : « يا أبا بصير ، إنا قد عاهدنا هؤلاء القوم ما قد علمت ، ولا يصح لنا فى ديننا الغدر . وإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا ، فانطلق إلى قومك » . فصاح أبو بصير : « يارسول الله ، أتردنى إلى المشركين يفتنونى فى دينى ! » فكرر النبى قوله ، فانطلق أبو بصير مع الرسولين . كان النبى فى هذه المرة فى منعة من قومه ، وليس الحال كما كان فى الحديبية ، يوم جاء أبو جندل ، يوم كان المسلمون قلة ، عزلا من السلاح ، فما على النبى أن يبقى أبا بصير؟ إن العهود إذا أبرمت فلا سبيل إلى نقضها ، أو التحلل منها ، كانت هذه قاعدة

Digitized by Birzeit University Library

النبي ، ولو ضحى بمسلم فى سبيلها . إن احترام النبي لكلمة قطعها يدعو إلى الإكبار حقاً ، وإن حب أبي بصير لدينه يدعو إلى الإكبار حقاً ، فما كان عليه أن يبقى فى هذا الدين الذى يرده إلى مكة للتعذيب والتشريد ، وما كان عليه أن يصدق هذا النبي الذى يسلمه بيده إلى جلاديه ، ولكن الإسلام قد أسره ، فسمع للنبي ، وانطلق مع الرسولين ، إلى حيث العذاب الرهيب ، وفى الطريق دعته غريزة حب البقاء إلى أن يفعل شيئاً ، وليكن ما يكون ، فغافل أحد الرجلين فقتله ، ففر الثانى ، فما يفعل أبو بصير ، إن المدينة محرمة عليه ، وإن مكة جحيم لا يطاق ، فليبحث عن مكان آخر ، فانطلق إلى العيص ، وهى واقعة على شاطىء البحر على طريق قريش التى كانوا يأخذونه إلى الشام ، وكان عهد محمد وقريش أن تترك هذه الطريق للتجارة ، لا يقطعها هو ، ولا تقطعها قريش ، فلما ذهب أبو بصير إليها ، وسمع المسلمون المقيمون بمكة بأمره ، فر إليه منهم نحو سبعين رجلا ، اتخذوه إماما لهم ، وجعلوا يقطعون على قريش طريقها ، ووجدوا أنفسهم فى مأمن من شروط الحديبيـــة المجحفة ، وأضحوا خطراً دائماً على تجارة قريش ، وخشيت قريش أن يكثر عددهم ، حتى يتمكنوا من قطع تجارتها إلى الشام ، فعرضت على محمد تعديل شرط استرداد الهاربين إلى المدينة من مكة ، واستجلفته أن يؤوى هؤلاء المسلمين ، حتى يتركوا الطريق آمناً ، وبذلك يقضون على مستعمرة العيص التى أقلقتهم فى مضاجعهم .

Digitized by Birzeit University Library

الفصل الحادى والعشرون

دعوة الملوك

« قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ، ألا نعبد إلا الله ، ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله »

رسالة الإسلام تتجاوز بلاد العرب

كان الدليل القاطع على أن صلح الحديبية نصر مبين للمسلمين ، ما تلاه من الحوادث . فقد أخذ عدد المسلمين يتزايد ويتشعب ، ودخل فى دين الله مشاهير الغزاة ، كخالد ، وعمرو بن العاص ، اللذين كانا فيما سبق زهرة جيش العدو . وهكذا كسب المسلمون من السلم ما لم يكسبوا مثله فى أعظم معركة فى الميدان ، وعده النبي بشيرا لنتائج قيمة مقبلة ، وعدل برامج نشاطه على هذا الاعتبار ، فلما عاد من الحديبية ، جمع المسلمين وشرح لهم أن الإسلام ما نزل إلا رحمة للعالمين , وأن قد حان الوقت الذى تنتشر فيه رسالة الإسلام بعيداً ، وتبلغ ملوك الأقطار المجاورة كقيصر الروم ، وكسرى ، وملك مصر ، ونجاشى الحبشة ، وزعماء قبائل العرب الأخرى ، وقد عثر على رسالة النبى إلى المقوقس عظيم القبط بمصر أخيراً ، سليمة كما كانت ، وجاء فى السير أن المقوقس اهتم بأمر الرسالة ، واحتفظ بها فى علبة ثمينة مرصعة بالجواهر ، وقد أذيعت صور منها ، فجاءت مطابقة تمام المطابقة لما جاء فى الحديث . وأكرم المقوقس وفادة رسول النبى ،

Digitized by Birzeit University Library

وأرسل إلى محمد عدة هدايا نفيسة ، على رغم أنه لم يعتنق الإسلام ، وكان من بين الهدايا بغلة لركوب النبي ، وسيدتان ، تزوج النبي من إحداهما ، وانتقلت بذلك من جارية إلى زوجة كريمة للرسول ، وتزوج من الأخرى حسان الشاعر .

موقف قيصر الروم من الاسلام

وأوفد (دحية الكلبي) إلى قيصر الروم برسالة . وحدث أن كان أبو سفيان فى سورية فى ذلك الوقت فى قافلة تجارية له هناك . فاستدعاه قيصر إلى بلاطه ، وسأله عما يعرفه عن النبي ، فأجاب أبو سفيان عن مختلف الأسئلة التى وجهت إليه ، على الرغم من كراهيته للإسلام ، بما يؤيد نزاهة النبي وصلاحه . فقال إن النبي من أصل كريم ، وإن أتباعه فى زيادة مطردة وإنه لم يكذب طول حياته قط ، وأنه لم يحنث أبدا بكلمته ، وإن دخل امرؤ فى دينه فإنه لا يتحول عنه أبداً ، وإن تعاليمه إيجاز شديد هى : شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، والصلاة ، والعفاف ، والصلة ، وقول الصدق ، والإحسان إلى ذوى القربى والجيران والناس جميعاً ، فتأثر قيصر كثيراً بما قاله أبو سفيان عدو الإسلام ، . كان قد رأى رؤيا عجيبة فى هذا الموضوع ، تجلو له الأمر .

وعقد مؤتمراً من جميع قساوسة مملكته ، وأخذ فى محاولة استمالتهم إلى الإسلام ، وأخبرهم أن فى دخولهم فى الإسلام سعادتهم ، ولكن عند ما رأى أنهم يجمعون على النفور من فكرة التحول عن معتقدهم القديم ، طيب خاطرهم ، وطمأنهم بقوله - إنه إنما كان يمتحنهم ، ليرى مبلغ تشبثهم بدينهم وعقيدتهم . وبديهى أنه لم يرد أن يهيج الكنيسة بأكملها عليه .

Digitized by Birzeit University Library

وحدة المبادئ الدينية

وهذه الرسالة إلى قيصر الروم كبقية الرسائل التى أرسلت إلى الملوك الآخرين، كانت تصدر بالآية القرآنية التى افتتحنا بها هذا الفصل. فهى تدعو أهل الكتاب إلى قبول ما هو مشترك بين دينهم وبين الإسلام، فيجب عليهم ألا يعبدوا إلا إلهاً واحداً لا شريك له، وألا يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً؛ وواقع الأمر أن الآية تدعو إلى حقيقة - لو اتبعت اليوم - لانتهت جميع المنازعات الدينية، ولاتحدت الديانات فى دين واحد، ولأصبحت الإنسانية جمعاء فى إخاء عالمى عام، ولاستبعاد جميع الفروق فرضت قبول ما تقبله كل الديانات متفرقة، ليكون قاعدة البداية، وعلى هذه القاعدة يقام بناء يشمل جميع التفاصيل التى تتمشى منطقياً وعقلياً مع القاعدة، التى تمثل الحقيقة السليمة المجردة. وبهذه الطريقة تتقابل جميع ديانات العالم فى أرض مشتركة، وتنهى إشكالاتها ومنازعاتها بطريق ودى. وإن فكرة «انتخاب» دين عام مختار، لإنقاذ العالم، التى انتشرت وذاعت فى العصر الأخير. لتتمشى تمشياً منطبقاً مع «الحقيقة» التى بزغت منذ ١٣ قرناً.

حمل الرسالة إلى خسرو عبدالله بن حذافة. وكانت تبدأ: بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد إلى..

خسرو يأمر بالقبض على النبى

ولكن كسرى لم يطق أن يرد اسم مخلوق آخر قبل اسمه هو. فهاجت هائجته عند ما سمع باسم محمد يقرأ قبل اسمه. فهجم على الرسول ومزق الرسالة. وأصدر أوامره إلى حاكم اليمن، وهو فى سورة غضبه هذه، بأن يلقى القبض على النبى. فأرسل الحاكم (بازان) رجلين إلى المدينة لهذا الغرض! لم يكن للعرب وزن فى أعين هؤلاء الناس! فكان من المألوف أن يلقى أحد جنودهم القبض على أى أعرابى يلقاه فى طريقه. فلما وصلا إلى المدينة أبلغا النبى رسالة ملكهم.

Digitized by Birzeit University Library

فقال صلى الله عليه وسلم إنه لا ملك لهما ، فظهرت الدهشة عليهما . ولما عادا إلى ديارهما صعقا بالخبر . . لأن كسرى قد قضى نحبه مقتولا بيد ولده ، فى نفس اللحظة التى كانا يؤديان فيها رسالة كسرى إلى النبى . فكان من نتيجة ذلك أن أسلم عامله بازان ، وخرجت ولاية اليمن من طاعة كسرى ، الذى أخذت أمبراطوريته فى الانحلال والتفكك .

النجاشى يقبل الاسلام

أما نجاشى الحبشة فقد قبل الإسلام بمجرد أن تلقى دعوة النبى التى حملها إليه جعفر ، أحد المهاجرين المسلمين الذى كانوا باقين بالحبشة .

غزوة مؤتة

ومن بين الدعوات التى وجهت إلى مختلف قبائل العرب ، الدعوة التى أرسلت إلى شرحبيل بن عمرو بالبصرة ، على حدود سورية ، وهى تستدعى الاهتمام . فإنهم خالفوا التقاليد المرعية ، فقتلوا الرسول الموفد إليهم : حارث بن عمير . ويعتبر هذا التحدى الصريح بمثابة إعلان للحرب على الإسلام وكذلك اعتبره المسلمون ، وكان من قصر النظر أن يترك المسلمون لهم فرصة جمع قواتهم وتجهيزها بالسلاح اللازم . فجمعت قوة من ٣٠٠٠ مقاتل على وجه السرعة ، وسيرت إلى العدو ، ووضعت تحت إمرة زيد بن حارثة عبد النبى المعتق . وهذا مثل رائع يدل على المساواة المطلقة بين رجل ورجل وفق ما جاءت به التعاليم الإسلامية . هاهم سادة قريش ، أكثر قبائل العرب فخاراً ، ونبلاء والأنصار تحت إمرة عبد معتق . وقد صاحب النبى الحملة بنفسه حتى المكان المعروف بثنيات الوداع . أما شرحبيل فقد جمع جيشاً من مائة ألف مقاتل ، وكان قيصر الروم هو الآخر يستعد للقتال . والتقى الجمعان فى مؤتة التى بها سميت الغزوة . ولما استشهد زيد تولى جعفر قيادة المسلمين . فقاتل قتال المستميت إلى أن قتل وبه من الجراح

Digitized by Birzeit University Library

ما لا يقل عن الثمانين ، فخلفه فى القيادة عبد الله بن رواحة الذى قتل كذلك ، وكان هذا التسلسل فى تولية القيادة من ترتيب النبي نفسه وهى إحدى عاداته التى تدل على بعد نظره . وانتخب خالد للقيادة فأبدى مهارة فائقة فى تخليص جيشه الصغير من براثن الهلاك . وكان ذلك فى شهر جمادى الأولى سنة ثمان للهجرة .

ثقة النبي وإيمانه

إن الحوادث والظروف التى أوجبت إيفاد هؤلاء الرسل لحمل هذه الدعوات لجديرة بالدرس ، فلو أن النبي قد أوفد رسله بعد إخضاع بلاد العرب كلها لعد ذلك ضرباً من الجشع الاستعمارى ، ولكن ماذا كانت حقيقة الموقف ؟ حدث ذلك بعد محاصرة المدينة بسنة واحدة ، وما كان هنالك أمل فى نجاة مسلم واحد ! وحتى هذه الساعة كان المسلمون أعجز من أن يطئوا بأقدامهم أرض مكة لأداء « فريضة » الحج ؛ وأعداء المسلمين أقوياء لدرجة أنهم أملوا شروطهم على المسلمين ، وكان المسلمون محفوفين بأعدائهم فى كل مكان من بلاد العرب ، وبعض نفر من المسلمين هنا أو هناك ليس بشىء يعتد به . ولكن على الرغم من هذه الظروف المضنية ، العصيبة ، كانت ثقة النبي وإيمانه بالنصر فى النهاية للإسلام ، ثابتة وطيدة لا تتزعزع ، وكان واثقاً وثوق اليقين من أن الإسلام سوف ينتشر ويسود ، حتى يعم نوره كل ركن ، وكل فج فى العالم أجمع ، فبالرغم من هذا الضعف البادى يدعو النبي ملوك العالم الأقوياء إلى اعتناق دينه ، وما كان ذلك إلا لثقته وإيمانه بقوة ربه . وهذا أجمل رد على هذا النفر من المسلمين الذين يتشككون فى نجاح دعوة الإسلام فى عالم الغرب ، بحجة أن الإسلام مفتقر اليوم إلى قوة دنيوية ، وإلى أمبراطورية عظيمة تظاهره . ولكن الحقيقة الناصعة ليست فى حاجة إلى من يظاهرها . وهى فى نفسها قوة هائلة

Digitized by Birzeit University Library

لا سبيل إلى قهرها . وهذه نقطة جديرة باهتمام النقاد المعادين للاسلام ، فهل كان لمدع أو دجال أن يثق برسالته وبنصره إلى هذا الحد ؟ محال ! وإننا لنترك الذين يميلون إلى نسبة هذه الدعوات الجريئة إلى عقلية مخبولة، يفكرون فى النجاح الخارق العجيب ، الذى تلا ذلك بسنوات معدودات ، فإن كانت تلك الوقائع الثابتة قد أثبتت وأكدت أن محمداً ليس بمدع ولا بمجنون ، فليس هناك من استنتاج صحيح معقول إلا أنه نبى من عند الله . إن المسيحية فى عصرها الأول لم ترم إلى هداية الناس كافة ، والمسيح نفسه لم يدع هذا ، بل صرح بأنه ما أتى إلا لهداية شعب اسرائيل الضال ، ولقد رفض دعوات إحدى النساء غير الإسرائيليات ، وعلى العكس من ذلك أعلن محمد صلى الله عليه وسلم ، منذ اللحظة الأولى أن رسالته للناس جميعاً ، ولم يأل جهداً فى سبيل تحقيق رسالته طول حياته ، فدعا الملوك إلى الإسلام .

خاتم النبى

أرسلت هذه الدعوات فى السنة السابعة للهجرة . وكانت كلها تحمل خاتم النبى وقد نقش عليه « محمد رسول الله » وقد ورد فى السير أن اسم الله ورد فى الجزء الأعلى منه ، واسم النبى « محمد » فى القسم الأسفل ، وبينهما كلمة « رسول » . والدعوة التى وجهت الى المقوقس - وهى محفوظة إلى الآن - تثبت صحة ذلك . وفى نفس السنة - السنة السابعة للهجرة - خرج النبى وفاقاً لشروط صلح الحديبية فى عمرة إلى الكعبة ، وعاد فى نفس السنة من بقى من المسلمين بالحبشة .

Digitized by Birzeit University Library

الفصل الثانى والعشرون

فتح مكة

« لاتثريب عليكم اليوم ، يغفر
الله لكم وهوأرحم الراحمين ،

نقض عهد الحديبية

بلغت عداوة قريش نهايتها القصوى، وكانت السنة الثامنة للهجرة قدأوشكت على أن تنصرم، وكان صلح الحديبية لازال قائماً ، من عامين تقريباً ، وثبت أن السلام فى مصلحة الاسلام . ومن دواعى نموه وانتشاره ، فكرهت قريش ذلك ، وما اطمأنت إليه ، فنقضت صلح الحديبية ، فقد دخلت قبيلة بنى خزاعة فى عهد محمد ، وهذا يجيزه عهد الحديبية ، ودخل أعداؤهم اللد بنو بكر فى عهد قريش . وفى ليلة ما، كانت خزاعة على ماء لهم، إذ فاجأتهم بنوبكر ، وحرضهم على ذلك جماعة من قريش ، وأمدوهم بالسلاح ، فاعتصم بنو خزاعة بالكعبة حيث لاقتال ، حسب التقاليد المرعية ، ولكنهم لم ينجوا من الإيذاء ، فى ذلك المكان الحرام ، وقتل منهم كثيرون ، وبدلا من أن تمنع قريش حلفاءها من الاعتداء ، ساعدتهم ، وهذه المساعدة نقض صريح لعهد الحديبية ، فغدا وفد من بنى خزاعة متوجهاً إلى المدينة يستنصر النبى ، فأرسل النبى إلى قريش يطلب منها إحدى ثلاث :

١ — إما دفع فدية من قتل من بنى خزاعة

٢ — وإما التخلى عن حلفائهم بنى بكر

٣ — وإما بطلان عهد الحديبية

Digitized by Birzeit University Library

فجاء رد قريش بقبول « الشرط الثالث » وهو بطلان عهد الحديبية، ولكن حدث بعد ذلك أن رأى أبو سفيان فى نقض صلح الحديبية خطرا يهدد مكة المقدسة، فخرج إلى المدينة ليثبت العقد، وليزيد فى مدته، ولكن النبى فطن إلى مخاتلته، ورفض تجديد العهد.

الاستعداد للهجوم على مكة

أمر النبى باتخاذ الاستعدادات للقيام بحملة إلى مكة، وأرسل إلى المسلمين فى أنحاء شبه الجزيرة، ليكونوا على أهبة لإجابة ندائه؛ لقد عذبت قريش المسلمين مدى واحد وعشرين عاما عذاباً رهيباً قاسياً، وقد هاجموا المدينة مرات بقصد إبادة المسلمين والقضاء على الاسلام، وها قد سنحت الفرصة لتأديب المعتدين الآثمين، وبلغ الاستعداد نهايته، وبينما كان الجيش يوشك أن يسير كتب حاطب بن أبى بلتعة كتابا أعطاه امرأة من مكة مولاة لبعض بنى عبد المطلب ليقفوا على ما أعد محمد لهم، وكان حاطب من كبار المسلمين، ولو قدر لهذه الرسالة أن تصل إلى قريش لاستعدوا لمقاومة المسلمين، ولكن شاءت إرادة الله أن يتم الفتح العظيم، دون إراقة دماء، فما لبث محمد أن أعلم بالأمر، فبعث عليا والزبير فى أثرها، وأخرجا الكتاب منها ورداها الى المدينة. وحدث اضطراب عظيم بين المسلمين فى أمر حاطب الذى حاول خيانة المسلمين، فاستدعاه النبى، وكان من حسن حظه أن قضية خيانته لم تكن تنظر أمام ملك دنيوى، أو قائد من قواد الجيوش، وإلا كان مصيره الموت من فوره، ولكن النبى قبل عذره، وعفا عنه.

عشرة آلاف من الأبرار

خرج النبى على رأس عشرة آلاف من المؤمنين إلى مكة، فى العاشر من رمضان، سنة ثمان للهجرة، وهكذا تحققت كلمة الله التى نطق بها موسى منذ ألفى عام: «جاء ومعه عشرة آلاف من الأبرار» (تثنية الاشتراع ٣٣: ٢) ولم تتحقق هذه النبوءة

Digitized by Birzeit University Library

إلا فى هذا الحادث فقط ، فلم يشر التاريخ إلى حادث آخر مماثل منذ قالها موسى عليه السلام ، فيالها أعجوبة خارقة ! كان عدد المسلمين الذين خرجوا مع النبي عشرة آلاف ، وكلهم من الأبرار ، لم يكن هدفهم القتال وإراقة الدماء ، بل نشر الخير والسلام . وإن جادوا بدمائهم فى سبيل ذلك ، نزلوا « مر الظهران » على مسيرة يوم واحد من مكة ، وصدرت الأوامر بأن توقد النيران فى المعسكر جميعه ، ليدب الرعب فى قلوب قريش ، فيستسلموا ، فيدخل النبي مكة من غير أن يسفك دماء ، وتظل مكة حراما كما كانت ، وكما ينبغي أن تكون . وقد كان ، فاستسلم أهل مكة ودخل النبي مكة البلد الحرام بلا مقاومة .

اعتناق أبي سفيان الاسلام

وجيء بزعماء قريش إلى النبي ، وعلى رأسهم أبو سفيان ، وقد ولى أمرهم بعد أبي جهل . قدم إليه أبو سفيان الذى لم يدع فرصة واحده تمر لإيذاء المسلمين ، إلا انتهزها ، فعفا النبي عنه ! أى والله عفا عنه ! إن ذلك يبدو عجيباً ، ولكن النبي الذى جبل على الخير ، ما كان ليفرق فى معاملته بين صديق وعدو ، فعفا عنه . إنه ليبدو أن الإسلام قد عرف طريقه إلى قلب أبي سفيان من عام ونصف عام ، يوم أدلى بشهادته الطيبة فى محمد ، لما استدعى إلى بلاط قيصر الروم ، ليسأل عما يعرفه عن ذلك الذى يدعو القيصر إلى دين جديد ، إن جميع الحوادث علمته أن النصر النهائي للاسلام ، وأنه دين الحق ، فتفتح ذلك القلب الذى ظل موصداً عشرين عاما فى وجه الإسلام ، للحق المبين ، ودخل أبو سفيان فى دين الله .

عفو عام

انزعج أبو سفيان لما رأى محمداً وجيشه ، فقابل النبي وأسلم ، وذهب صائحاً فى مكة : « يامعشر قريش ، قد جاءكم محمد بما لا قبل لكم به ، ومن دخل المسجد الحرام فهو آمن ،

Digitized by Birzeit University Library

ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن دخل داره فهو آمن . وهذا يخيب فأل النقاد الذين يصمون الإسلام بأنه دين السيف ، فما كان بين شروط الأمان جبر المشركين على الدخول في الإسلام . تقدم المسلمون إلى المدينة ، وقد أمر النبي أن يفرق الجيش أربع فرق ، وأمرها جميعاً ألا تقاتل ، وألا تسفك دما ، وكان سعد بن عبادة على فرقة منها . فلما مر سعد على أبي سفيان صاح : «اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الحرمة» فلم يسر النبي لقوله ، وأخذ الراية منه ، ودفعها إلى ابنه حقناً للدماء .

عكرمة يهاجم خالد

كان على خالد أن يدخل من حي يسكنه أشد قريش عداوة لمحمد ، وهم من اشتركوا في الهجوم على خزاعة ، وكان بينهم عكرمة بن أبي جهل ، وعلى الرغم من إعلان العفو العام لجميع الناس ، فإنهم لم يدعوا خالد يدخل ، وأمطروا جيشه نبالهم ، فاضطر خالد إلى تفريقهم ، وقتل من رجاله رجلان ، وفقدت قريش ثلاثة عشر رجلا . وفيما كان محمد يرقى مرتفعاً لينزل منه إلى مكة ، بصر بسيوف رجال خالد تعمل في رقاب أهل مكة ، فصاح مغضباً بذكر أمره ألا يكون قتال ، واستدعى خالدا ، فلما علم بما كان ، ذكر أن الخير فيما اختاره الله .

تطهير الكعبة من الأصنام

وانطلق النبي إلى الكعبة ، وطهرها من أصنام الوثنية . وراح يطعنها بعود في يده ، ويقول: «جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا» ومنذ هذه اللحظة ، ما وجدت صورة أو صنم طريقها إلى البيت الحرام ، فقد أصبح لعبادة الواحد الأحد . وذهب إلى مقام إبرهيم فصلى ركعتين ، وأرسل إلى عثمان بن طلحة حامل مفاتيح الكعبة ، وفتح البيت ، وصلى النبي هناك أيضاً ، وأعيدت المفاتيح إلى عثمان ، وقيل له إن حراسة البيت له ولأولاده من بعده .

Digitized by Birzeit University Library

شهامة لانظير لها في التاريخ

وخطب النبي الناس، وحثهم على عبادة الله وحده، وحضهم على التآخي، وجمع قريشاً فيما بعد، فمثلوا بين يديه، مثول المجرم الأثيم، هؤلاء الذين أذاقوا المسلمين ألوان العذاب، وأراقوا دماءهم، كأنما أرض مكة كانت تدعوهم أن يروووها بدماء المسلمين، هؤلاء الذين ساموهم ألوان الاضطهاد، وأوقعوا بهم صنوف التنكيل، دون أن تأخذهم رأفة أو شفقة، أو يمنعهم عرف أو قانون؛ هؤلاء الذين اقتفوا أثرهم، وتعقبوهم حتى يثرب، ليصبوا عليهم جام غضبهم؛ هؤلاء الذين هاجموهم مراراً للقضاء عليهم، واستئصال شأفتهم، هؤلاء المجرمون الذين ابوا إلا نزع بذور الحقوق الإنسانية؛ ماثلون أمام النبي؛ ينتظرون جزاءهم؛ إنهم يستحقون العقاب الرادع الزاجر، بمقتضى أرحم القوانين، ليكونوا عبرة ومثلا، إن أخف عقاب هو ضرب رقاب زعمائهم، واعتقال بعضهم، ليرتدع غيرهم، وإن أحدث قانون يطبق على هؤلاء الجناة، يحكم بتوقيع الجزاء الصارم الرادع، على الجناة وغير الجناة، ليكونوا عبرة، وأسر الباقين، هذا هو حكم الغالب على المغلوب، وهذا مانطبقه في مدنيتنا الحديثة المعاصرة، لأن حب الانتقام، والأخذ بالثأر، غريزة قوية متأصلة في الإنسان، إن العدو تحت رحمة المنتصر، فمن يمنعه منه، أو يحول دونه، ولكن قريشاً كانت على ثقة بنبل النبي ورحمته، فكانوا لايتوقعون أن ينزل بهم عقاباً صارماً، فلما سألهم: «يامعشر قريش، ماترون أني فاعل بكم؟» قالوا: «خيراً. أخ كريم، وابن أخ كريم». لم يكن كرم النبي وتسامحه بغريب عليهم، كانوا على ثقة من سمو أخلاقه، وكريم خصاله، التي عرف بها من أربعين سنة خلت، قبل أن ينزل عليه الوحي، ولكن مانطق به تجاوز المأمول، قال: «اذهبوا. فأنتم الطلقاء» فياله من كرم! وياله من تسامح كريم!

Digitized by Birzeit University Library

لاعقاب ، ولاتثريب ، صفح النبي عن كل ماتقدم من أعمالهم الرهيبة ، وما اشترط عليهم شرطاً للمستقبل ، ولم يسترد منهم حتى ممتلكات المهاجرين التي استولوا عليها عقب هجرتهم ، وطلب من المهاجرين أن يتنازلوا لهم عن جميع حقوقهم .

هاجم عكرمة جنود خالد ، فلما استتب الأمر لمحمد ، فر عكرمة ، وجاءت زوجه إلى محمد باكية ، واستأمنت له؛ فأمنه ، وعفا محمد عن عكرمة الأثيم ، فياله من كرم !.

وشملت رحمته وحشيا الذي قتل حمزة ، وهنداً التي لاكت كبده ، فعفا عنها ، وصفح عمن صفع ابنته وهي في طريقها من مكة إلى المدينة صفعة كانت السبب في القضاء عليها ، فلن تجد في تاريخ العالم كله ما يماثل هذا التسامح الكريم ، ولن تجد في حياة إنسان آخر مثل هذا الغفران النبيل ؛ فما سنحت له فرص التسامح والعفو إلا سامح وعفا ، على الرغم من أن يديه القوة لمعاقبة معذبيه .

أهل مكة يدخلون في دين الله راغبين

فتحت مكة ، واستولى المسلمون عليها ، ولكن هناك فتحاً آخر أعظم وأجل من أن تصل إليه أسلحة المسلمين ، ذلك النصر المبين الذي تم عقب العفو العام عن المكيين ، فقد أثرت سماحة النبي في نفوس الناس ، وداعبت أوتار القلوب ، فلانت أفئدة ما كانت لتلين ، قد تأثر أبو سفيان ، ومن على شاكلته من قساة القلوب ؛ بمبادىء الاسلام القويمة السامية ، وقضت نبالة المسلمين وكرم أخلاقهم على جميع أسلحة قريش ، وأودت بمعارضتهم ، ورأت قريش رأى العين أن وعود السماء جميعها التي وعدها المسلمون أيام الشدة والضيق ، قد تحققت جميعها ، وانتشر الاسلام ، وضعفت المقاومة حتى أصبحت أو هي من أن تنال منه ، وهذا دليل جديد على

Digitized by Birzeit University Library

صدق الرسالة المحمدية ؛ فزال آخر ما كان يعلق بقلوب المشركين من شك ، ودخلوا فى دين الله ، والآن ويجتاز الإسلام مرة أخرى محنة عظمى ، ويرقب أعداؤه فناءه : وقد تكاتفت جهود العالم ضده ، يبدو أن مشيئة الله ستتجلى مرة ثانية ، لتثبت للعالم أن يد البشر أعجز من أن تمحو حقيقة أنزلها الله وأيدها ! . انتهت كل مقاومة فى مكة ، وتغلغل فى أفئدة أهلها ، وجلس النبي على جبل الصفا يتلقى وفود الداخلين فى دين الله ، وكانت النساء يتبعن أزواجهن ، فأسلم منهن عدد كبير . كان دخول الناس فى الإسلام عن طيب خاطر ، فلم يحدث أن أسلم أحد بالقوة ، أو الاكراه ، ورفض البعض دين الإسلام ، فما لاقوا أذى أو اضطهادا ، وظلوا فى ضلالهم يعمهون ، وعوملوا أطيب معاملة ، وكانوا على ود وصداقة بالمسلمين ، وإن أنصع دليل على ذلك ، أنهم حاربوا بجوار المسلمين لمادارت رحى الحرب فى حنين . وفتح مكة دليل قاطع ساطع على كذب دعوى أن الاسلام دين السيف ، فقد دخلوا فى دين الله دون إرهاب أو تهديد ، وإن اعترافات السير وليم موير فى هذا الخصوص تؤيد هذا ، يقول : «قبلت مكة سلطته بفرح وسرور عظيمين ، ولكن لم يقبل جميع السكان الدخول فى الدين الجديد ، وبقى نفر منهم لا يعترف بنبوته ، فتركهم ولم يضغط عليهم ، وهو يأمل أن يهتدوا تدريجياً — كما حدث فى المدينة — دون ضغط أو إرهاق » .

Digitized by Birzeit University Library

الفصل الثالث والعشرون

غزوة حنين

« ولقد نصركم الله فى مواطن كثيرة . ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم ، فلم تغن عنكم شيئاً ، وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ، ثم وليتم مدبرين » .

هوزان تضمر العداوة

لم ينقض شهر على مغادرة النبى للمدينة ، حتى ترامت إليه الأخبار أن قبيلة هوازن النازلة شرق مكة تحشد رجالها ، وتستعد لهجوم مفاجىء على المسلمين ، وذلك لقلقها المتزايد من زيادة عدد المسلمين ، لا سيما بعد توقيع صلح الحديبية ، وقد كانوا يعملون - من قبل فتح مكة بزمن طويل - على إثارة مختلف قبائل العرب ضد الإسلام ، أما وقد فتحت مكة ، فقد أصبح لزاماً عليهم أن يوجهوا إلى الإسلام ضربة قاتلة ، قبل أن يستفحل أمره . ويصبح من المحال القضاء عليه ، وهم رجال حرب بطبيعتهم ، فما كانوا يحتاجون لأكثر من أيام معدودات لحشد جيش كبير . ترامت إلى النبى أخبارهم ، فأوفد من يتبين الأمر ، وعاد لرسول يؤيد الخبر ، فأمر النبى على التو بتجهيز جيش قوى لسحق هوازن ، وسرعان ما التف عشرة آلاف من المسلمين حول العلم وانضم إليهم ألفان من أهل مكة ، فاجتمع لهم اثنا عشر ألف مقاتل ، ساروا وعلى رأسهم النبى إلى وادى حنين حيث احتشدت جنود هوازن . وقد أمدت مكة المسلمين بكميات وافرة من السلاح والعتاد بجانب الألفين من المقاتلين .

Digitized by Birzeit University Library

التقهقر والالتئام ثانية

كانت هوازن حاذقة فى الرماية بالسهام والنبال ، يضاف إلى هذا أنها احتلت المراكز الممتازة كلها ، وقد وزعت زهرة رماتها فوق التلال والمرتفعات ، واضطر المسلمون إلى النزول بالمراكز غير الملائمة ، فكانت السهام تنزل عليهم من كل صوب وحدب أشبه بالمطر ، بينما تقدمت ساقة هوازن لمهاجمة قلب جيش المسلمين ، والتقى الجمعان وجهاً لوجه ، وكانت طليعة المسلمين تحت إمرة خالد بن الوليد ، وهى مكونة من المكيين وفيهم غير المسلمين . فكانوا أول من خاض غمار المعركة ، ولكنهم لم يتحملوا عنف القتال المرير فتقهقروا ، وأدى تقهقرهم إلى اضطراب النظام بين صفوف المسلمين ، فارتدوا جميعاً فى غير نظام ، وتقهقرت فيالق المهاجرين والأنصار هى الأخرى ، وبقى النبى ومعه عمه العباس وفئة قليلة من المقاتلين وحدهم فى العراء عرضة لسهام المهاجمين المحتشدين . رأى النبي جيش المسلمين يرتد فثبت فى مركزه المحفوف بالخطر فى رباطة جأش تدعو إلى الإعجاب الشديد . كان العدو يتقدم فى سرعة خاطفة ، وكاد يكون بمفرده ، ولكن ذلك لم يؤثر فيه أى تأثير . ألم يكن فى أمان ، ترعاه عناية الله العلى القدير ؟ . نفس الشعور الذى لا يخونه ، والثقة التى لا حد لها فى معونة الله والإيمان بالنصر النهائى لقضيته . بقى وحده فى الميدان وعاصفة العدو تدوى من حوله ونادى بأعلى صوته « أنا النبى لا كذب . أنا ابن عبد المطلب » وصرخ العباس بصوته الجهورى « يا معشر الأنصار الذين آووا ونصروا ، يا معشر المهاجرين الذين بايعوا تحت الشجرة . إن محمداً حى فهلموا » وكرر العباس النداء حتى تجاوبت فى كل جنبات الوادى أصداؤه . وأجاب المسلمون من كل جانب : لبيك ! لبيك ! وعادت جموعهم تلتئم من جديد . وترجل نفر منهم عن أفراسهم وجمالهم

Digitized by Birzeit University Library

وشدوا على العدو بعنف وجرأة ، فلم يستطع العدو الثبات فى وجههم وأخذ فريق منه فى الفرار ، وبقى نفر آخر يقاوم وقتا ما : ولكن عند ما سقط حامل اللواء ، ولوا جميعاً الأدبار .

الجيش المهزوم يعتصم بالطائف

عند ما اعتزمت هوازن الخروج للقتال أمر كبيرها مالك - وهو فتى متهور فى الثلاثين من عمره - أن يخرج النساء والأطفال مع الجيش ، ظاناً أن وجود هؤلاء يكون مشجعاً ومثيراً لعواطف رجاله ، وحاثاً لهم ، إن دارت الدائرة على ألا يتقهقروا ويولوا أعقابهم . ولكن لما أزفت الساعة الرهيبة تركوا وراءهم كل شىء : النساء والأطفال والغنم ، فوقع فى يد المسلمين أربعة وعشرون ألف رأس من الغنم ، وأربع آلاف أوقية من الفضة ، غير ستة آلاف أسير . وبعد أن وضع المسلمون غنائمهم فى مكان حريز ، أخذوا فى السير للحاق بعدوهم المتقهقر ، وقد احتمى فريق منه فى قلعتهم فى أوطاس ، فأوفد إليهم النبى سرية من المسلمين لتشتيتهم ، بينما احتمت ساقتهم بأسوار الطائف المحصنة تحصيناً متيناً مسلحاً . كانوا رجال حرب محنكين خبيرين بالأسلحة الحديثة كالمنجنيق ، وكانوا قد اختزنوا مؤونة عام كامل داخل الأسوار ، وأقاموا عليها حراسة وفيرة العدد ، ووزعوا حامياتهم حول أسوار المدينة ، فخف النبى إلى حصونهم وضرب الحصار عليها ، وقد استعان المسلمون بالأسلحة الحديثة التى أمدتهم بها بعض القبائل الأخرى ، وثقل الحصار عليهم جميعاً فجمع النبى أصحابه للمشورة . واقترح أحد الشيوخ المحنكين تركهم وشأنهم ، فقد عاد الذئب إلى جحره وليس من الهين اصطياده ، خصوصاً وأن المسلمين ما خرجوا إلا لدفع العدوان ، وهاهو العدو أعجز من أن يضر بهم ، فأمر النبى برفع الحصار إذ لم يكن للمسلمين من هدف سوى إبعاد الخطر . وقد كان . وفى

Digitized by Birzeit University Library

طريق عودتهم طلب بعضهم من النبي ، فى نفس المكان الذى قذف فيه بالحجارة من قبل ، أن يستنزل غضب الله على الأعداء . ولكنه بدلا من أن يلعنهم ويستنزل عليهم غضب ربه ، أخذ يصلى ويتضرع من أجلهم . ويبتهل إلى الله أن يهدى ثقيفاً إلى الإسلام ، وأن تنضم إلى لواء النبي . وقبل الله دعاءه ، فلم ينقض وقت طويل حتى دخل الجميع فى دين الله أفواجاً ، طوعاً ، ومن تلقاء أنفسهم .

أخت النبي من الرضاع

عقب عودة النبي من الطائف وزع الغنائم على المسلمين جميعاً ، كبيرهم وصغيرهم ، واحتفظ كالعادة بالخمس لبيت المال . وكان من بين الأسرى أخته فى الرضاع (شيمة) ، فلما مثلت بين يديه عرفها ، ومد لها رداءه لتجلس عليه ، وأبدى نحوها من ضروب العطف والاحترام الشيء الكثير . لم تكن (شيمة) أخته بالفعل ، ولكنه ما كان ليكرم شقيقته بأكثر مما أكرم (شيمة) ، وألح عليها أن تأتى معه إلى المدينة ، ولكنها فضلت البقاء بين ذوى قرباها ، فشيعها بالهدايا الثمينة .

وتقدم وفد من الطائف إلى النبي يطلب إخلاء سبيل الأسرى ، وتكلم رئيسهم فشرح بلواهم ومصابهم ، وإنى لأتخيل رد الفاتح المنتصر فى عصرنا هذا ، عصر المدنية ، ولا أظنه يخرج عن دائرة هذا القول « إننى لا أنكر أنكم فى حال لا تسر ؛ بلاء ومصاب ، ولكن هلا فكرتم فى كل هذا قبل الشروع فى مهاجمتنا ؟ ولو أنكم كنتم المنتصرين لعاملتمونا بما هو أسوأ من هذا ! أليس هذا هو الرد المثالى المنتظر . ألم يجر العرف فى عصرنا المتمدين أن نرفض جميع طلبات المغلوب ؟ ولكن النبي كان من معدن آخر جبل على الرحمة والتسامى ، وليس لرحمته من حد . وكان طمعهم فى غفرانه أشد وأقوى من طمعهم فى أى مخلوق آخر من عباد الله

Digitized by Birzeit University Library

كان قلبه يذوب أسى لمنظار الآلام ، فكيف به الآن وهو يستمع إلى شكاية آلاف المغلوبين . لقد أمر أن يطلق فى الحال سراح جميع من وقعوا فى أسره الخاص ، والذين فى أسر أسرته ، وتنحى عن التدخل فى شؤون الأفراد الذين لهم مطلق الحرية فى التصرف فى نصيبهم من الاسلاب ، وترك لهم الفدية كيفما شاءوا . ياله من مثل رائع ، فى احترام حقوق الناس ، ولا شك أن هؤلاء الذين ضحوا بثرواتهم ، وممتلكاتهم ، بل وحياتهم ، عن طيب خاطر ، وبكل سرور حبا فيه ، ما كانوا ليراجعوه لو أراد إطلاق سراح جميع الأسرى . ولكنها المساواة فى الحقوق ، وما كان للنبى الذى أرسل لإحقاق الحق ، ونشر العدل والمساواة ، أن يكون هو المعتدى على هذه المبادىء السامية ، فليس لملك أو سيد فى الإسلام حق على الملكية الشخصية لرعاياه ، ولكن كان قلب النبى يأسى لهؤلاء المغلوبين على أمرهم ، وكان يود لو أمكنه مد يده إليهم فى محنتهم ، فقال لهم : «إذا ما أنا صليت الظهر بالناس فقوموا ، فقولوا : إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين ، وبالمسلمين إلى رسول الله فى أبنائنا ونسائنا ، فأعطيكم عند ذلك ، وأسأل لكم» . ونفذت هوازن قول النبى ، فقال المسلمون : «وما كان لنا ، فهو لرسول الله» وأطلق سراح ستة آلاف أسير ، ستة آلاف وثنى ، من عبدة الأصنام ، بفضل تدخل النبى ، إن هذا لا نظير له فى تاريخ البشرية قطعا !

حسن معاملة النبى لأتباعه

تم توزيع الأسلاب ، وأعطى محمد سادات قريش من مال الفىء ، فأدى ذلك إلى تهامس الأنصار ، وجعلوا يتحدثون بعضهم إلى بعض فيما صنع الرسول ، ويقول بعضهم لبعض « لقى والله رسول الله قومه ، فما يفعله عاهل مطلق عند ما

تبلغه هذه المقالة ؟ لا بد أن يأخذهم بالشدة ، ولكن النبي استدعى أنصاره ، وقال لهم فى رفق : « يامعشر الأنصار ، ماقالة بلغتنى عنكم ، وجدة وجدتموها فى أنفسكم ؟» فقال الأنصار ، وقد ربوا فى كنف النبي ، الذى بث فيهم الشجاعة والإقدام: « منا من يقول هذا ، ونحن نؤيده »، فقال النبي : « ألم آتكم ضلالا ، فهداكم الله ، وعالة فأغناكم الله ، وأعداء فألف الله بين قلوبكم ، فقال الأنصار : « بلى ، والله ورسوله أمن وأفضل »، فقال النبي : « ألا تجيبونى يامعشر الأنصار ! » فقالوا : « بم نجيبك يارسول الله ، لله ورسوله المن والفضل» فقال النبي : « أما والله لو شئتم لقلتم ، ولصدقتم ولصدقتم : أتيتنا مكذباً فصدقناك ، ومخذولا فنصرناك ، وطريداً فآويناك ، وعائلا فآسيناك . أوجدتم يا معشر الأنصار فى العلالة من الدنيا تألفت بها قوما ليسلموا ، ووكلتكم إلى إسلامكم ! ألا ترضون يامعشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير ، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم ؛ فوالذى نفس محمد بيده ، لولا الهجرة لكنت امرءا من الأنصار ، ولو سلك الناس شعبا ، وسلك الأنصار شعبا ، لسلكت شعب الأنصار » .

كشف هذا التصريح الشافى عن دخيلة نفسه ، فما كان النبي يعنى بشئون المادة ، ولا يقيم للمال وزنا ، فاهتزت أفئدة الأنصار ، وغامت عيونهم بالدمع ، ثم انهمرت فرحا ، سيعود النبي معهم ، فهم به أغنى الناس .

Digitized by Birzeit University Library

الفصل الرابع والعشرون

انتشار الاسلام فى بلاد العرب

« هو الذى أرسل رسوله بالهـــدى
ودين الحق ليظهره على الدين كلـــه »

اعتمر النبى بمكة ، عند قفوله راجعاً من الطائف ، فى شهر ذى القعدة ، من السنة الثامنة للهجرة ، وعاد إلى المدينة فى نهاية العام .

تأثير سقوط مكة فى عقلية العرب

كانت مكة تعرف بأم القرى ، وعلى الرغم من أنها لم تكن حاضرة الولاية ، فإن مركزها الدينى ، كان يجعلها ذات سيادة على الولايات العربية جميعها ، فكانت الوفود تأتيها فى موسم الحج ، عاما بعد عام ، من أنحاء الجزيرة ، فكان لأهل مكة نفوذ وتأثير عظيمان فى القبائل التى تدين لقريش بزعامتها الروحية ، فكان النبى كلما عرض نفسه على قبائل العرب فى موسم الحج ، يقابل بقولهم : « أقنع قومك أولا » ، فكان لسقوط مكة ، ودخول أهلها فى دين الله ، تأثير فى سكان بلاد العرب جميعا . وفضلا عن ذلك ، رأوا بأعينهم ، كيف انتصر النبى ، وهو وحيد ، فى آخر الأمر ، على الرغم من كل معارضة ومقاومة ، فحصحص الحق ، ودخل الناس فى دين الله . كان هذا هو سبب انتشار الإسلام فى السنة التاسعة والعاشرة للهجرة ، فى جميع الولايات العربية ، وقد بدأ هذا الظفر العظيم فى السنة التاسعة ، عند ما أخذت القبائل تدين بالإسلام ، الواحدة تلو الأخرى ، وجمع النبى فى نفس السنة الزكاة من القبائل التى أسلمت ، وتكونت لذلك إدارة خاصة

Digitized by Birzeit University Library

وأرسل رسله إلى مختلف الجهات لجمعها ، والزكاة فرض على كل مسلم ، وهي مورد بيت المال الأول ، وكانت الإدارة المركزية تشرف عليها .

إسلام بنى تميم

ظاهر بنو تميم النبي فى غزوة حنين ، وأرسلوا وفداً من أشرافهم إلى المدينة ، وقالوا له « إنا جئنا نفاخرك ، فأذن لشاعرنا وخطيبنا ، فقام خطيبهم وشاعرهم ، وقام خطيب المسلمين وشاعرهم ، فلما انتهت المفاخرة ، قال أحد بنى تميم : « وأبى إن هذا الرجل لمرتى له ، لخطيبه أخطب من خطيبنا ، ولشاعره أشعر من شاعرنا ، ولأصواتهم أعلى من أصواتنا » فكان لهذا الجدال أثره فى قلوب بنى تميم ، أضف إلى ذلك أنهم بطول احتكاكهم بالمسلمين ، قد أعجبتهم خصالهم النبيلة ، فدخلوا فى دين الله ، وبالاختصار كان الإسلام ينتشر دواما ، ويسير قدما ، وما وقفت أمامه إلا عقبة واحدة ، هى الحزازات القديمة ، فإذا ما انتفت هذه الحزازات ، كان باب الإسلام مفتوحا أمام الجميع يدخلونه بسلام آمنين .

مشكلة بنى طيء وابنة حاتم الطائى :

أظهرت طيء ، فى هذه الأثناء ، كراهية شديدة للإسلام ، فسير النبي علياً إليهم على رأس مائتى فارس لاخضاعهم ، وهدم صنم طيء فهدم على الصنم ، واحتمل الغنائم والأسرى ، وكانت ابنة حاتم الطائى الذى اشتهر بكرمه ، بين الأسرى ، فحبست مع الأسرى فى حظيرة بباب المسجد ، فلما علم النبي ذلك ، أرسل فى طلبها ، وشاء أن يطلق سراحها ، وأن تشيع بما هى أهل له ، ولكنها لم تشأ أن يطلق سراحها وحدها ، بل فضلت أن تذوق ذل الأسر مع الأخريات ، على أن تتنسم نسيم الحرية وحدها ، فالتمست إطلاق سراح الأخريات ، فأجيبت إلى طلبها ، وأطلق سراح الجميع . أما أخوها الذى فر إلى سورية ، فإنها سافرت خلفه ، وقصت عليه كرم النبي ، فعاد وأعلن إسلامه ، فأعاد النبي إليه سيادة قبيلته .

Digitized by Birzeit University Library

كعب بن زهير وقصيدته

وكان كعب بن زهير الشاعر المعروف من أعداء الإسلام ، وكان يهجو النبي ، فلما رأى عفوه عن أعدائه ، أسرع إلى المدينة ، واستأمنه وأنشده قصيدته ، بانت سعاد التي خلدت اسم مؤلفها ، فعفا النبي عنه ، ومنحه بردته .

وفود القبائل على النبي

أصبح الإسلام شيئاً مألوفا ، محبوبا ، في جزيرة العرب ، وعلم الجميع أن الإسلام قد ظهر ، وأصبحت كلمته هي العليا ، بعد ما حدث بين النبي وقريش ، وكانوا يرقبون الأمر بشغف شديد ، فلما رأوا انتصار الإسلام على الرغم من الأذى والاضطهاد والتعذيب ، وانتشار مبادئه الفاضلة ، وعبادة الله وحده ، وجهادهم ثماني سنوات بعد الهجرة جهاداً مضنياً مستمرا حتى حصحص الحق ، وزهق الباطل ، ولما رأوا نبوءات النبي التي قال فيها إن كل معارضة للإسلام سوف تنمحي قد تحققت ، أخذت القبائل تفد على المدينة من كل حدب وصوب ، فكان النبي يحتفي بها احتفاء كبيراً ، ويشرح لها فضائل الإسلام في رفق ، وكان يرسل معهم من يفقههم في دينهم . وفدت على النبي وفود من بلاد بعيدة في السنة التاسعة ، كوفود اليمن ، وحضرموت ، والبحرين ، وعمان ، وسورية . يا للعجب ، تفد الوفود طائعة مختارة ، ثم يقال إن الإسلام ما انتشر إلا بحد السيف . فأين السيف الآن ؟ إن الشيء الثابت أن الإسلام بقي ثابتاً طوال الحروب ، فلما رفرف السلام على جزيرة العرب ، عظم دخول الناس فيه ، كأنما هناك يد خفية قوية ، تدفع هذه الجموع الزاخرة إلى طاعة الإسلام ، والدخول فيه . وما حدث أن جردت حملة واحدة على هذه البلاد ، التي جاءت الوفود منها تسعى إلى النبي ؛ ومع ذلك شوهت الحقائق ، وأبدل الحق بالباطل ، فما لاشك فيه أن الاسلام ما انتشر إلا والأمن مستتب ، وقد دخل الناس فيه فرحين مختارين .

Digitized by Birzeit University Library

الفصل الخامس والعشرون

غزوة تبوك

«لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً
«لاتبعوك ، ولكن بعدت عليهم الشقة»

عطف المسلمين على أهل الكتاب

كان لظهور الإسلام الموفق ، فى جزيرة العرب ، أثر عكسى فى الأمبراطورية الرومانية المسيحية ، فقد أثار قلقها ، وجعلها تنظر بعين الغيرة والحسد إلى هذا النمو المطرد السريع ، والنجاح الباهر . كان المسلمون يعطفون على أهل الكتاب ، من يهود ونصارى ، وكانوا يتمنون انتصارهم على الوثنيين من عبدة الأصنام ، فلما كانت جحافل الفرس المجوسيين تكتسح ممتلكات الدولة الرومانية المسيحية ، فى آسيا ومصر ، ولما وقفت تدق أبواب بيزنطة ، عاصمة الإمبراطورية ، ولما لاحت الساعة الرهيبة ، ساعة انهيار الدولة الرومانية ، نزل الوحى مؤكداً انتصار الرومان فى النهاية : «المغلبت الروم ، فى أدنى الأرض ، وهم من بعد غلبهم سيغلبون ، فى بضع سنين . . . ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله» وقد تحققت النبوءة ، ففى عام بدر ، انتصر المسلمون ، واستعاد الروم مافقدوه من ممالك ، بل اجتاحوا بلاد الفرس أعدائهم اللدّ .

خطر داهم على حدود سوريا

وعلى الرغم من عطف المسلمين على الدولة الرومانية ، فما كانت لتستطيع السكوت على اطراد انتشار الاسلام ، وقد وقعت بينهما معركة فى مؤتة ، ولما

Digitized by Birzeit University Library

بلغ الدولة الرومانية أن جزيرة العرب كلها قد دانت للإسلام ، ثارت الغيرة الدينية ، وأصابهم حزن ثقيل ، فقد كانوا يمنون النفس بتنصير شبه جزيره العرب كلها ، فعقدوا العزم على محاربة المسلمين لوقف الإسلام الزاحف فى كل مكان ، واتصل بمحمد نبأ من بلاد الروم أنها تهيء جيوشاً لغزو حدود العرب ، لتنسى الناس ذكر العرب وسلطان المسلمين ، وأن قبائل العرب المسيحية قد انضمت إلى الروم ، فعمل النبي على تجهيز حملة ليسيرها إلى حدود سورية ، وقد أمر القرآن بتحصين الحدود احتياطاً من الهجوم المفاجيء ؛ ولما كان النبي يقظاً دائماً ، فإنه لم يهمل أمر قيصر الروم بالقضاء على الإسلام ، بل أخذ الأمر عدته .

السير إلى الحدود الشمالية

لما كان أفضل وسائل الدفاع ، هو منع العدو من دخول بلاد العرب ، أرسل النبي الحملة إلى الحدود ، واستنفر النبي جميع القبائل للذود عن ديارهم ، فقد كان خطر الغزو يهدد بلاد العرب جميعها ، وما كان الأمر هيناً ميسوراً ، فالطريق إلى الحدود طويلة منهكة ، والجو حار ، شديد الحرارة ، والحبوب قد نضجت وحان حصادها ، وفوق ذلك كله ، اشتد الخوف من ملاقاة قوات قيصر المدربة ، المنظمة . فدب الذعر فى قلوب الكثيرين : وزاد الأمر صعوبة تعذر القيام بهذه الرحلة الطويلة سيراً على الأقدام ، وتعذر تجهيز جميع المسلمين وشراء رواحل لهم ، وما كان فى مقدور النبي تجهيز هذا الجيش ، فتبرع عثمان بن عفان بألف بعير ، وعشرة آلاف دينار لتجهيز الحملة ، فتم تجهيز جيش عدته ٣٠ ألف مقاتل ، وخرج الجيش من المدينة فى شهر رجب من السنة التاسعة للهجرة .

Digitized by Birzeit University Library

جيش المسلمين في تبوك

تقع تبوك فى منتصف الطريق بين المدينة ودمشق ، على مسيرة أربعة عشر يوما من المدينة ، ونزل المسلمون بها ، فى انتظار الأنباء عن العدو ، وقد انضم إلى المسلمين كثير من القبائل التى مروا بها ، فزاد عددهم ، وفت ذلك فى عضد قبائل غسان ، ولخم ، وجذام ، وتذكروا ما فعل المسلمون يوم مؤتة ، يوم كان عددهم ثلاثة آلاف مقاتل ، فى عدوهم البالغ مائة ألف ، فآثروا الانسحاب ، وطرح قيصر الروم فكرة مهاجمة المسلمين ، فلما بلغ المسلمون الحدود ، وجدوا هدوءا وسلاما ، فلو كان النبى يعتمد على السيف وحده فى نشر رسالته ، فهل هناك فرصة أفضل من هذه ، إن تحت إمرته ثلاثين ألف مقاتل ، مجهزين خير جهاز ، لا ينقصهم شىء للانقضاض على عدوهم ، إنهم أسود كواسر ، والطريق واسعة خالية أمام صاحب الأطماع ، ولكن النبى لم يكن صاحب أطماع . ولم يسمع ، ولم يذكر التاريخ ، أن رجلا واحداً أسلم بفضل هذه الحملة العظيمة الهائلة ، فلو أن النبى كان يبغى التوسع الاستعمارى ، لكانت الفرصة الآن طيبة ، لقد قطع الفيافى والقفار ، قطع طريقاً طويلا قاسياً ، وتحمل جواً حاراً ، مضنياً مهلكا ، حتى وقف يدق أبواب ديار العدو ، ولكنه وجده لا يبغى نزالا ، ولا طعنا ، ولا يميل حتى إلى الدفاع عن نفسه . لو أنه شن هجوما خفيفا على سورية ، لضمن ملكا واسع الثراء ولكنه ما كان يطمع فى الاستعمار ، كما لم يكن ليطمع فى دخول الناس فى الإسلام ، وهم كارهون .

وعلى الرغم من تكاليف الحملة الباهظة ، قفل النبى راجعاً ، بعد أن استراح عشرين يوما ، وبعد أن اطمأن على الحدود ، رجع دون أن يعتدى

Digitized by Birzeit University Library

على أحد ، عاملا بنص الآية : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا » . ما كان العدو يريد قتالا ، فهل يعتدى النبى عليه ، وبرغمه على منازلته ؟ لا والله ، ما كان النبى من المعتدين . وكتب معاهدات مع بعض دويلات الشمال النصرانية ، وعاد بعد أن أمن بهذه المعاهدات الحدود الشمالية لجزيرة العرب .

الفصل السادس والعشرون

المنافقون

« إن نعف عن طائفة منكم
نعذب طائفة ، بأنهم كانوا مجرمين »

المنافقون فى المدينة

أكسبت الهجرة إلى المدينة النبى بعض الحرمة . ولكنها ضاعفت معارضته عشرات المرات ، فإنه لما كان بمكة أنزلت قريش بالمسلمين صنوف الاضطهاد ، ولكن ما هاجروا إلى المدينة ، حتى فكرت فى القضاء عليهم ، وقطع دابرهم ، وكان أغلب قبائل العرب يرقب ما يحدث ، فما انتشر الإسلام فى المدينة ، حتى تحركت البغضاء والغيرة فى نفوسهم ، وكان اليهود يظهرون عدم الاهتمام ، لما ظهر الإسلام فى مكة ، ولكن بعد استقراره فى يثرب ، وبعد مجاورته لهم ، لم يهدأ بالهم ، وتحركت البغضاء فى قلوبهم ، فناصبوا الإسلام العداء ، وظهرت طائفة جديدة من المعارضين ، بين المسلمين أنفسهم ، سميت بالمنافقين ، وما كان لهذه الطائفة الشجاعة الكافية للعمل سافرة ، فدخلوا فى الإسلام ، عازمين على تقويضه من الداخل ، وكان رأس المنافقين عبد الله بن أبى ، كانت له سطوة وعزة فى المدينة ، قبل هجرة النبى ، وكان الناس يفكرون فى جعله ملكا عليهم ، ولكن وجود النبى فى المدينة ، خسف شخصيته ، وحجبه حتى أصبح لا شىء ، فأبدى شيئاً من المعارضة فى بادىء الأمر ، ولكن نظراً لاشتداد ساعد الإسلام

Digitized by Birzeit University Library

سريعاً ، رأى أن النفاق خير سياسة له ، وهو أجدى من المقاومة الصريحة السافرة ، فتقنع بقناع الإسلام ، حتى اللحظة الأخيرة . من العام التاسع للهجرة ، فما ترك وسيلة لعرقلة الإسلام إلا طرقها ، إنه عدو خطر . فالعدو السافر من الممكن إحباط سعيه ، وأخذ الحذر منه ، أما ذلك الذى يرتدى ثياب الأصدقاء ، فهو الخطر المجسم ، يتودد إليك حتى تأمن جانبه ، فإذا ما حانت له الفرصة ، أخذك على غرة منك ، وهو فى مكان يسمح له بالاطلاع على ما تبطن ، وهذا مما يزيد فى خطره ؛ فهو على اتصال وثيق بالعدو ، يطلعه على جميع حركاتك وسكناتك . وقد قابل الإسلام ألوان المعارضة والخداع جميعها ، وعلى الرغم من كل هذا انتصر . وإن نصره لدليل على أن الله كان يرعاه ؛ وأنه ثبته فى وجه جميع العواصف والأخطار .

خطة المنافقين للنيل من المسلمين

بدا نفاق عبد الله بن أبى يوم أحد ، فإنه لما وثق من قوة قريش وعزمها على محق المسلمين ، تخلى هو ورجاله البالغون ثلاثمائة رجل عن محمد وصحبه ، وكان على يقين من أن تخليه هذا سيضعف المسلمين ، ويفت فى أعضادهم ، وهو مما يسهل عمل قريش . وزيادة على ذلك فإنه وعد بمناصرة بنى النضير فى حربهم للمسلمين ، وتخلى المنافقون عن الدفاع عن المدينة فى غزوة الأحزاب ، لما كان ٢٤ ألفاً من الأعداء يحاصرونها من كل جانب ، بحجة أن بيوتهم عورة ، وعرضة لهجمات العدو ، ومثل عبد الله بن أبى دور النفاق ثانية ، فقد حاول إثارة الفتنة بين المهاجرين والأنصار بلا جدوى ، فلما عادوا إلى المدينة من غزوتهم راح يروج حديث الإفك ، متهما عائشة الطاهرة فى عفافها ، لقد كان المنافقون يمنون النفس ، فى كل فرصة ، بالقضاء على الإسلام ، فكانوا يتحينون أوهى الفرص للإيقاع به ، والنيل منه ،

Digitized by Birzeit University Library

فى الداخل ، حتى يتمكن منه العدو فى الخارج ، وتذرعوا بالتميظ فى غزوة تبوك ، وتخلوا عن إخوانهم ، وكان غرضهم الحقيقى ، هو البقاء فى المدينة ، لإثارة الأراجيف والفتن ، فى أثناء غياب المسلمين عنها ، ولكن ذهبت محاولاتهم جميعاً أدراج الرياح .

ملاينة النبى الأعداء

لايوجد فى تاريخ العالم ، من يطمع فى أن يصل إلى ماوصل إليه محمد ، فى تسامحه مع أعدائه ، فإنه قد عامل أعداءه خير معاملة ، فما عاقبهم على ما اقترفت أيديهم ، فلما ذاع أمر فتنة عبد الله بن أبى بين الأنصار والمهاجرين ، اقترح عمر ضرب عنقه ، فقال : « فكيف ياعمر إذا تحدث الناس وقالوا : إن محمداً يقتل أصحابه » . ولكن لما شيد المنافقون مسجداً فى المدينة ، بإيعاز أبى عامر ، ليجتمعوا فيه ، ويدبروا مكايدهم للإسلام والمسلمين ، أمر النبى بحرقه ، وكان بناء المسجد قبل غزوة تبوك ، وقد دعى النبى لافتتاحه ، فاستمهلهم حتى يعود من تبوك ، فلما عاد ، نزل عليه الوحى : « والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين ، وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل ، وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى ، والله يشهد إنهم لكاذبون » إذن لم يقم هذا المسجد لإقامة الصلاة ، بل لتدبير المؤمرات للإسلام ، فأمر النبى بحرقه ، ومات عبد الله بعدئذ بشهرين ، وعرف بين المسلمين بكبير المنافقين ، وكان عداؤه للإسلام شيئاً معروفا ، ولكنه كان يتظاهر بالإسلام ، ولا يفتأ يردد صلاة المسلمين ، وكان ابنه ، عبد الله ، مسلماً صادق الإسلام ، فلما مات أبوه ، جاء إلى النبى يلتمس شيئين ، قميصه ليكفن أباه فيه ، ويصلى النبى عليه ، فياله من طلب نبيل لعدو ألد ! إن هذا لا يكون إلا للأصدقاء الأوفياء . ولكن قلب النبى الكبير ، كان أكبر من أن يرفض طلباً فى استطاعته تنفيذه ، ولو كان هذا

Digitized by Birzeit University Library

الطلب لعدو ألد ، فقبل ملتمس ابنه عبـــد الله ، وأعطاه قميصه ليكفن أباه فيه ، ولما تأهب النبي للصلاة عليه ، بذل عمر ما وسعه لاقناعه عن العدول عن ذلك ، لأن عبد الله المتوفى كان عدواً للإسلام ، ولكن النبي أصر على الصلاة عليه ، وعاد عمر يلح فى عدم الصلاة عليه مذكراً النبي بقول الله : « إن تستغفر لهم سبعين مرة ، فلن يغفر الله لهم » ؛ فأجابه النبي : « سأستغفر لهم أكثر من سبعين مرة » .

سبق أن بينا تسامحه مع أهل مكة ، وكيف أطلقهم ، وهذا تسامحه مع المنافقين يتجاوز كل حد ، فياله من كرم لا مثيل له ! إنه الشخصية الوحيدة فى تاريخ البشرية جمعاء ، التى تعتبر رحمة للعالمين ، بحكم الحوادث والبراهين . إن قلبه مفعم بالرحمة والعطف ، وقد وسعت رحمته الأضداد ، والاعداء الألداء على السواء ، وصدق الله العظيم فيما يقول : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » .

نهاية المنافقين

انهارت عداوة المنافقين بموت كبيرهم ، عبد الله بن أبى ، فقد عملوا جاهدين ، كل ما فى وسعهم ، لينالوا من الإسلام نيلا ، ولكنهم باءوا بخزى عظيم ، وانتشر الإسلام ، وهم كارهون ، وما مات كبيرهم ، حتى أيقنوا ألا قبل لهم الاضرار بالإسلام لأن يد الله تؤيده ، فتفتحت قلوب كثير منهم إلى النور ، وأصبحوا مسلمين صادقين ، أما الباقون فقد أبعدوا من حظيرة الإسلام ، ولم يوقع عليهم أى جزاء ، فلم تضرب أعناقهم ، ولم يخرجوا من ديارهم ، وكل ما فى الأمر أن تجنبهم المسلمون ، ولم تقبل منهم الزكاة ، وكان هذا هو العقوبة الوحيدة التى أوقعت بهم ، ومعاملة النبى لهم تلقى ضوءاً عظيماً على ماهية الجهاد فى الإسلام ، فالآية تقول : « يأيها النبى جاهد الكفار والمنافقين » فلو أننا فسرنا الآية على ضوء ما عامل النبى المنافقين ،

Digitized by Birzeit University Library

لاستنتجنا أن الجهاد فى الإسلام هو عمل كل شىء فى سبيل نشر الدعوة إلا إراقة الدماء. وقد انتهت فى حياة النبى مشاغب المنافقين ، واستقر الإسلام ، واستتب الأمن ، وانتهى العداء الداخلى والخارجى ، ولم ينته العداء فحسب ، بل انقلب العداء صداقة متينة الأواصر ، أفكان هذا العمل فى طاقة البشر ؟ إن هذا من صنع الله الذى قال : « عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة ، والله قدير ، والله غفور رحيم »

Digitized by Birzeit University Library

الفصل السابع والعشرون

عام الوفود

« إذا جاء نصر الله والفتح ، ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا ، فسبح بحمد ربك واستغفره ، إنه كان توابا ،

مقتل عروة سيد ثقيف لاسلامه

فى نهاية السنة التاسعة للهجرة ، وخلال السنة العاشرة تدفقت الوفود على المدينة ، من مختلف القبائل والعشائر ، وقدم على النبى وفد الطائف فى نهاية العام التاسع ، وسبق القول أن فريقا من العدو المهزوم فى هوازن ، قد فر إلى الطائف ، فحاصرها النبى ، ولما استوثق من عجزهم عن إلحاق الأذى بالمسلمين رفع الحصار ، وكان عروة بن مسعود سيد ثقيف غائبا فى اليمن أثناء حصار النبى للطائف ، فلما عاد إلى موطنه ، ورأى النبى قد عاد إلى المدينة انطلق إليه ليعلن إسلامه ، وقد سبق لعروة أن تحقق من فضائل الإسلام ، وما كان غريباً عنه ، فهو أحد من تفاوض مع محمد عن قريش فى صلح الحديبية . ولما تم إسلامه ، اعتزم الذهاب إلى قومه يدعوهم إلى الدين الذى اعتنقه ، فحذره النبى وقال له : « إنهم قاتلوك » ، ولكن عروة كان شديد الثقة بنفوذه فى قومه ، فقال للنبى : « يارسول الله ، إنا أحب إليهم من أنصارهم » ، وعاد عروة إلى الطائف ، ودعا قومه إلى الإسلام ، فلما كان الصباح ، قام هو إلى علية له ، ينادى إلى الصلاة ، فلم يطق قومه صبراً ، فأحاطوا به ورموه بالنبل من كل حدب ، فخر صريعا .

Digitized by Birzeit University Library

وفد الطائف

وأدى مقتل عروة إلى قيام مناوشات بين أهل الطائف وقبيلة هوازن، التى كانت قد اعتنقت الإسلام، فلما رأت ثقيف انتشار الإسلام فى كل مكان، وعداوة جيرانها لها، أوفدت وفداً مؤلفاً من ستة من الزعماء، وعشرين عضواً، لمصالحة النبى، ولما قدموا المدينة، لم يفاتحهم النبى فى قتل عروة، وأبدوا استعداداً للدخول فى الإسلام، على أن يدع النبى لهم صنمهم اللات، ثلاث سنين، لا يهدمها، إرضاء للدهماء والنساء، فأبى محمد عليهم ماطلبوا، واستمرت المفاوضات، وأخيراً طلبوا إبقاء اللات شهراً واحداً، فرفض النبى، وأخيراً طلبوا منه أن يجنبهم تحطيم ماكانوا يعبدون بأيديهم، فأرسل النبى المغيرة لهدم الصنم.

دخول البلاد التى فى شرقى بلاد العرب وجنوبيها فى الاسلام

سبق القول أن وفداً من بنى تميم قدم إلى المدينة فى السنة التاسعة، وقبل أن ينصرم العام العاشر، كان الإسلام قد غمر الجزءين الشرقى والجنوبى، لبلاد العرب، فدان للإسلام أغلب سادات اليمن، وعمان والبحرين، واليمامة، أما عن طريق الرسائل أو الرسل، وكان العرب بطبيعتهم قوما محبين للحرية، فكانت القبائل ترى فى دفع الجزية لقبيلة أخرى إهانة بالغة، فكانت الزكاة لذلك عقبة فى سبيل إسلام بعض القبائل، التى كانت تميل إلى الإسلام ولكنها ترى فى الزكاة إهانة ومذلة، على الرغم من أنها ضريبة السماء. وفى نهاية العام، دخل فى دين الله نصارى مهرة، واليمن، وأرسل النبى رسولا إلى المنذر، سيد البحرين، يدعوه للإسلام، فقبل الإسلام دون تردد. وجاء وفد من بنى حنيفة، من أهل اليمامة، وهى قبيلة نصرانية، وجاء فيهم مسيلمة الكذاب، وظن

Digitized by Birzeit University Library

أن النبي قد اعتلى عرش النبوة ، بالجدل فى شئون الدين ، فادعى النبوة ، وراح يحرب حظه ، ولكن قتل فى إبان خلافة أبي بكر .

وفد نجران

أرسلت بنو تغلب ، إحدى القبائل النصرانية ، وفداً من ستة من ساداتهم ، ولكن كان أكثر وفود النصارى شأناً ، ذلك الوفد الذى جاء من نجران ، فكان مكوناً من سبعين رجلا ، وكان على رأسهم ، عبد المسيح ، وعبد الحارث ، كبيرا قبيلتى كندة ، وبنى الحارث ، وكانا من أتباع الكنيسة الرومانية الكاثوليكية ، ونزلت جميع الوفود فى ديار المسلمين ، إلا وفد نجران ، فقد نزل فى مسجد النبي ، وسمح لهم بإقامة شعائرهم الدينية ، ودعوا إلى الإسلام ، فرغبوا فى مناقشة عامة ، فلم تجد براهين المسلمين معهم ، فدعاهم النبي إلى المناظرة ، فرفضوا لأنهم فطنوا إلى حقيقة الإسلام ، ولم يقبلوا الخروج من دينهم ، وانصرفوا بعد أن تعاقدوا مع النبي .

وفد باهلة

ووفدت على النبي وفود أخرى ، فى السنة العاشرة ، من اليمانين ، منها وفد باهلة ، وكان لهذه القبيلة معبد خاص ، يدعى « ذو الخلصة » ، وكان عندهم بمثابة الكعبة ، فهدم المعبد ، والصنم ذو الخلصة ، الذى سمى المعبد باسمه .

وائل وأشعث

هما زعيمان من زعماء حضرموت ، وفدا على النبي فى جمع حاشد ، يرفلان فى الدمقس والحرير ، فلما عرضا على النبي إسلامهما ، أمرهما النبي أن يخلعا ملابسهما الحريرية ، ففعلا ، وقبل إسلامهما . لم يرسل النبي لنشر الدين فحسب ، بل لمحاربة كل نقيصة اجتماعية ، فقضى على عادات متأصلة سيئة عديدة ، وصبغ الحياة الاجتماعية بفضائل الإسلام ، فرفع البشرية المتدهورة المنحطة ، وطهرها

Digitized by Birzeit University Library

من عادات ذميمة، ونشر بينها عادات قويمة رشيدة، وبث فيها روحا قوية فتية، أرسلت القبائل والعشائر وفودها إلى النبي، ودخلت جميعها في دين الله، وأرسل النبي معهم خيرة أصحابه، ليفقهوهم في دينهم، وليجبوا الزكاة.

مكيدة عامر ونهايته

على الرغم من إسلام القبائل، فقد بقي نفر قليل، أخذتهم العزة بالأثم، ولم يدخل اليأس إلى قلبهم. فأرادوا ضرب الإسلام، الضربة الأخيرة، فعزم اثنان منهم هما: عامر بن الطفيل، وأربد، على قتل النبي، فاتفقا على أن يحادث عامر النبي، فيضربه أربد بسيفه فيقتله، فجاء النبي، وشرع عامر يحادثه، ولكن شجاعة أربد خانته، فلم ينفذا اتفقا عليه، وأيقن عامر أن مكيدته قد خابت، ولا أمل في تكرارها، فعزم على أن يختلي بالنبي وحده. وينفذ ما وسوست به نفسه، فطلب من النبي أن يحادثه على انفراد، فرفض النبي طلبه، فدهش عامر لهذا الرفض، وهو سيد قبيلة لها شأنها، فخرج وهو يهدد: «أما والله، لأملأنها عليك خيلا ورجلا»، فدعا النبي ربه: «اللهم اكفني عامر بن الطفيل»، ومن الطريف أن عامرا عدو الإسلام، مات قبل أن يبلغ قومه، فقد أهلكه الطاعون في الطريق!

بلاد العرب جميعها تدخل في الإسلام في عامين

انتهت فترة القتال، ودخل الناس في دين الله أفواجاً فما انقضى عامان حتى كانت بلاد العرب الشاسعة تدين بدين واحد، وتعبد إلهاً واحداً، وكان اسم الله الأوحد يتردد في جنبات الجزيرة كلها، معلناً انقضاء الوثنية، فيالها من أعجوبة خارقة، لقد أعرضت عنه القبائل، عند ما كان يعرض نفسه عليها في موسم الحج بمكة؛ وها هي ذي القبائل نفسها ترسل إليه وفودها،

Digitized by Birzeit University Library

معتبرة قبولها فى الإسلام شرفاً أى شرف ، فما انتهت الحرب ، حتى أنار الإسلام جزيرة العرب جميعها فى عامين اثنين ؛ وانتشرت فضائله وتعاليمه القوية ، مكتسحة الفساد أمامها ، رافعة العرب إلى أوج العظمة ، والسؤدد ، والسلطان ؛ فياله من انقلاب عجيب .

Digitized by Birzeit University Library

الفصل الثامن والعشرون

حجة الوداع

« اليوم أكملت لكم دينكم »
« وأتممت عليكم نعمتي »

حجة النبي الأخيرة

أوشكت السنة التاسعة أن تنصرم ، وما تطهرت بلاد العرب كلها من الوثنية ، فما زال هناك بعض نفر من المتمسكين بدينهم الموروث ، وما حج النبي حتى الساعة إلا حجات قليلة ، فخرجت فئة من المسلمين للحج ، وخرج أبو بكر على رأسها ، وبعد خروج المسلمين ، أرسل النبي علياً ليعلن القوم نبأ منع المشركين من الحج ، وكأنما كان هذا الإعلان شبه نبوءة ، بانقضاء الوثنية ، فقد دخلت جزيرة العرب كلها في الإسلام ، ولم يبق بها مشرك واحد في العام التالي ، ففي السنة العاشرة للهجرة أسلمت البلاد كلها . وخرج النبي للحج الأكبر بنفسه ، وخرج معه أربعة عشر ومائة ألف من المسلمين ، جاءوا من كل حدب ، ومن كل فج ، ومن كل ركن من أركان بلاد العرب ، لتأدية فريضة الحج ، وانطلق النبي يتبعه هذا الجمع الزاخر ، فكان منظراً يهز القلوب ، انطلقوا ، وما كان بينهم مشرك واحد ، حتى بلغوا مكة ، مكة التي نبذ النبي منها وطرد ، عند ما دعا الناس إلى دينه ، الذي يدينون به الآن جميعاً . فراح النبي يسرح الطرف حوله ، فلا يجد إلا مخلصين بررة ، يدينون له بالولاء ، ويسبحون بحمد الله ،

Digitized by Birzeit University Library

فكان منظراً رائعاً ، يدل على عظمة الله وقدرته ، وما أيسر أن نتخيل ما كانت تجيش به قلوبهم ، إنه التقوى ، والخشوع لله العلى العظيم .

اكتمال الدين

شاهد النبي منظر أتباعه الفريد ، فاطمأن للنصر الأخير ، وأيقن فى نفس الوقت أن رسالته على الأرض قد كملت ، فقد تكللت جهوده بالنجاح ، نجاح لم يصل إليه إنسان غيره . لقد جاء الوقت الذى يودع فيه حياة الدنيا ، بعد أن أتم رسالته ، فقد أسلمت بلاد العرب جميعها ، وبلغ الدين الإسلامى حد الكمال ، ونزل عليه الوحى : « اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى » ومعنى هذا أنه لم يعد هناك حاجة لإرسال رسول آخر بعده ، ففى القرآن جميع ما يحتاج إليه البشر ، وبه من التعاليم مايكفى الإنسانية حتى يوم القيامة ، وكان هذا الظرف أنسب ظرف لإعلان النبأ السعيد ، نبأ استكمال الدين ، فالمكان حرم آمن ، ما شهد إرهاقة الدماء أبداً ، على مر التاريخ ، والناس أبرار ما خرجوا إلا لذكر الله ، مخلفين وراءهم ما يربطهم بدنياهم ، مجتمعين كلهم فى صعيد واحد ، لغرض واحد ، لا فرق بين كبير وصغير هو الابتهال إلى الله رب العالمين .

خطبة منى

فخطب النبي فى منى ، خطبة بهذه المناسبة ، جاءت آية فى الروعة والجلال ، كان على ناقته ، والناس حوله فى منى ، وكان ربيعة بن أمية يردد قوله خلفه ، ليبلغ الناس ، قال النبي : « أيها الناس ، اسمعوا قولى ، فإنى لا أدرى ، لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا ، بهذا الموقف أبداً . أيها الناس ، إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم ، كحرمة يومكم هذا ، وكحرمة شهركم هذا ، وإنكم ستلقون ربكم ، فيسألكم عن أعمالكم ، وقد بلغت ، فمن كانت عنده

أمانة ، فليؤدها إلى من ائتمنه عليها ، وإن كل ربا موضوع ، ولكن لكم رءوس أموالكم ، لا تظلمون ولا تظلمون ، قضى الله أنه لا ربا ، وأن ربا عباس بن عبد المطلب موضوع كله ، وإن كل دم كان فى الجاهلية موضوع ، وأن أول دمائكم أضع دم ابن ربيعة ، بن الحارث ، ابن عبد المطلب . أما بعد أيها الناس ، فإن الشيطان قد يئس من أن يعبد بأرضكم هذه أبداً ، ولكنه إن يطع فيما سوى ذلك ، فقد رضى به ، مما تحقرون من أعمالكم ، فاحذروه على دينكم . أيها الناس إنما النسىء زيادة فى الكفر ، يضل به الذين كفروا ، يحلونه عاماً ، ويحرمونه عاماً ، ليواطئوا عدة ما حرم الله ، فيحلوا ما حرم الله ، ويحرموا ما أحل الله ، وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموت والأرض ، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً ، منها أربعة حرم ، ثلاثة متوالية ، ورجب الفرد الذى بين جمادى وشعبان . أما بعد ، أيها الناس ، فإن لكم على نسائكم حقاً ، ولهن عليكم حقاً ، لكم عليهن ألا يوطئن فراشكم أحداً تكرهونه ، وعليهن ألا يأتين بفاحشة مبينة ، فإن فعلن ، فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن فى المضاجع ، وتضربوهن ضرباً غير مبرح ، فإن انتهين ، فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، واستوصوا بالنساء خيراً ، فإنهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئاً ، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمات الله ، فاعقلوا أيها الناس قولى ، فإنى قد بلغت ، وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً ، أمراً بيناً ، كتاب الله ، وسنة رسوله ، أيها الناس ، اسمعوا قولى ، واعقلوه . تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم ، وأن المسلمين أخوة ، فلا يحل لامرىء من أخيه ، إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه ؛ فلا تظلمن أنفسكم .

Digitized by Birzeit University Library

وصاح النبى بأعلى صوته :

« اللهم هل بلغت ؟ » . . فأجاب الناس من كل جانب : « نعم » . . فقال النبى : « اللهم أشهد » .

إنها خطبة رائعة ولا شك ، وما كان تنفيذها بأقل روعة ، إنه نداء آخر من فوق الجبل ، فى تاريخ البشرية ، ولكنه أعظم وأجدى من النداء الأول ولا شك .

Digitized by Birzeit University Library

الفصل التاسع والعشرون

وصـــــــية النبي

« وما محمد إلا رســـول قد خلت
من قبله الرسل ، أفإن مات أو قتل ،
انقلبتم على أعقابكم ؟ »

مرض النبي الاخير

عاد النبي من حجة الوداع ، وقد أعلن استكمال الدين ، واتمام نعمة الله على المسلمين ، ولم يعد يفكر إلا فى لقاء ربه ، وشعر بالمرض فى نهاية شهر صفر من السنة الحادية عشرة للهجرة ، وكان النبي قد أمر بخروج جيش إلى حدود سورية للثأر لمقتل جعفر وابن رواحه وزيد فى مؤتة ، وأمر على هذا الجيش أسامة بن زيد. وعلى الرغم من مرضه خرج وسلم الراية إلى أسامة بنفسه . وكان فى جيش أسامة خير الصحابة ، كأبى بكر وعمر ، كجنود عاديين ، وكان النبي يقصد بذلك ، وهو على شفا القبر تثبيت قاعدة المساواة العامة بين جميع المسلمين ، لا فرق بين كبير وصغير ؛ سيد ومسود ، وكانت الجيوش معسكرة خارج المدينة ، فمنعها من الخروج اشتداد المرض على الرسول ، واتفق رأى زوجات النبي على بقائه فى بيت عائشة إلى أن يبرأ ، وكانت عائشة بجواره تمرضه حتى خروج نفسه الأخير . وكان النبي يخرج إلى الناس للصلاة ، على الرغم من شدة مرضه ، وفى مرة صبوا عليه الماء بكثرة ليتمكن من الخروج ، فخرج وهو معصوب الرأس ، وبعد الصلاة

Digitized by Birzeit University Library

قال : « إن عبدا من عباد الله ، خيره الله بين الدنيا والآخرة . وبين ما عنده ، فاختار ما عند الله » فأدرك أبو بكر أن النبي ينعى نفسه ، فلم يستطع أن يمسك عن البكاء ، ثم قال : « بل نحن نفديك بأنفسنا وأبنائنا » فأمر النبي أن تقفل جميع الأبواب المؤدية إلى المسجد إلا باب أبي بكر ، ثم قال : « يا معشر المهاجرين ، استوصوا بالأنصار خيرا »

أبو بكر يصلي بالناس :

اشتد المرض على النبي ، في اليوم التالي . فما استطاع الخروج ، ولما أذن بلال بالصلاة قال النبي : « مروا أبا بكر ، فليصل بالناس » فقالت عائشة : « إن أبا بكر رجل رقيق . ضعيف الصوت ، كثير البكاء ، إذا قرأ القرآن » فقال النبي : « مروه فليصل بالناس » فكررت عائشة قولها ، فقال النبي : « مروه . فليصل بالناس » وأم أبو بكر الناس . وشعر النبي ، في يوم من الأيام ، بتحسن حاله ، فأزاح الستار ، وخرج إلى الجامع ، فرأى الناس يصلون خلف أبي بكر ، فسر النبي بما رأى ، سر لوقوفهم في غيابه خاشعين لله رب العالمين . وأحس ضعفا ، فعاد إلى الدار .

الخاتمة :

كان ذلك في يوم الاثنين ، وقد حسب الناس أن النبي قد برأ ، فانصرف الناس لشئونهم ، ورحل أبو بكر إلى السنح لزيارة أهله ولكن صحوة النبي ما كانت إلا صحوة الموت ، تخاذل بعدها ، وسندته عائشة ، ودخل رجل من آل أبي بكر ؛ وفي يده سواك أخضر ، فنظر إليه محمد نظراً ، دل على أنه يريده ، فأخذته عائشة ، وناولته له ، فاستن به وتغيرت حاله فجاءة ، وانهارت قواه ، فهمس : « بل بالرفيق الأعلى من الجنة » وكانت هذه آخر ما نطق به ، ولحق النبي الرفيق الأعلى ، بعد أن أدى رسالته على الأرض ، وكان ذلك يوم الاثنين ، الثاني من ربيع الأول ، عند ما فاضت روحه الطاهرة ، وهو في الثالثة والستين .

Digitized by Birzeit University Library

كيف قوبل النبأ :

انتشر خبر موت النبي انتشار الريح ، وأسرع الناس إلى المسجد ، وقد حسبوا أن هذا الخبر ما صدر إلا عن المنافقين ، لقد كان النبي معافى فى الصباح ، فراح عمر يكذب خبر موته ، ويخطب فى الناس : « إن رجالا من المنافقين يزعمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قد توفى ، وإنه والله ما مات ، ولكنه ذهب إلى ربه ، كما ذهب موسى بن عمران » وأشهر سيفه وهو يخطب وقال : « والله ليرجعن رسول الله كما رجع موسى فيقطعن أيدى رجال وأرجلهم زعموا أنه مات » وإنهم كذلك إذ أقبل أبو بكر من السنح ، وقصد دار عائشة ، ثم كشف عن وجه النبي ، ثم أقبل عليه يقبله ، وقال : « بأبى أنت وأمى ! أما الموتة التى كتب الله عليك ، فقد ذقتها ، ثم لن تصيبك بعدها موتة أبداً ! ».

خطبة أبى بكر :

وعاد أبو بكر إلى المسجد ، فصعد المنبر وخطب الناس . « أيها الناس ، إنه من كان يعبد محمداً ، فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله ، فإن الله حى لا يموت » كان النطق بهذا القول وسط هذا الحشد الهائج ، يحتاج إلى كثير من الشجاعة ، فقد كان عمر ما زال مستلا سيفه ، متأهباً لضرب عنق كل من يقول إن النبي قد مات ، ولكن المسلمين الذين تعلموا عبادة الله وحده ، ما غضبوا لمقالة أبى بكر الذى قرأ : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفإن مات ، أو قتل انقلبتم على أعقابكم »

أتم النبي رسالته ، وهدى الناس إلى الصراط المستقيم ، فما كان لموته أثر ضار بالدين ، فما الداعى إلى الانغماس فى اليأس والحزن ، ألم يمت أنبياء من قبله ؟ إن محمداً بشر ، يصيبه ما يصيب البشر ، فلم يقنط المسلمون ؟ إن جميع الأنبياء السابقين قد رحلوا ، كما يرحل نبيهم ، فلو

Digitized by Birzeit University Library

أن نبيا خلد فى الدنيا قبله ، لجاز لهم الحزن والقنوط . ولكنهم ماتوا جميعا ، فما كان فى موت محمد شىء خارق ، وما كان موته بشىء عجيب ، فنزلت خطبة أبى بكر على قلوبهم برداً وسلاماً ، وراح الجميع يرددون : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل » فكان فى ترديدها خير مؤاساة لقلوبهم الكليمة ، ونزلوا على أمر الله ، الذى لا راد لقضائه ، والذى سيرث الأرض ومن عليها ، ولا يبقى الا وجهه ذو الجلال والاكرام.

الفصل الثلاثون

غزوات النبي

« أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وإن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق . إلا أن يقولوا ربنا الله »

مبادىء الاسلام حرب على التعصب

لما تكلمنا عن غزوات النبي المختلفة ، التي اضطر النبي إلى خوض غمارها ضد قريش . قلنا إنها كانت غزوات دفاعية كلها ، لرد العدوان . فقد كانت قريش المعتدية دواما ، فهي التي قصدت إلى المدينة ثلاث مرات ، عاقدة العزم على استئصال الإسلام ، والقضاء عليه ، وكانت غزوات النبي الأخرى ، التي شنها على القبائل الوثنية ، أو اليهودية ، أو النصرانية ، لنفس الغرض ، وسبق أن بينا أن النبي ما أوفد حملة لمجرد الغزو ، والتوسع السياسي : ولكن الظاهر أن الناس أساءوا فهم الغرض من الغزوات ، مما يجعل من الضروري ، شرح الموقف شرحا عاما ، على ضوء ماجاء في القرآن ، وإن فرية أن الإسلام ماانتشر إلا بحد السيف ، إن هي إلا خرافة ، لا أساس لها من الصحة ، فإن من أسس الإسلام الاعتراف بكل الأنبياء ، وإن هذا الاعتراف وحده لكاف لنقض هذا الزعم ، فكيف يوجب النبي حب جميع مؤسسي الديانات المعترف بها ، ثم يعلن عليها حربا عوانا ، إن الاسلام لأبعد من أن يقع في ضيق التفكير إلى حد التعصب على الديانات الاخرى

Digitized by Birzeit University Library

لقد كان الإسلام سمحا مع الديانات الكبرى ، وإن كلمة الشجاعة لأضعف من أن تؤدى معنى ما كان عليه سعة صدر الإسلام إزاء الديانات الأخرى: لقد حض الإسلام على حب جميع الأنبياء ، واحترامهم ، والثقة بهم ، على حد سواء .

لا إكراه فى الاسلام

وكيف يمكن اتهام الإسلام بالتعصب ، وهو الذى ينص نصا صريحاً : « لا إكراه فى الدين » والقرآن ملىء بالآيات التى تبين أن الإيمان بهذا الدين أو بذاك ، إن هو إلا من اختيار كل امرىء ، فإن هو آمن بدين الحق فلنفسه ، وإن تشبث بغيره فعليها ، وهاك بعض هذه الآيات : « إنا هديناه السبيل ، إما شاكراً ، وإما كفوراً » . . « وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر » . . . « قد جاءكم بصائر من ربكم ، فمن أبصر فلنفسه ، ومن عمى فعليها » . . . « إن أحسنتم ، أحسنتم لأنفسكم ، وإن أسأتم فلها » .

جواز القتال بشروط

أجيز القتال للنبى ، لا لغرض إرغام المشركين على قبول الإسلام ، وهو عمل يتنافى مع السماحة التى كان النبى يعمل على نشرها ، بل لإقامة حرية العقيدة ، ولوقف الاضطهاد الدينى ، ولحماية أماكن العبادة لكل الأديان ، وفى ذلك المساجد ، وفى ذلك قال القرآن : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع ، وبيع ، وصلوات ، ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً » ، « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين لله » .

وقد سبق لنا شرح شروط جواز القتال ، وإن كل من درس التاريخ الإسلامى يعلم أن النبى وأصحابه ، ذاقوا مر الاضطهاد ، فى بدء جهادهم ، لما كانوا بمكة قبل الهجرة ، وهاجر منهم نيف ومائة إلى الحبشة ،

Digitized by Birzeit University Library

فازداد الاضطهاد . وتفاقم ، واضطر المسلمون إلى الهجرة إلى المدينة ، فما وقف الاضطهاد أو فتر ، ولم يتركوا آمنين هناك ، بل استلت قريش سيفها ، وخرجت وراءهم ، لتقطع دابرهم ، ودابر الإسلام ، فنزل القرآن : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وإن الله على نصرهم لقدير ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق ، إلا أن يقولوا ربنا الله » وجاء في القرآن بعد ذلك : « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ، ولا تعتدوا . إن الله لا يحب المعتدين .

أذن القرآن بالقتال إذن ، ولكن لنصرة فئة معذبة ، من أيدي معذبيها الباطشين بها ، وقد أمر القرآن بوقف القتال . بمجرد انتهاء الاضطهاد « فإن انتهوا ، فإن الله غفور رحيم . وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ، فإن جنح العدو للسلم ، فعلى المسلمين قبول الصلح ، وإن كان صلحاً يقصد به خداعهم ، قال الله تعالى : « وإن جنحوا للسلم ، فاجنح لها ، وتوكل على الله ، إنه هو السميع العليم ، وإن يريدوا أن يخدعوك ، فإن حسبك الله » وقد كاتب النبي أعداءه ، ومن أشهر عهوده ، عهد الحديبية الذي شكا المسلمون من شروطه المجحفة ، بل المهينة ، وقد ورد في نصوص هذا العهد : « أن من أتى محمداً من قريش ، بغير إذن وليه رده عليهم ، ومن جاء قريشاً من رجال محمد ، لم يردوه عليه » وإن هذا الشرط المجحف ، لأنصع دليل على بطلان أية دعوى تزعم حدوث أي إكراه من جانب النبي وصحبه ، وهو دليل قاطع على وثوق النبي من أن من دخل في دينه لن يعود إلى الوثنية أبداً ، ولن يفتن عن دينه ، ولو اضطهد فيه ، وعذب من أجله ، وقد تحقق كل ما حسبه النبي ، فما وقف شرط عدم إيواء المسلمين الجدد في المدينة ، أمام دخول الناس في الإسلام . فقد اعتنقوا الإسلام

فضيل السلم

Digitized by Birzeit University Library

كونوا فيه مستعمرة لهم . كانت شوكة فى جنب قريش .

على المسلمين الحرب فرضت

يدعى البعض أحياناً ، أن الإسلام نهى عن مصادقة غير المسلمين ، وهذا ادعاء باطل ، فكيف يسمح كتاب بزواج مسلم من غير مسلمة ، ثم ينهى عن مجرد الصداقة العادية بينهما ، وجاء فى القرآن : « من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ، إذا آتيتموهن أجورهن ، محصنين غير مسافحين ، أليست علاقة الرجل بزوجه أسمى درجات الصداقة ؟ فكيف يجوز على العقول القول بأن الإسلام نهى عن صداقة غير المسلمين ؟ ! الحقيقة هى أن الإسلام نهى عن مصادقة الذين يضمرون العداوة للإسلام وقد نزل فيهم : « لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم ، وتقسطوا إليهم ، إن الله يحب المقسطين ، إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين ، وأخرجوكم من دياركم ، وظاهروا على إخراجكم ، أن تولوهم ، ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون » .

معاملة المرقة والمرتدين

وهناك ادعاء آخر ، يجدر بنا تفنيده . فقد ساد الاعتقاد أن الإسلام يأمر بإعدام كل من ارتد عنه ، ولكن من يكلف نفسه مؤونة الاطلاع على القرآن ، يجد ألا وجود البتة لمثل هذا الزعم ، فقد ذكر القرآن المرتدين الذين عادوا إلى الشرك من بعد أن آمنوا ، ولكنه لم يذكر قتلهم ، أو حتى مجرد عقابهم . وهاهى ذى بعض آيات القرآن تشهد على ذلك : « ومن يرتد منكم عن دينه ، فيمت وهو كافر ، فأولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة » . « يأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه ، فسوف يأت الله بقوم يحبهم ويحبونه » . « إن الذين كفروا بعد إيمانهم ، ثم ازدادوا كفراً ،

Digitized by Birzeit University Library

لن تقبل توبتهم ، وأولئك هم الضالون» وزيادة على ذلك ، فقد ورد ذكر نفر من اليهود ، أرادوا تشويه الإسلام ، بادعاء تصديقه ، ثم الارتداد عنه ، لإيهام الناس أن الإسلام ليس بالدين الجدير بالاحتفاظ به . فنزل فيهم : « وقالت طائفة من أهل الكتاب ، آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار ، واكفروا آخره ، لعلهم يرجعون » . فلو أن جزاء الارتداد ضرب الرقاب ، لما فكر اليهود فى هذا ، لأنهم كانوا فى المدينة بين المسلمين ، والظاهر أن هذا الاعتقاد قد جاء من أن من ارتد من المسلمين عومل معاملة الأعداء ، فإذا ما حدث أن مرتداً قتل مسلماً ، فإن جزاءه القتل ، لا على ارتداده ، ولكن على قتله النفس التى حرم الله قتلها .

الفصل الحادى والثلاثون

دعوى المثلة الكاذبة

« فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت
فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك »

نقد مغرض

يبدو أن النقد الأوربى قد فقد صوابه ، فما استطاع أن يكبح شهوة التحامل على النبى ، فكان دائما واقعاً تحت تأثير واحد لا يتغير ، هو أخذ كل ما ينال من النبى ، ويسىء إلى سمعته ، قضية مسلمة . ولكى نضرب مثلا واحداً على سوء النية ، نذكر ما قاله المستر كاش فى كتابه « شرح الإسلام » الذى خصص أربع صفحات فى نهايته ، لما سماه « الاغتيالات » التى وقعت بإيعاز النبى ، والتى استنتج منها أنه غليظ القلب ، غادر ، لايعرف رحمة (ص ٢٩) ، وقد استق أكاذيبه جميعها مما كتبه السير وليم موير ، إلا فرية واحدة ، وعلى الرغم من ظهور مؤلفات عديدة قيمة بعد كتاب السير وليم موير ، عرفت للنبى قدره ، فإنه لم يلتفت إليها ، ولم يقدر ما جاء بها ، قبل أن يصدر حكمه على رجل يعتبره ٤٠٠ مليون نسمة المثل الأعلى للفضيلة والرحمة ، وإن حالات المثلة الكاذبة التى يدعونها ، لا تزيد على خمسة ! أما السادسة فهى الخاصة ببنى قريظة . وقد سبق مناقشتها فى الفصل التاسع عشر من هذا الكتاب ، وإن الفرية الجديدة التى جاء بها ، هى زعمه أن النبى قد أباح السبى ، وهى على الرغم من كذبها ، فإنها لم يرد لها ذكر عند « موير » أقسى نقاد الإسلام ، وهانحن أولاء نفندها جميعاً .

Digitized by Birzeit University Library

تحمل المسلمين الأذى

إن دعوى « الاغتيالات » التى قيل إنها وجهت إلى اليهود ، هى أهم ما سنتناوله هنا . كان اليهود أهل كتاب ، وكانت علاقة المسلمين مع أهل الكتاب ، على الدوام ، أرق وأرحم من علاقتهم مع الوثنيين ، فكيف يقع اختيار محمد على أن يوجه « اغتيالاته » المزعومة إلى أهل الكتاب ، الذين اقترنت أسماء أنبيائهم فى القرآن بالثناء الوافر ، والتقدير العظيم ؟! ولم لم توجه هذه الاغتيالات إلى الوثنيين من عبدة الأصنام ، الذين اضطهدوه ، وعذبوه ثلاثة عشر عاما كاملة فى مكة ، والذين تعقبوه إلى المدينة للقضاء عليه ، وعلى الإسلام ؟ يدعى المستر كاش ، كما يدعى السير وليم موير ، أن محمداً قتلهم لنظمهم بعض الشعر الهجائى ، مما آذى المسلمين ؛ يا للعجب ! لم يكن الشعر وقفاً على اليهود ، وما تملكوا ناصيته ، بل كان الحال على النقيض ، فإن العرب كان لهم السهم الوافر فى النظم ، ولطالما استخدموه فى النيل من أعدائهم بالسخرية والهجو : وقد نظم الوثنيون أشعاراً عديدة هجوا بها الإسلام ، أضعاف ما فعل اليهود ، وما كلف « موير » أو « كاش » نفسه مؤونة الاستقصاء الحقيقى ، شأن الناقد النزيه ، قبل إصدار حكمه الجائر الظالم ، الذى يصم أرحم من حملت الأرض ، بالقسوة والغدر . فلو أنهما كلفا نفسيهما مؤونة البحث النزيه ، لوجدا أن النبى وصحبه ، تحملوا صنوف العذاب . وألوان الاضطهاد ، ومن ذلك هجو الوثنيين وأهل الكتاب ، نظما كان أو نثراً ، بصبر وطول أناة ، فقد أمرهم القرآن بالصبر ، فصبروا حتى جاءهم الفرج من الله ، ونزلت هذه الآية ، وكانوا فى شدة الكرب والضيق : « لتبلون فى أموالكم وأنفسكم . ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ، ومن الذين أشركوا أذى كثيرا ، وإن تصبروا وتتقوا ، فإن ذلك من عزم الأمور » . نزلت هذه الآية ، فى سورة آل

Digitized by Birzeit University Library

عمران ، التى تضمنت سرد غزوة أحد ، التى وقعت فى السنة الثالثة للهجرة ، وهى نفس السنة التى يدعى المدعون أن الاغتيالات قد وقعت فى أثنائها . فهل كان من المعقول أن يخالف النبى وأتباعه القرآن هذه المخالفة الصريحة؟ ما كان النبى ليقوم بما نهى عنه القرآن ، وقد أمر القرآن المسلمين فى هذه الآية بالصبر على الأذى ، وقد نزلت هذه الآية ، ونار الحرب متأججة بين المسلمين وأعدائهم ، من وثنيين ويهود ، نزلت لالتأمرهم بالصبر وتحمل الأذى فحسب ، بل تحذرهم من إتيان المثلة بأعدائهم الذين أذاقوهم مر العذاب ! ! فهل فى هذا تحريض على القتل والاغتيال ؟ وما كان النبى ليخالف أمراً صريحا كهذا ، فيأمر بقتل من زعم الزاعمون أنه أوعز بقتلهم ؟ وهل كان المسلمون بمطيعيه بإتيان شىء نهى عنه القرآن ، إن كل القرائن تكذب هذا ، ولو قال الواقدى أو ابن هشام إن النبى أمر بقتل المسيئين إليه ، فما كان الواقدى أو ابن هشام حجة فى الرواية . إن القرآن أصدق كتاب ، أذن بقتال العدو المعتدى . ولكنه لم يأمر بقتل من يؤذى النبى أو المسلمين ، بل على العكس من ذلك ، أوصى بتحمل الأذى ، والصبر عليه ، وما كان من المعقول أن يأمر النبى بقتل اليهود من أجل أشعار لم ترضه ، وهو الذى أوصى أصحابه بالصبر على المكاره ، وتحمل العذاب والاضطهاد ، وعدم المثلة !

الشاعرة عصماء والنهى عن قتل النساء

ولنقص هذه الحالات حالة حالة ، فأولى الادعاءات كما رواها المستر كاش ، قتل الشاعرة عصماء ، وهى شاعرة من قبيلة الأوس ، قيل إنها نظمت قصيدة ، عجت فيها النبى ، وقالت إنه أهراق دماء كثير من السادة ، قاصدة ما نال سادات قريش فى بدر ، وقيل إنها قتلت بقسوة ، قتلها عمير ، ولم يكتف بذلك ، بل قيل إن النبى هنأه على فعلته . والأسانيد التى ذكرت هذا

الحادث هى ابن هشام ، والواقدى ؛ وابن سعد ، والدليل على أن هذه الرواية غير صادقة ، ليس ما سبق أن أوردناه من أن القرآن نهى عن قتل المسيئين فحسب ، بل ما أصدره النبى من أوامر مشددة بعدم قتل النساء ، ولو اشتركن فى القتال اشتراكاً فعلياً ضد المسلمين ؛ والبخارى ، وهو أصدق من روى الحديث ، قد أفرد فصلا كاملا فى كتاب الجهاد ، للتحذير من قتل النساء فى أثناء الحرب ، وقد ذكر به رواية ابن عمر التالية : « وجدت امرأة مقتولة فى بعض مغازى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فنهى رسول الله عن قتل النساء والصبيان » . فهل من المعقول أن النبى الذى يأمر بعدم قتل النساء المشتركات فى الحرب ، يأمر بقتل امرأة ، لا لشىء إلا لأنها قالت شعراً يكرهه المسلمون ؟ لقد كان أتباع النبى يعلمون علم اليقين نهيه عن قتل النساء ، حتى إنهم عند ما هموا بقتل ابن أبى الحقيق ، حالت زوجه بينه وبينهم ، فأمسكوا سيوفهم ، احتراماً لأمر النبى بعدم قتل النساء (فتح البارى: قصة قتل ابن أبى الحقيق) : فأمام كل هذه الأدلة ، لا يستطيع إلا التفكير المريض المغرض ، تصديق دعوى أن النبى قد أمر ، وسر ، بمقتل امرأة ، لمجرد أنها نظمت بعض الهجاء فى المسلمين ، لا شك أنها قصة مختلقة مكذوبة .

إن الحقيقة الناصعة ، التى لا تشوبها شائبة من شك ، هى تحريم النبى قتل النساء ، حتى ولو كانوا فى حومة الوغى ، وقد ورد حديث عن النبى بهذا المعنى ، عن أوثق مصادر الحديث ، فقد ذكره البخارى فى فصل خاص عنوانه : « قتل النساء فى الحرب » وهذا الحديث يدل على تحريم قتل النساء تحريماً عاماً ، حتى فى الحرب ، وليس البخارى هو وحده الذى أتى بذكر هذا التحريم ، فقد ورد فى الكتب الصحاح الستة ، وعلى هذا ، فإن صحة التحريم لا يرقى إليها الشك ، فضلا عن ذلك ، فقد سار

التحريم مع تقاليد الإسلام ، حتى أصبح قانوناً أساسياً يستند إليه المشرعون المسلمون ، فقد أفتى مالك ، كما أفتى الأوزاعى بتحريم قتل النساء والأطفال ، أيا كانت الظروف والملابسات ، وأفتى الشافعى والكوفى بجواز قتل المرأة المحاربة ، بينما خالفهما الآخران فقالا : « لا يجوز قتلها عمداً ، وإن كانت محاربة ؛ إلا إذا كانت مصرة على القتل ، شارعة فيه » . (عون المعبود ، لابن داوود ، فصل قتل النساء). والأوزاعى يحرم قتل النساء ، مهما كانت الظروف والملابسات ، ويذهب فى التحريم إلى درجة عدم جواز قتل المحاربين اللاجئين إلى دار أو معقل به نساء أو أطفال ، فلا يجوز إضرام النار فى الدار أو المعقل ، (فتح البارى) ؛ وإن من ينظر إلى هذه الحقائق الثابتة ، لايستطيع أن يتصور بحال من الأحوال ، أن النبى الكريم يرضى عن قتل امرأة ، فى وقت السلم ، لا لذنب إلا أنها نظمت بعض الهجاء .

أبو عفك

والحادث الثانى الذى أورده المستر كاش ، هو مقتل أبى عفك ، وكان رجلا من اليهود ، طاعنا فى السن ، اهتدى إلى دينه أخيراً ، وقيل إنه قتل لنفس السبب الذى قتلت عصماء من أجله ، وقصة هذا اليهودى ، ليست بفرية أقل دناءة ولا خساسة وضيعة وتلفيقاً من سابقتها ، ولا يسعنا إلا أن نقول عنها إنها فرية خسيسة وضعة ، وما سمحنا لأنفسنا بقول ذلك ، إلا لأن أمر تحريم النساء يتضمن تحريم قتل الأطفال والطاعنين فى السن ، وإن كان البخارى لم يذكر الطاعنين فى السن . فقد وردذكرهم فى الحديث الشريف ، الذى رواه أبو داوود (فصل دعاء المشركين) ، ورواه أنس بن مالك وهو يحرم قتل الطاعنين فى السن والأطفال ، والنساء ، وإن وصية أبى بكر ، أول الخلفاء ، ليزيد بن أبى سفيان ، عندما ولاه إمارة الجيش

Digitized by Birzeit University Library

الخارج إلى سورية ، والتى أمره فيها بعدم قتل النساء والأطفال والطاعنين فى السن ، (فتح البارى ، الجزء الخامس ، ص ٢٠٢) لدليل على أن النبى أوصى بعدم قتل المسنين ، فما كان أبو بكر إلا مقتفياً آثار النبى دائماً . إذن كان قتل الطاعنين فى السن محرماً ، كما كان قتل النساء محرماً ، وإننا نعود فنكرر أنه من المحال أن يصدر النبى أمراً بعدم قتل المسنين ، ثم يعود فينقضه ، ويأمر بقتل رجل يهودى طاعن فى السن . كأبى عفك ، ولا لشىء إلا لبضعة أبيات من الشعر الهجائى .

جواز قتل القاتل - أبو حنيفه

ورد فى «الهداية» أنه لا يمكن انتزاع حياة إنسان ، مهما كانت الظروف ، وأياً كانت الأحوال إلا إذا كان قاتلا أو مقاتلا ، وقد ذكر فى فصل كيفية القتال ، تحريم قتل النساء والأطفال والطاعنين فى السن ، ومن لا يشترك فى القتال ، والأعمى ، فإنه لا يحل القتل ، بحسب الشريعة ، إلا الاشتراك فى القتال ، وإن هذا هو القاعدة الأساسية ، للتشريع على مذهب أبى حنيفة - وقد بنيت هذه القاعدة على حديث للنبى نفسه ، وقد ذكر أبو داوود نقلا عن رباح بن ربيع : «كنا مع النبى فى إحدى الغزوات ، ورأى الناس مجتمعين ، فأرسل من يأتيه بخبر تجمعهم ، فلما علم أنها امرأة قتيلة ، سأل على الفور : أكانت مشتركة فى القتال ، وأرسل إلى خالد ، أمير الجيش ، من يبلغه تحريم قتل النساء والأجير : (فصل قتل النساء). وقد أوضح النبى الأمر بسؤاله عما إذا كانت مشتركة فى القتال . فإنه لا يجوز قتل غير المحاربين ، وقد حرم قتل النساء والأجيرين ، لأنهم يقومون بأعمال غير القتال ، وعلى هذا فإن المذهب الحنفى لا يجيز قتل النساء والأطفال والطاعنين فى السن ، ومن لا يشترك فى القتال ؛ وعلى هذا يكون من المحرم قتل أى إنسان لا يشترك فعلا فى القتال .

Digitized by Birzeit University Library

وفاقاً لأوامر النبي ، وإن كل رواية عن قتل إنسان ، لم يشترك في القتال اشتراكاً فعلياً ، فهي إما مكذوبة أو مختلقة عن سوء قصد وإن كانت شائعة متواترة ، ولا يمكن الأخذ بالروايات الشخصية ، التي يرويها الرواة عن أنفسهم ، وعلى ذلك لا يمكن تصديق قصة مقتل أبي سنينة ، فهي مكذوبة من أساسها ، فإن الادعاء بأن النبي أصدر أمراً عاماً لإبادة اليهود ، كان من نتيجته قتل أبي سنينة وحده ، ادعاء يناقض نفسه بنفسه ، فكيف يكون مقتل رجل واحد نتيجة أمر عام لإبادة اليهود جميعهم ؟!

كعب بن الأشرف

وصلنا الآن إلى الحالات التي جاء ذكرها في الحديث ، وأولى هذه الحالات ، هي مقتل كعب بن الأشرف ، وإننا سنعمل على تفنيدها بالتفصيل لنثبت للعالم محاولة تشويه سمعة النبي عن سوء قصد . كان والد كعب من قبيلة طيء ، فلما أتى إلى المدينة ، تحالف مع اليهود ، من قبيلة بني النضير ، وأصبح ذا نفوذ وشأن ، حتى تمكن من الزواج من ابنة أحد زعماء اليهود ، وبذلك أصبح كعب في مركز ممتاز ، لقرابته من العرب ، ومصاهرته لليهود ، وعند ما وفد النبي على المدينة ، تعاهد هو واليهود على أن يعيشوا فيها جنباً إلى جنب ، لكل منهما عقيدته الدينية ، وإذا ما وقع عدوان على المدينة من الخارج ، فعلى كل منهما أن يهب لنصرة حليفه ، وقبل الطرفان أن يكون النبي الحكم الأخير فيما يختلف عليه من نصوص العهد . وعلى الرغم من وجود هذا العقد ، فقد خرج المسلمون للذود عن المدينة وصدهم ، عند ما مشت قوات قريش قاصدة المدينة في السنة الثانية للهجرة : وعلى الرغم من أن قوات المسلمين ، لم تتجاوز ثلث قوات قريش ، فإنها انتصرت في بدر ، ومزقت شمل الأعداء شر ممزق ، فلما رأى اليهود هذا النصر ، ازدادت نار الحقد لهيباً في صدورهم ، فأخذ كعب ، المتعاقد مع المسلمين ، يستغل مواهبه الشعرية في هجاء حلفائه ،

Digitized by Birzeit University Library

والنيل من الإسلام . ولم يكتف كعب بذلك ، بل شد الرحال إلى مكة ، واضعاً يده فى يد أعداء الإســـلام ، محرضاً لهم على مهاجمة المسلمين ، وتسيير جيش كبير إلى المدينـة ، وقد أقسم أن يحارب المسلمين إذا ماهوجمت المدينة . ولم يكتف بتأليب أعداء الإسلام عليهم ، بل وضع خطة عقب عودته من مكة لقتل النبى غيلة ، وإن روح التبشير المسيحى المحض ، ليتغلب على السير وليم موير ، فيجعله يهمل هذه الوقائع ، ولا يذكر منها شيئاً فى كتابه « حياة محمد » ثم يأخذ فى شرح مقتل كعب . ذاكراً أتفه التفاصيل ، متناسياً الدوافع المهمة ، بل إنه ليفضح دخيلة نفسه عند مايتكلم عما سماه الاغتيالات ، عند ماقال : « إن انتشار الإسلام بدأ يأخذ مظهراً لايدعو إلى الاغتباط إذا قورن بالمسيحية ، فإن من دخلوا فى دين عيسى ، دخلوا فيه لإعجابهم بثبات معتنقيه حتى الموت ، أما من دخلوا فى الإسلام ، فانهم دخلوا فيه لما رأوا استعداد المسلمين لقتل معارضيهم ، فكان المؤمن فى الحالة الأولى ، يدخل فى دين عيسى معرضاً حياته للموت . أما فى الحالة الثانية ، فإنه كان يدخل فى الإسلام ، لأن الدخول فيه هو الحل الوحيد لإنقاذ حياته ! » إذا كان موير تعمد إخفاء الحقائق التى تثبت أن كعباً قد نافق ، وقد انقلب من حليف إلى عدو مقاتل ، فإن كاش تعمد ارتكاب نفس المغالطة ، على الرغم من ترديده لمختلف المراجع .

كانت الحرب قائمة بين المسلمين وغير المسلمين فى هذه المدة التى وقع فيها ماسمى بالاغتيالات . فى السنة الثالثة للهجرة ، وإن هذه حقيقة لاسبيل إلى إنكارها ، وكل ماهنالك هو معرفة هل كان كعب مسالماً أو مقاتلا ؟ مما لاشك فيه أنه وضع يده فى يد أعداء الإسلام ، وظاهرهم فى قتالهم للمسلمين ، وقتلهم المجاهدين ، أفلا يعتبر هذا خيانة ؟

Digitized by Birzeit University Library

وغدرا ؟ . إن انضمام كعب جهرة إلى الأعداء ، أمر تثبته الرواية التاريخية إثباتاً قاطعاً ، بل إن بعضها ليذهب إلى حد القول بأنه اعتزم اغتيال الرسول ، وهذا بعضها : « ذهب إلى مكة يحرض على محمد ، وينشد الأشعار ، ويبكى أصحاب القليب » (الزرقانى جزء : ٢ ، ص ١٠) وقال النبى : « من لنا بابن الأشرف فقد استعلن بعداوتنا ، وقد خرج إلى المشركين يجمعهم على قتالنا » (الزرقانى ج : ٢ ، ص ١١) وقال الكلبى : « إنه حالف قريشا عند أستار الكعبة على قتال المسلمين » (الزرقانى ج : ٢ ، ص ١١) .

« صنع (كعب) طعاما ، وواطأ جماعة من اليهود أنه يدعو النبى ، صلى الله عليه وسلم ، إلى الوليمة فإذا حضر ، فتكوا به » (الزرقانى ج : ٢ ص ١٢) .

وفى تعليق الزرقانى ، على ماجاء فى صحيح البخارى ، بشأن مقتل كعب ، ذكر أن كعباً انطلق إلى قريش ، وحالفها عند أستار الكعبة على قتال المسلمين ، وأن النبى قد ذكر أنه قد جهر بالعداء للإسلام ، وأنه تآمر على الفتك بالنبى ، فى وليمة يدعوه إليها ، وقد أورد البخارى نفسه ، ملابسات مقتل كعب فى فصل خاص ، ترددت فيه كلمة الحرب ، مما يؤيد اعتباره محارباً ، وقال أبوداود ، فى فصل « أخذ العدو على غرة منه » مايؤيد أن كعبا كان عدواً مقاتلا ، وكفى أنه كان دائم التحريض على قتل النبى ، وقد ذكر عند جواز إرسال سرية إليه للقصاص منه : « لايجوز إرسال سرية إلى عدو أمن له ، أوعقد معه عقد سلام ، ولكنه جائز شرعا ، مع عدو ينقض العهد ، ويظاهر أعداء الإسلام » وقد روى ابن سعد أن اليهود لما جاءوا إلى النبى يشكون إليه مقتل كعب ، قال لهم :

Digitized by Birzeit University Library

إنه آذانا ، ولو قرّ كما قرّ غيره ممن هو على مثل رأيه ، ما أصابه شر » وعرض النبي عليهم أن يكتب لهم كتاباً فقبلوا ، وبقي هذا العهد عند علي . إن هذه الإثباتات صريحة كلها ، تدل على أن كعباً ما قتل إلا لأنه نقض عهد النبي ، وظاهر أعداءه الذين كانوا في حرب معه وقتئذ ، فهو على هذا : يعتبر محارباً ، ويجوز قتله شرعا . كان هذا حال كعب : أما اليهود الآخرون الذين ما كانوا أقل منه عداء أو هجاء للنبي ، فإنهم لم يقتلوا ، وكل ما هنالك أنهم كاتبوا النبي على عدم مظاهرة أعدائه .

وهناك مسألة هامة ، هي : لم قتل كعب على يد نفر من المسلمين غدرا ؟ ينبغي أن يكون مفهوما ، دون أدنى لبس ، أن النبي لا صلة له في وضع خطة قتله ، فقد كان النبي يعتبر كعبا مستحقاً للموت ، هـــذا صحيح ، ولكن ليس هناك أدنى دليل على أنه اشترك في وضع خطة قتله ، هناك رواية تقول : لما سأل محمد بن مسلمة النبي في قتل كعب ، سكت النبي ولم يحر جوابا ، وجاء في رواية أخرى أن النبي قال : « إن كنت فاعلا فلا تعجل حتى تشاور سعد بن معاذ (الزرقاني ج ٢ ص ١٢) » كان النبي يجهل تفاصيل قتله ولا شك ، ويبدو أن التفاصيل المتواترة كاذبة ، وحتى موير نفسه ، يبدي شكه فيها أيضاً ، ولو فرضنا جدلا أن تلك التفاصيل صحيحة ، فما كان للنبي علاقة بها ، ولو تركنا مسألة مسئولية النبي جانباً ، لما وجدنا طريقاً آخر يمكن سلوكه في مثل هذه الحالة ، ومن الغريب أن هؤلاء النقاد المغرضين ، يخلطون بين الظروف التي كان يعيش المسلمون فيها في المدينة ، والظروف التي يعيشون فيها هم في القرن العشرين ، كانوا يريدون قتل عدو لهم ، فاتبعوا معه ما كان مألوفا في مثل ظروفهم ، لقد دخل كعب في حلف مع أعداء المسلمين المحاربين لهم ، فجميع الشرائع الدنيوية والسماوية تعتبره عدواً مقاتلا ، فأرسل النبي إليه سرية .

Digitized by Birzeit University Library

أرسل محاربين لقتال محارب . وكان على رئيسهم أن يختار أفضل الطرق لتسديد ضربته ، فاختار رئيسهم ، محمد بن مسلمة ، طريقه كانت مألوفة عند العرب ، اعتبرها خير طريقة لنيل الفرصة ، نظراً للظروف والملابسات ، فلو أنه اختار مقاتلة كعب جهاراً ، لأريق دم كثير . ولهبت قبيلة بنى النضير اليهودية كلها لمشاركة كعب ، فاختار طريقة استدراجه وقتله ، حرصاً على دم أبرياء عديدين . هذه هى تفاصيل مقتل كعب ، فما علاقة النبى بها ؟ لا شىء البته .

ابن أبى الحقيق

إذا كنا قد أفضنا فى مقتل كعب ، فإن مقتل ابن أبى الحقيق لا هون من هذا ، ويكفى أن السير وليم موير قد اعترف بإدانته ، فسكت عن الدفاع عنه خارسا ، فكتب تحت عنوان « اغتيال ابن أبى الحقيق ، الزعيم اليهودى » : « نزل نفر من يهود بنى النضير ، بعد نفيهم ، بين إخوانهم فى خيبر ، وقد لعب ابن أبى الحقيق زعيمهم دوراً بارزاً فى قوات الأحزاب التى حاصرت المدينة ، وهو متهم بإثارة القبائل العربية ، ضد الإسلام ، وحضها على السلب والنهب ، وشن الغارة على المسلمين ، لذلك خرج على ليغزوه فى خيبر ، ورأى محمد أن خير وسيلة لوقف خطر اليهود الدائم ، الهجوم على زعيمهم رأسا ، ولكن اغتيال ابن أبى الحقيق لم يكف محمدا مؤونة شر يهود خيبر ، بدليل أن أوسير الذى انتخب مكانه ، ظل على علاقات الولاء لغطفان . بل قيل إنه يفكر فى غزو المدينة »

كان بنو النضير قبيلة يهودية ، تعيش فى المدينة فى أول الأمر . وتحالفوا مع النبى ، ولكنهم ظلوا على اتصال وثيق بقريش ، وحدث أن إحدى قبائل العرب المتحالفة معهم ، اغتالت أحد المسلمين ، فطلب

Digitized by Birzeit University Library

منهم تجديد عقدهم مع النبي ، فرفضوا ، فأخرجوا من المدينة . ونزلوا خيبر ، مستعمرة اليهود ، فأصبحوا مصدر قلق دائم للمسلمين ، فقد كانوا دائبين على تحريض قبائل العرب المحيطة بالمدينة على القيام بأعمال السلب والنهب ، وشن الغارات على المسلمين ، وكان رئيسهم ، ابن أبي الحقيق . أحد أبطال غزوة الأحزاب ، التي تكاتف فيها العرب واليهود لتسديد الضربة القاضية إلى الإسلام ؛ وعلى هذا يكون اليهود ، وابن أبي الحقيق ، قد نزلوا إلى الميدان مقاتلين ، وتمزق شمل الأحزاب ، وولوا الدبر . ولكن ظل ابن أبي الحقيق على تحريضه لقبائل العرب المحيطة بالمدينة ، ومساعدتهم في السلب والنهب ، فقد كان النبي على حق ، في إرسال حملة تأديبية إلى يهود خيبر في السنة السابعة ، وكان على حق عند ما أرسل قبل ذلك سرية للاقتصاص من ابن أبي الحقيق ، في السنة السادسة ، وكان الغرض من إرسال السرية الاقتصاص من ابن أبي الحقيق ، وحقن دماء الأبرياء إذا أمكن . ولكن قتل ابن أبي الحقيق لم يجتث الشر ، ولم يدفع الأذى عن المسلمين ، فقد استمرت اليهود في أذاها ، فما كان من تسيير غزوة خيبر بد ، في السنة التالية ، فهوجمت خيبر ، واستولى المسلمون عليها . وإن كانت السرية التي هاجمت ابن أبي الحقيق قد اتبعت نفس الطريقة التي اتبعتها السرية التي قتلت كعبا ، فلا عتب على النبي في هذه أو تلك .

دعوى إباحة السبي قرية وضيعة

وآخر ما افتراه المستر كاش على النبي ، دعوى كاذبة ، هي إباحته سبي نساء بني المصطلق ، وهي فرية وضيعة ، وادعاء أن ذلك قد ورد في جميع السير . هو افتراء صارخ على الحقيقة ، فما وردت في الحديث كلمة واحدة عن ذلك ، وقد غابت هذه الفرية عن أقسى نقاد الإسلام أمثال « موير » ، وكل ما جاء

Digitized by Birzeit University Library

ذكره فى الحديث ، هى رواية أبى سعيد الخدرى التى جاء فيها أن نفراً من المقاتلين المسلمين ، شاءوا أن يتزوجوا بعض الأسيرات ، زواج متعة ، على أن يعزلوا ، حتى لا تحمل الزوجات ، ولكن لم يثبت مطلقا أن شيئاً من ذلك قد وقع ، والقصد من رواية أبى سعيد ، هو الإشارة بجواز « العزل » ، ولكنه لم يقل شيئا عن الاتصال بنساء بنى المصطلق . والمعروف أن زواج المتعة كان لفترة قصيرة ، وكان مألوفا فى الجاهلية ، ولكن الإسلام نهى عنه ، فانتهى تدريجياً ، وخير الإصلاح ما جاء تدريجيا ، والقرآن يصرح بزواج سبايا الحرب ، والآية التالية تكذب تكذيباً قاطعاً دعوى المستر كاش ، قال الله تعالى : « ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات ، فمن ما ملكت إيمانكم من فتياتكم المؤمنات ، والله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعض ، فانكحوهن باذن أهلهن ، وآتوهن أجورهن بالمعروف محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان ، فإذا أحصن فإن آتين بفاحشة ، فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب ، ذلك لمن خشى العنت منكم ، وإن تصبروا خير لكم ، والله غفور رحيم »

أما نساء بنى المصطلق ، على الخصوص ، فقد أطلق سراحهن جميعا ، دون فدية ، عقب أن أطلق النبى سراح جويرية ، وتزوجها ، وهذه شهادة قاطعة على كذب دعوى المستر كاش .

Digitized by Birzeit University Library

الفصل الثانى والثلاثون

أزواج النبى

«يأيها النبى قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها ، فتعالين أمتعكن ، وأسرحكن سراحاً جميلا » .

خديجة

تزوج النبى أول مرة ، فى سن الخامسة والعشرين ، تزوج من خديجة بنت خويلد ، وكانت أرملة فى الأربعين ، وقد أنجبت له أولاده جميعاً ، إلا ابرهيم ، وتوفيت قبل الهجرة بأعوام ثلاثة ، وكان النبى عند وفاتها قد بلغ الخمسين ، فعاشا معاً خمسا وعشرين عاما كاملة ، وعلى الرغم من أن تعدد الأزواج كان أمراً شائعاً فى بلاد العرب وقتئذ ، فما كان للنبى إلا زوجة واحدة حتى سن الخمسين .

عائشة

كان لفقد خديجة وقع أليم فى نفس النبى ، فحزن عليها حزنا عميقا ، فلما رأت إحدى المؤمنات ذلك ، أشارت عليه أن يتزوج من عائشة ، ابنة صديقه أبى بكر ، وفاتحت أبا بكر فى ذلك ، وكان لعائشة مواهب بارزة ، لمسها النبى كما لمسها أبوها ، وكانت هذه المواهب كفيلة بأن تجعلها سيدة المستقبل ، الجديرة أن تكون زوجة الهادى الأعظم ، الذى سيكون له أبلغ الأثر فى هداية البشر ، وكان فى طريق إتمام هذا الزواج عقبتان : أولاهما أن عائشة كانت مخطوبة لجبير ، فما كان فى استطاعة أبيها أن يقبل تزويجها ، حتى يفصل فى أمر جبير ، ولكن كان جبير نفسه

Digitized by Birzeit University Library

يرغب فى فصم رباط الخطبة ، لأن الهوة التى بين المسلمين والمشركين قد اتسعت . وأما العقبة الثانية فهى عدم بلوغ عائشة السن التى تؤهلها للزواج ، وقد أمكن تذليل هذه العقبة بتأجيل الدخول بها . وعلى هذا فإن حفل الزواج . لم يكن فى الواقع سوى حفل خطبة . وكان ذلك فى التاسع من شوال ، فى السنة العاشرة من نزول الوحى .

سن عائشة

وإنها لفرصة طيبة لدفع أكذوبة شاعت وراجت عن سن عائشة ، فمن المسلم به أنها لم تبلغ السن التى تؤهلها للزواج وكذلك من الواضح أنها لم تكن فى سن السادسة كما زعموا ، فإنها كانت فى السن التى تجيز خطبتها ، خطبها جبير . وعلى ذلك فإنها كانت على أبواب السن التى تؤهلها للزواج . ومن الثابت أن فاطمة بنت النبى تكبرها بخمس سنوات . ومن الثابت أيضا أن فاطمة ولدت أيام إعادة بناء الكعبة . أى قبل أن يرسل النبى بخمس سنوات ، فتكون عائشة قد ولدت سنة نزول الوحى ، فكانت سنها لا تقل عن العاشرة ، عند ما زوجت من النبى فى السنة العاشرة للرسالة ، وإن شهادة عائشة نفسها لدليل على ذلك . فقد قالت إنها كانت تلعب مع أترابها . عند نزول سورة القمر ، وهى السورة الرابعة والخمسون ، وإنها كانت تحفظ بعض آيات السورة ، وهذه السورة لم تنزل إلا فى السنة الخامسة للرسالة . وعلى ذلك ، فما قيل من أنها كانت تبلغ السادسة ، فى السنة العاشرة للرسالة ، عند ما تزوجها النبى ، إن هو إلا قول كاذب ، وإلا كان مولدها يوم نزول سورة القمر ، وهو ما تنفيه هى بقولها إنها حفظت بعض آياتها عند نزولها ، من هذا كله يفهم أن سنها لم تكن أقل من عشرة أعوام بحال عند ما خطبها النبى ، ولما كانت المدة بين الخطبة ، والدخول بها ، لا تقل عن خمس سنوات ، فما دخل النبى بها إلا فى السنة الثامنة للهجرة ، وعلى ذلك يكون سنها يوم بنائه بها خمسة عشر

Digitized by Birzeit University Library

عاما . أما دعوى أنها كانت فى السادسة عند عقد الزواج ، وأن النبى بنى بها وهى فى التاسعة ، فهى دعوى خاطئة ، لأن معنى هذا أن الفترة بين العقد والزواج ، كانت ثلاثة أعوام . وهذا خطأ تاريخى لا شك فيه.

قلنا إن عائشة كانت صغيرة السن عند العقد عليها ، وإن الدخول بها أرجىء بضع سنوات ، فتزوج النبى من سودة ، سودة

فى نفس السنة ، السنة العاشرة للإسلام ، وهى أرملة عجوز ، كانت قد هاجرت إلى الحبشة مع زوجها ، وعند رجوعها ، قضى الزوج فى الطريق ، وتركها ولا سند لها . ولما كان عدد المسلمين يومئذ قليلا ، فما وجدت من تلجأ إليه ، لتعيش فى كنفه معززة كما كانت ، فعرضت أمرها على النبى . فتزوجها .

وترملت حفصة ابنة عمر فى غزوة بدر ، فقد استشهد حفصة وزينب وأم سلمى زوجها ، وطلب عمر من أبى بكر ، ثم من عثمان الزواج منها ، فاعتذرا ، وربما كان ذلك راجعا إلى جفوة فى طبعها ، وإن عرضها على أبى بكر وعثمان ، لدليل على قلة الرجال الصالحين للزواج بين المسلمين فى ذلك الوقت ، فتزوج النبى منها فى السنة الثالثة للهجرة ، واستشهد فى نفس السنة عبد الله بن جحش ، فتزوج النبى أرملته زينب ، وعند ما مات أبو سلمة ، بعد ذلك بعام ، تزوج النبى من أرملته أم سلمة .

كانت زينب إبنة عمة النبى ، أميمة بنت عبد المطلب ، زينب مطلقة زيد

وقد اقترح النبى على أخيه تزويجها من زيد ، عبد النبى العتيق ، ولكن زينب وأخاها كرها ذلك ، لأن زيدا لم يكن إلا عبداً عتيقاً ، وما كانت تقاليد العرب قبل الإسلام لتسمح لأمثال زيد بمصاهرة الأسر العريقة المجد ، ولكنهما خضعا لإرادة النبى ،

Digitized by Birzeit University Library

وما كان هذا الزواج موفقا ، فبدأت الخلاف قويا ، واشتد حتى تقطعت الأوصال ، وذهبت محاولات الصلح أدراج الرياح ، وما بقى إلا الطلاق ، فلما تم ، شعر النبي بأنه هو المسئول عن هـــذا الزواج المحقق ، فتزوجها إرضاء لها ولذويها ، وتم ذلك فى السنة الخامسة للهجرة .

جويرية

ووقعت غزوة بنى المصطلق ، فى نفس العام ، ووقع فى أيدى المسلمين أسرى كثيرون ، من الرجال والنساء ، وكانت جويرية ابنة الحارث ، سيد القوم ، بين الأسرى ، وجاء الحارث إلى النبي ليفتدى ابنته : فدخل فى الإسلام هو وولداه ، و لما كان زوج جويرية قد هلك فى القتال ، فقد قبل أبوها تزويجها من النبي ، فاطلق المسلمون سراح جميع الأسرى من بنى المصطلق إكراماً للمصاهرة ، فما كان يليق أن يبقى من شرفهم النبي بالمصاهرة ، أسرى فى أيدى المسلمين .

أم حبيبة

كانت أم حبيبة بنت أبى سفيان حرب ، ممن هاجر إلى الحبشة فاعتنق زوجها المسيحية هناك ، ولما مات ، كانت أم حبيبة مازالت فى الحبشة ، فعادت فى السنة السابعـــة للهجرة إلى المدينة ، وتزوجها النبي .

صفية ومارية وميمونة

ووقعت صفية ، بنت أحد سادات اليهود ، أسيرة فى أيدى المسلمين فى السنة السابعة للهجرة ، وكان زوجها قد هلك فى القتال ، وكان اليهود مصدر قلق دائم المسلمين ، ففكر فى مصاهرتهم ، لعل ذلك يقف عداوتهم ، فأصبحت صفية لذلك ، إحدى أمهات المسلمين ، وأرسلت إليه فى نفس السنة : مارية القبطية ، هدية من المقوقس ، عظيم القبط ، فتزوجها النبي ، وولدت له إبرهيم ، وفى نفس السنة تزوج النبي من أرملة أخرى هى ميمونة التى عرضت خطبتها على النبي

تعدد الزوجات بين الابرار

لم تزوج النبي عدة مرات ؟ هذا هو السؤال الذي يشغل بال كثير من المفكرين ، فتنه بعضهم ، بلا تردد ، بالإسراف في اللذة ، لأنه تزوج أكثر من واحدة ، فهل يصدق أن الرجل الذي أتى بأعظم انقلاب روحي خلق ، في مدى عشرين عاما ، وبدل أمة بأسرها ، وطرد من جزيرة العرب النقائص والرذائل ، وقام وحده بما عجزت عن القيام به جميع الجهود التبشيرية ، وكان متحليا بفضائل الاخلاق ، حتى اعتبر القدوة الصالحة لعدد هائل من البشر ، هل يصدق أنه يهوى إلى حضيض اللذة والمتعة ؟ !

إن الرجل الفاضل هو الذي يداوم على الدعوة إلى الفضيلة ، فإن لم يكن فاضلا مل الدعوة ، وانصرف إلى ما يحب ، وهل يستطيع من يحبط في الظلام أن يهدي إلى النور؟ ومهما تكن نظرة هذا العالم المنغمس في الفضائح إلى تعدد الزوجات ، فما لا شك فيه أن جميع المرشدين ، والهادين قد تعددت زوجاتهم ، ومع ذلك اعترف الجميع لهم بأن حياتهم كانت القدوة للعفاف والطهارة ، فإن سيدنا إبرهيم ، الذي يبجله أكثر من نصف العالم إلى الآن ، تزوج أكثر من واحدة ، وكذلك فعل يعقوب ، وموسى ، وداود من أنبياء بني إسرائيل ، وكذلك عدد كبير من أئمة الدين في الشرق ، في الهند والصين وغيرهما ، ولا داعي لإقحام المسيح هنا فإنه لم يتزوج ، ولو اقتفى العالم أثره ، لانقرض سريعاً . ومما لا شك فيه أن هؤلاء الهداة المرشدين ، ما تعددت أزواجهم لمجرد المتعة الرخيصة ، بل التعفف كان غرضهم الأسمى ، وهذه الحقيقة وحدها ، جديرة بهدم كل دعوى ترمي إلى اتهامهم بالجري وراء المتعة ، وإن من العسير الوصول اليوم ، إلى الدافع الحقيقي الذي دفع هؤلاء المصلحين إلى تعدد الزوجات ، لما يحيط بتواريخهم من غموض ، ولكن لما كانت سيرة

النبي واضحة ساطعة ، ماثلة فى الأذهان ، ثابتة التاريخ . فإنه يمكننا مناقشة هذه النقطة بكل وضوح .

أربع فترات فى حياة النبي

يمكن تقسيم حياة النبي الأسرية إلى أربعة أقسام . كان أعزب حتى الخامسة والعشرين ، وعاش مع زوجة واحدة من الخامسة والعشرين حتى الرابعة والخمسين ، وتزوج عدة زوجات بين الرابعة والخمسين والستين ، ولم يتزوج من الستين إلى أن لحق بالرفيق الأعلى .

الفترة الأولى

إن فترة العزوبة ، هى أهم فترة يمكن بها دفع دعوى أن النبي كان عبداً لشهواته . فلو كان عبداً لها لما قبض على ناصية عواطفه وميوله الجنسية ، ولما عاش حتى الخامسة والعشرين حياة نموذجية من الطهر والعفاف ، جعلته يعرف بين مختلف القبائل بالأمين. تحكم فى ميوله الجنسية حتى الخامسة والعشرين ، فى بلاد حارة كبلاد العرب ، حيث يبلغ الفتيان مرتبة الرجال سريعاً ، وتكون عواطفهم فوارة ، وميولهم جامحة عنيفة ، وما استطاع أعداؤه ، فيما بعد ، عند ما خاصموه ، أن يذكروا حادثة واحدة تمس شرفه ، ومؤرخ نفسه يعترف بأن جميع المراجع متفقة على : « أن النبي فى شبابه طبع بالهدوء والدعة والطهر ، والابتعاد عن المعاصى ، التى كانت قريش تعترف بها » والشباب هو سن العواطف المتأججة ، الجامحة الثائرة ، فالرجل الذى يستطيع كبح جماح عواطفه وهو أعزب ، من المحال أن يجرى وراء الشهوة ، وقد بلغ سن الاكتمال والرزانة ، وعلى ذلك فالفترة الأولى من حياة النبي ، فترة الشباب والطهر ، دليل قاطع على استحالة أن يكون عبداً لشهواته ، ومما هو جدير بالملاحظة ، أن تقاليد العرب وقتذاك ، كانت تبيح الانحراف

Digitized by Birzeit University Library

الخلق ، لذلك لا يمكن أن يقال إنه تعفف بتأثير البيئة ، أو العادات المرعية ، لقد كان الانغماس فى اللذات شيئاً عاديا مألوفا يومئذ ، فلم ينغمس فيما انغمسوا فيه جميعاً ، وعاش عيشة طاهرة نقية ، وهذا وحده دليل على سمو خلقه ، ورفعته الشخصية .

الفترة الثانية

ولندرس الآن الفترة الثانية ، فترة الزواج من زوجة واحدة ، فقد تزوج فى الخامسة والعشرين من خديجة ، وكانت تكبره بخمسة عشر عاما ، فعاش معها عيشة إخلاص وورع ، حتى قبضها الله ، وكان فى الخمسين ، عاش معها وحدها ، فى بلاد قاعدتها العامة تعدد الزوجات ، وما كانت الزوجة لتشكو ، أو تتذمر ، إذا زوجها تزوج بزوجة ثانية أو ثالثة ، وقد أغناه زواجه من خديجة ، فكان فى وسعه أن يتزوج من أخرى ، ولكن تعدد الزواج لم يكن مقصوراً على الأغنياء ، فكان فى مقدور الفقراء التزوج من أكثر من واحدة ، وكانت الزوجة شريكة فى الحياة بمعنى الكلمة ، فهى تعاون زوجها على كسب معيشتها ، كما هى الحال فى الطبقات العاملة ، وعلى هذا فما كان الفقير ليخسر شيئاً ، إذا ما تعددت زوجاته . كان محمد من أعرق أسر قريش ، ولو شاء الزواج من أخرى ، لكان أمراً هيناً ميسوراً ، ولكنه عاش مع زوجة واحدة ، عيشة كلها إخلاص ، وألفة ، وود ، طوال حياتهما الزوجية : فلما ماتت ، تزوج من سيدة طاعنة فى السن ، هى سودة ، وكانت كل مؤهلاتها أنها زوجة أحد الذين هاجروا إلى الحبشة ، متحملين الأذى فى سبيل الدين .

وإن هذه الفترة ، فترة الخامسة والعشرين إلى الرابعة والخمسين ، هى فترة الزوجة الواحدة ، وهى القاعدة فى الحياة الزوجية .

Digitized by Birzeit University Library

الفترة الثالثة

فى السنة الثانية للهجرة ، بدأ القتال مع قريش ، والقبائل العربية الأخرى ، فأدى ذلك إلى قتل كثير من الذكور ، وعم عماد الأسر ، واستمرت هذه المعارك حتى السنة الثامنة للهجرة . وفى هذه الفترة بالذات تزوج النبى تلك المرات المتعددة ، التى قد تبدو غريبة أمام العقلية الحديثة ، ولكنها كانت أمراً عادياً لا غبار عليه ، ولا ينتقد ، ومن ذا الذى ينتقده إذا فهم أن الدافع إلى ذلك هو الرحمة والشفقة ، لا الجنوح إلى المتعة واللذة ، وقد اعترف أحد الكتاب المسيحيين بذلك ضمناً ، عند ما قال : « من الممكن تفسير تزوج النبى المرات المتتالية بشتى التفسيرات ، ولكن يجب ألا يعزب عن البال ، أنها كانت وليدة الشفقة والمؤاساة ، نظراً للحالة التعسة التى كانت عليها من تزوج منهن ، فقد كن من الأرامل ، لا مال لهن ولا جمال ، بل كن على النقيض من ذلك يستحققن كل عطف »

الظروف التى عاش فيها النبى

سبق لنا القول ، بأنه ما كان يخشى على رجل قضى حياة ، حتى الخامسة والخمسين ، وهو على خير ما يكون من الطهر والعفاف ، أن ينغمس بعد ذلك فى اللذات ، فإذا كانت فتنة النساء لا تؤثر فيه وهو فتى ممتلىء الشباب ، فكيف بها تأسره ، وهو رجل رزين ، كامل النضج العقلى ؟! قد عاش النبى طوال هذه السنين فى المدينة ، وما كانت حياته سهلة ممتعة ، بل كانت على العكس من ذلك ، حياة كفاح ونضال ، فقد كان فى هذه الفترة ، فترة تعدد أزواجه ، يخوض معارك لا تنقطع ، معارك موت أو حياة للإسلام والمسلمين ، لقد عوديت المدينة ، فى هذه الحقبة ، ومشت اليها جيوش لجب ، للقضاء على المسلمين ، ورمته العرب جميعاً عن قوس واحدة ، فما

Digitized by Birzeit University Library

كان النبي آمنا لحظة ، لقد كانت المعارك تلى المعارك ، وكل معركة أشد من سابقتها ، وكانت الغزوات تعد بسرعة ، وقال له أصحابه إنهم ملوا من حمل السلاح آناء الليل وأطراف النهار ، فكان يواسيهم ، ويطمئنهم ، ويبشرهم باقتراب زمن الاطمئنان ، الذى يتمكن فيه الراحل من قطع الجزيرة من أدناها إلى أقصاها ، دون الحاجة إلى حمل سلاح . وكان اليهود والنصارى كذلك يناصبونه العداء ، وكان خيرة أصحابه يقتلون الواحد إثر الآخر ، فى المعارك أو غيلة ، أفكانت هذه الحياة حياة لذة ومتعة ، أم كانت حياة شدة وكرب ، ما بعدها شدة وكرب ؟ وإذا شاء الجنوح إلى حياة اللذة والمتعة ، وهو ما لم يحدث بشهادة جميع الثقات ، أفكانت الظروف تواتيه ؟ إنها الحرب فى انتظاره دائماً ، الحرب مع المنافقين الذين يهددون بالانفجار الداخلى ، والحرب مع أعداء حافين به من كل جانب ، لقد كانت الأنباء تترامى إليه دائماً أن العدو يحشد جيوشاً هائلة للقضاء عليه وعلى الإسلام ، وكان عدد المسلمين ضئيلا ، فكان عليه دائماً أن يعمل على درء الخطر الساحق ، فلو أن هذه الظروف حاقت برجل ماجن ، لبدلته وغيرته ، فما بالك برجل شهد له الجميع بطهارته ونقائه ، رجل ما كانت لتؤثر فيه المغريات حتى تصيره ماجناً أو عبداً لشهواته .

كيف كان يقضى ليله

عرفنا كيف يقضى النبي نهاره فى كفاح مضن شديد ، فكيف كان يقضى ليله ؟ ! قد كان له عدد من الزوجات الحليلات المحصنات ، أفكان يقضى ليله يتمتع بهن ؟ استمع إلى شهادة القرآن ، وهو أصدق القائلين : « يا أيها المزمل ، قم الليل إلا قليلا ، نصفه أو انقص منه قليلا ، أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا ..... إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل ونصفه

Digitized by Birzeit University Library

وثلثه ، وطائفة من الذين معك ، والله يقدر الليل والنهار ، علم أن لن تحصوه ، فتاب عليكم . . . » وجاء فى الحديث أنه كان يقضى نصف الليل ، بل أكثر من نصفه ، فى الصلاة ، وتلاوة القرآن ، وكان يقرأ القرآن ، وهو قائم ، حتى تتورم قدماه ، فهل بعد هذا ، يمكن القول إن هذا الرجل الكريم ، إنما اتخذ هذا العدد من الزوجات للتمتع بهن ؟ كلنا يعرف أدق خصائص حياته ، لقد كانت نضالا كلها ، كفاحا كلها ، نصبا كلها ، ليس فيها متعة أو لذة حسية ./

بساطة حياته

لننتقل الآن إلى نقطة أخرى . ترى ، هل تبدل بعد أن أصبح عاهلا عظيما لأمة عظيمة ؟ ، لا والله . استمع إلى بوزورث سميث يصفه بعد أن أصبح عاهلا : « لقد ظل كما كان ، فهو هو راعى الأغنام الضارب فى الصحراء ، وهو هو الخارج فى تجارة خديجة إلى سورية ، وهو هو النافر المستوحش ، والمرشد الهادى لأمة بأسرها ، وظل كما هو لم يتبدل ، ولم يتغير ، وإنى لأشك كل الشك ، فى وجود رجل آخر ، تبدلت حياته الخارجية كلها مثل هذا التبدل ، وظل كما كان ، ولم يتأثر بهذا التبدل ويسايره ، كما حدث لمحمد ، فقد تبدلت الظواهر ، ولكن بقى محمد ثابتاً لا يتغير » .

تبدلت حياة النبى كلها ، فمن الضعف إلى القوة والسلطان ، ومن اليتم إلى الملك والجاه ، ولكنه لم يتبدل ولم يتغير ، بل عاش نفس العيشة البسيطة التى ألفها ، بساطة فى المأكل ، وبساطة فى الملبس ، بل بساطة فى كل شىء ، بقى كما كان يوم كان يتيما فقيراً ، وإنه لأمر جد عسير على النفس ، أن ينزل ملك عن عرشه ، ليحيا حياة الزاهد الناسك ، إنه أصعب على النفس أن يكون ذلك باختيارها ، يترك صولجانه ، عن طيب خاطر ، ليعيش زاهداً ناسكا ، وينفق ثروته ، لا على نفسه ، بل

Digitized by Birzeit University Library

فى خير الآخرين . أمامه مغريات كثيرة ، ولكنه ما كان ليلتفت إليها لما أصبح عاهل الأمة كلها ، ما كان أثاث داره ليزيد على سريره الذى ينام عليه ، وقد صنع من سعف النخل وقدرماء ، وكم من ليال نام فيها على الطوى ، وكم من أيام مرت دون أن توقد فى دار من دوره نار لطبيخ ، وما كان غذاؤه وغذاء أهل بيته إلا التمر والماء ، وما كان هناك ما يمنعه من أن يعيش عيشة دعة ، وراحة ، واستمتاع ، وترف ، فبيت المال ملك يمينه ، وأتباعه الأغنياء يتمنون أن يمدوه بكل ما يحتاج إليه من وسائل الراحة والمتعة ، لو شاء ، ولكن ما كان لهذه الدنيا وزن عنده ، فما بهرته الدنيا يوما ، لا فى أيام الشدة ، ولا فى أيام المتعة والرخاء ، لقد نبذ المال بعد أن دانت له الدنيا ، كما نبذ الجاه ، يوم عرضته عليه قريش ، وكان يومئذ ضعيفاً لا ناصر له .

بساطة حياة نساء النبى

لم يكن النبى وحده ، الذى يعيش هذه العيشة البسيطة المتواضعة ، بل شاركته أزواجه فى ذلك ، فلم يكن المال يستهوين ، وحدث أن تبدلت حال المسلمين بعد الهجرة ، فربحت تجارتهم ، وعادت فتوحاتهم عليهم بالغنم الكثير ، وحسبت أزواجه أنهن كسائر المسلمين ، من حقهن أن يستفدن من هذا الرخاء ، والخير العميم ، فتقدمن جميعاً إلى النبى ، ملتمسات حظهن من الراحة والنعيم ، فنزلت الآية : « يأيها النبى قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها ، فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحاً جميلا ، وإن كنتن تردن الله ورسوله ، والدار الآخرة ، فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيما » وبذلك أصبح أمامهن الخيار بين زينة الحياة مع السراح الجميل ، وبين البقاء بجانب النبى على ما هو عليه ، فإن اخترن الأولى ، منحهن كل ما يبغين ، ولكنهن يكن قد أخللن

بشرف الانتساب إلى النبي ، فهل يصدر مثل هذا عن رجل يتبع هواه وملاذه ، لو كان ممن يجرون وراء لذاتهم ، لأغدق على نسائه وهن سكنه وملاذه ، بما يرضيهن ويفرحهن . مما لاشك فيه ، أنه كان يحب أن يرى أزواجه يتمتعن كما يتمتع أزواج المسلمين ، ومما لاشك فيه ، أنه كان يحب أزواجه بدليل قوله : « خيركم خيركم إلى نسائه » هذه هي نظرته إلى المرأة ، فهو يعترف لها بحقوقها كاملة ، وهو نصيرها دائماً ، وقد تقدمت إليه نساؤه بطلب يبدو عادلا معقولا ، فهن يطالبن بحظهن فى الحياة . فأجابهن الجواب القاطع ، إن كنتن تردن الحياة ، أصبحتن غير لائقات لبيت النبوة ، فهل كان يقصر رجل محب للذاته عن إجابة مطالب زوجاته ، وهن مصدر لذته ، ومتعته ؟ إن هذا دليل قاطع على أن قلب النبي كان طاهراً ، لايدنسه أى شائبة من ميل جنسى ، إنه على استعداد لتطليق نسائه ، لمجرد ميلهن إلى زينة الحياة الدنيا ، وهذا دليل على أن غرضه من الزواج كان لأى شيء آخر غير المتعة الجنسية .

الفكرة الأصلية من زواجه حماية النساء

ولنلق نظرة أخرى على الحقائق التاريخية ، التى أدت إلى أن يتزوج النبي عدة مرات فى الخمس السنوات من السنة الثالثة إلى السنة السابعة للهجرة . قضى النبي قبل ذلك نحو ثلاثين سنة ، وهو زوج لواحدة ، ثم توالت المعارك بين المسلمين والمشركين ، وكان عدد المسلمين وقتئذ جد محدود ، وقد أخلت حالة الحرب الدائمة بالميزان العددى للرجال ، فكلما زاد عدد الشهداء ، زاد عدد الأرامل المحتاجات إلى الرعاية والكفالة ، وما كان الأمر ليقف عن حد القوت اليومى ، كما يعتقد بعض السياسيين قصار النظر ، بل كانت هناك غريزة جنسية يتطلب إشباعها ، وإن السياسيين الذين يغفلون هذه النقطة الهامة ، يقودون المجتمع ، إلى هاوية الفساد

Digitized by Birzeit University Library

الخلق الذى يقضى على الأمة كلها ، وإن النبى المصلح الذى يعتقد أن الأخلاق مفضلة على غيرها ، لن يقنع بتدبير الطعام والشراب للأرامل فحسب ، فقد كان يغار على حصانتهن ، ويهتم بعفافهن ، أكثر من اهتمامه بإشباع بطونهن . لذلك كان من الضرورى إباحة تعدد الزوجات ، وهذا ماحدا به إلى التزوج من عدة نساء ، إبان توالى الغزوات ، ومن الملاحظ أن من تزوجهن من الأرامل ، فلو أنه كان يجرى وراء اللذة الجنسية ، لتزوج أبكارا ، وماكان من العسير الحصول على العذارى . فياله من شرف عظيم أن يصبح آباء العذارى ، للنبى أصهاراً ، ولكن كان غرضه أنبل من كل ذلك ، كان يرمى إلى حماية زوجات أصدقائه الذين استشهدوا فى سبيل نشر دينه ، لقد كان تعدد الزوجات هو العلاج الواحد الناجع ، لما كانت عليه حال المسلمين يومئذ .

أسباب سياسية

وكان للسياسة دخل كبير فى تعدد الزوجات أحياناً . فتزوج بعضهن لغرض سياسى ومازواجه من جويرية من بنى المصطلق إلا لهذا الغرض ، وكذلك كان زواجه من صفية أرملة أحد سادات اليهود ، فقد كان النبى يرغب فى التأليف بين المسلمين واليهود . فتزوج منهما ، لعله يستطيع بهذا الزواج أن ينجح فى تحقيق غرضه .

ملابسات أخرى

أما زواج النبى من زينب ، فإنه يستدعى الاهتمام ، نظراً لما افترى على النبى بسببه ، كانت زينب ابنة عمة النبى . فلما بلغت الحلم ، عرضها أخوها على النبى للزواج منها ، ولكن النبى زوجها من زيد : عبده المعتق ، وكان يحبه حبا جما ، ولكن لم يكن هذا الزواج موفقا ، فرغب زيد فى تطليقها بعد مدة ، فسعى النبى لإقناع زيد بإبقائها ، وورد ذلك فى القرآن الكريم ، ولكن لم يكن بد من

Digitized by Birzeit University Library

الطلاق ، فطلقها زيد ، وكان الناس ينظرون إلى المطلقة نظرة غير مرضية ، وهذه سيدة من أسرة كريمة يطلقها عبد معتق ، فتزوجها النبي ليمحو الاعتقاد السائد بأن المطلقة تفقد شيئا من اعتبارها ، وقد رفع بعمله هذا من شأن المطلقات جميعا ، فلولا زواجه من زينب ، لشقين طوال حياتهن . عرضت عليه زينب أول الأمر ، فلو أنه كان عبداً لشهواته ، أو لو كان مغرماً بها لما رفض الزواج منها ، عند ما عرضت عليه فى بادىء الأمر وهى بكر ؛ رفضها فى أول الأمر ، ثم تزوجها بعد أن أصبحت مطلقة ، ينظر الناس إليها نظرة غير مرضية ، فدل بذلك على أنه ما كان يقصد من هذا الزواج المتعة ، واللذة الجنسية .

الفترة الرابعة

انتهت الحروب الداخلية ، باستيلاء المسلمين على مكة ، فى السنة الثامنة للهجرة ، على الرغم من وجود بعض القلاقل والاضطرابات التى ما كانت ذات بال ، فعادت الحياة فى جزيرة العرب إلى هدوئها ودعتها ، ومن هذه السنة : السنة الثامنة ، إلى أن لحق النبى بالرفيق الأعلى ، لم يتزوج أبداً ، فإن الثابت تاريخيا أن النبى لم تتعدد زوجاته إلا فى مدة الحروب ، عند ما كان عدد الذكور من المسلمين آخذاً فى النقصان ، وعند ما كانت الأرامل لا عائل لهن ولا كافل ، فأبيح تعدد الزوجات بشىء من التحديد . كان النبى قبل خوض المعارك زوجاً لواحدة فقط ، ولما انتهت الحروب ، لم يتزوج زوجة واحدة ، وفى هذا دليل ساطع قاطع عن الأسباب التى دفعت النبى إلى تعدد زوجاته ، فكان لكل زواج تم فى سنين القتال ، غرض سام خلق نبيل .

النبى بطبيعته لا يميل إلى الحروب أو تعدد الأزواج

عاش النبى فى بلاد ساد فيها نظام تعدد الزوجات ، ولكنه أمضى زهرة عمره ، حتى الثالثة والخمسين وهو زوج لزوجة واحدة ، وبذلك ضرب المثل

Digitized by Birzeit University Library

على أن القاعدة فى الأوقات العادية ، هى الزواج بواحدة ، ولكن إذا جدت ظروف توجب تعدد الزوجات ، فإنه يسمح بتعددها ، فما كان كبعض الخياليين العاطفيين ، الذين يطالبون بالتضحية بالواجب فى سبيل المبدأ ؛ لقد فطن إلى أن عفة النساء فى الميزان ، وإنها معرضة لأشد خطر ، إن لم يسمح تحت ضغط الظروف الطارئة بتعدد الزوجات ، وكان هذا هو الحال بالنسبة للقتال ، فما كان النبى يحب القتال ، ولكنه دفع إليه دفعاً ، لقد عاش أربعين عاماً ، قبل نزول الوحى ، فى بلاد اعتادت امتشاق السلاح ، فى كل مكان ، حيث القتال والأخذ بالثأر ، وحيث ينقضون على الغرماء كوحوش كواسر ، والويل لمن لا يحسن عن نفسه الدفاع .

خلال هذه السنين الطوال ، لم يسدد ضربة واحدة إلى إنسان ما : وكذلك كانت حاله ، خلال الأربع عشرة سنة الأولى للرسالة ، وهو محب إلى السلام بطبعه ، بدليل ماجاء فى القرآن : « فإن جنحوا للسلم فاجنح لها ، وتوكل على الله ، إنه هو السميع العليم ، وإن يريدوا أن يخدعوك ، فإن حسبك الله » ، وإن قبوله لصلح الحديبية على الرغم من نصوصه المجحفة ، وعلى الرغم من استعداد المسلمين للجود بدمائهم دون قبول هذه الشروط ، لدليل ناصع على طبيعته المحبة للسلام ، ولكن لما ناداه الواجب للذود عن عشيرته ، لم يتردد فى امتشاق الحسام ، لمنازلة عدو معتد ، يفوقه فى العدد ، فكانت تصرفاته فى الميدان تصرفات قائد محنك ، وكانت شجاعته تفوق شجاعة عامة المسلمين ، فعرف كيف يشتت قوات الغدو قبل أن تتجمع ويشتد ساعدها ، فتصبح قادرة على تسديد ضربتها القاضية إلى المسلمين ، وحدث فى غزوة حنين ، عند ما ارتدت قوات المسلمين ، تحت ضغط رماة الأعداء ، أن تقدم صوب

Digitized by Birzeit University Library

العدو ، يمشى وحده ، فالتف جنوده حوله من جديد . ما كان ميالا بطبيعته إلى النزال والقتال ، ولكن الظروف زجت به فى الميدان . فقاتل كما يقاتل أبسل الشجعان ، وأدار دفة الحرب كأحسن القواد المحنكين ، وما كان ميالا لتعدد الزوجات ، فقد عاش عيشة الطهارة حتى سن الخامسة والعشرين ، واكتفى بزوجة واحدة حتى الرابعة والخمسين من عمره ، ولكن ما ناداه الواجب ليضم الى كنفه أرامل لا عائل لهن ولا نصير ، حتى لبى نداء الواجب ، ومما يجدر ذكره هنا ، أن الآية القرآنية التى حددت عدد الزوجات بأربع ، قد نزلت بعد زواج النبى بزوجاته جميعاً ، وسمح له باستبقاء زوجاته كلهن : «يأيها النبى إنا أحللنا لك أزواجك اللاتى آتيت أجورهن ، وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك وبنات عمك ، وبنات عماتك ، وبنات خالك ، وبنات خالاتك ، اللاتى هاجرن معك ، وامرأة مؤمنة ، إن وهبت نفسها للنبى ، إن أراد النبى أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين ، قد علمنا ما فرضنا عليهم فى أزواجهم ، وما ملكت أيمانهم ، لكيلا يكون عليك حرج ، وكان الله غفوراً رحيما » . وما تزوج من جديد بعد تحديد عدد الزوجات . « لا يحل لك النساء من بعد ، ولا إن تبدل بهن من أزاوج ولو أعجبك حسنهن ، إلا ما ملكت يمينك ، والله على كل شىء قدير . »

الفصل الثالث والثلاثون

أخلاق النبي وطباعه

« إنك لعلى خلق عظيم » .
« لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخـــر ، وذكر الله كثيرا » .

النبي أسوة حسنة

قالت عائشة زوج النبي ، العليمة بدخائل نفسه ، إن خلق النبي صلى الله عليه وسلم ، مستمد من القرآن ، وكانت حياته اليومية صورة صادقة للتعاليم الإسلامية ، والمثل الحى لكل ما جاء به القرآن الكريم . ولما كان كتاب الله ما نزل إلا ناموساً للخلق السامى . والنهوض بأخلاق البشر ، كانت حياة النبي صورة باهرة لهذه المبادىء السامية . فكان أمام المسلمين كتاب الله يستمدون منه المبدأ ، ورسول الله يستوحونه التفسير .

تواضع النبي

الإخلاص ، وحسن النية والأمانة ، هى صفات النبي الأولى ، فقد كان يحب الفضيلة للفضيلة ، وما كانت أخلاقه العالية من كسب نفسه ، ولكنها ولدت معه . فكانت سجية فيه ، وكان إذا أحسن إلى فقير ، وضع بنفسه فى يد السائل ما تجود به نفسه ، وكان يساعد أزواجه فى أعمالهن المنزلية ، فكان يحلب شاته بيده ، ويرقع ملابسه بنفسه ، ويصلح نعله ، وكان يقوم بتنظيف داره ، ويعنى بناقته

Digitized by Birzeit University Library

وما كان يترفع عن القيام بأى عمل وإن كان بسيطاً . فقد عمل فى تشييد المسجد ببده ، كما عمل سائر المسلمين . وحفر معهم الخندق لحماية المدينة . وحمل التراب على عاتقه ، وكان يشترى حاجات أصدقائه وجيرانه : وبالاختصار ، كان النبى يقوم بأتفه الأعمال ولم يحل دون ذلك مركزه السامى كنبى أو ملك ، فضرب بذلك مثلا طيباً على أن عظمة الرجل لا تكون بعظمة مركزه ، بل بعظمة أفعاله . فإن كان صالحاً يحسن معاملة الغير ، كان نبيلا ، بغض النظر عن مركزه ، أو ثرائه . فما كان الإخاء الإسلامى ليفرق بين العامل وجامع الأحطاب والسقاء ، وبين الرجل العظيم المحتد ، والتاجر الثرى .

البساطة شيمته

كان النبى بسيطاً فى جميع أفعاله . فما كان يعرف الخيلاء والعظمة ، فهو عدو التكلف . فإذا ركب . ما كان ليأنف من أن يردف خلفه . وروى قيس بن سعد أن النبى زار والده مرة . وعند انصرافه قدم سعد حماره إلى النبى ليمتطيه فى عوده ، وخرج قيس على قدميه خلف النبى . ولكن النبى ألح فى أن يركب قيس معه . وأن يركب أمامه ، لأن لصاحب الدابة حق الامتياز . وكان ينهى أصحابه عن الوقوف له إذا قدم . قال : « لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضا » . وأراد رجل أن يقبل يده فسحبها . فما كانت عادة تقبيل اليد من عادات العرب ، وكان إذا استضافه عبد قبل ضيافته . وكان يأكل مع الناس ولو كانوا عبيداً ، وكان كثيراً مايسكت إذا اجتمع الناس إليه ، فلا يتكلم إلا إذا دعت الحاجة للكلام ، وما كان يؤثر نفسه على غيره ، فاذا مشى ، مشى الناس من حوله ، ومن خلفه ، ومن أمامه لافرق بينه وبينهم أبدا ، وكان إذا جلس بينهم ، جلس فى مكان عادى ، فما كان يتخذ مكاناً ظاهرا أو بارزاً ، حتى إن الغريب ما كان يعرف مكانه منهم ،

Digitized by Birzeit University Library

فإذا رام أن يقصده ، كان عليه أن يسأل أيهم النبي ، ولم يحدث قط أنه قاطع متحدثاً ، وكان يشارك المسلمين فى مزاحهم البرىء ، وكان إذا تكلم تكلم بهدوء ، حتى لكان من المستطاع عند ما يتكلم أن يعدما ينطق به ؛ كان إذا سار ،سار مسرعا ، حتى إن أصحاب كانوا يهرولون لمسايرته .

الطعام

وظهرت بساطة النبى فى الطعام ، فكان يأكل من كل ما يقدم إليه ، مهمـــا كان متواضعاً ، فإذا لم يرضه ما قدم إليه كف عن الطعام ، دون أن يعيبه ، وكان يأكل التمر والشعير ، والقمح ، واللحم ، واللبن ، وإن حدث أن دعى الى وليمة ، فإنه كان يلبى الدعوة ، ولكن ما كان يتناول إلا من صنف واحد ، وكان يحب النظافة . وعرف عنه ميله إلى العسل والقرع من الخضراوات ، وكان يكره البصل والثوم والمأكولات ذات الرائحة النفاذة ، وكان إذا جلس إلى الطعام ، لا يميل ولا يضطجع ، وكان إذا دعى إلى وليمة ، واصطحبه نفر ممن لم يدعوا ، فإنه كان يدلى بملاحظة رقيقة غاية فى الرقة رأفة بالداعى ، فكان المتطفلون يفهمونها ، وكان الداعى يفهمها أيضا ، ولكنها ما كانت لتخدش أحداً . وكان يغسل يديه قبل الطعام وبعده ، وكان يعتنى بتنظيف فمه .

ملابسه

كانت ملابسه هى الأخرى فى غاية البساطة ، فما كان ليأنف أن يرتدى ثوباً مرقوءا ، وما كان يتعمد عدم لبس ثوب جميل ، ولكنه كان يكره رؤية الرجال يرفلون فى الحرير ، فإنه يحب أن يراهم رجالا كاملين . وكان شديد الاعتناء بنظافة ملابسه ، ولم يأمر بصنع خاتم له ، إلا عند ما احتاج إليه ، لختم رسائله إلى الملوك ، ثم لبسه بعد ذلك دواما .

Digitized by Birzeit University Library

عدم اهتمامه بالكماليات

كان مسكنه عبارة عن غرفة صغيرة بنيت بالآجر ، وليس فيه من الأثاث سوى الفراش وجرة ماء ، وكانت هذه معيشته اليومية ، حتى بعد استيلائه على خيبر ، وعندما تزوج من صفية ، لم يكن يملك نفقات الوليمة لأصدقائه ! فطلب منهم إحضار طعامهم معهم ، فكان طعام الوليمة ، التمر والشعير ، وكانت تنقضي أيام وأيام ، ولا يوقد في بيت من بيوته نار ، لا لطبخ ولا لسواه ، فكان غذاء أسرته التمر والماء ، وكان ينظر الى الدنيا كدار ممر ، وقال يوما : « مالي وللدنيا ، مامثلي ومثل الدنيا إلا كراكب سار في يوم صائف ، فاستظل تحت شجرة ساعة من نهار ، ثم راح وتركها .

نظافته

كانت البساطة والنظافة من سمته ، فكان يسوك أسنانه عدة مرات في اليوم الواحد ، وكان يغتسل كثيراً ، فكان جسمه نظيفاً دائماً ، وكان يتطيب .

حبه لأصدقائه

وكان حبه لأصدقائه خالصاً عميقاً ، فكان إذا صافح أحدهم ، لا يسحب يده ، حتى يسحب الآخر يده ، وكان يبش للجميع ، وقد ذكر جرير بن عبد الله ، أنه لم ير النبي إلا باسم الثغر ، وكان يلاطف أصحابه ويمازحهم أحياناً ، وكان يتكلم ببساطة ، وما كان يحب التكلف في الكلام ، وكان يمقت التفاخر ، وكان يحمل أبناء أصدقائه ، فكانوا يبولون أحيانا ، فما كان التكدر يعلو وجهه ، وكان من أعداء النميمة ، فما كان يسمح لزائريه بالخوض في الغائبين ، لكنه كان يحسن الظن بالجميع ، وكان البادىء دائماً بالتحية والمصافحة ، وكان ينادي أصحابه أحيانا بكنيتهم المحببة اليهم ، وكان إذا تصادق مع إنسان ، فإنه يستمر على صداقته أبدا ، فكان أبو بكر أحب أصدقائه إليه ،

Digitized by Birzeit University Library

وكان يذكر خديجة بالخير . حتى بعد موتها ، وقد فضل زيد عبده المعتق ، البقاء بجوار النبي على العودة إلى أهله وذويه ، وكان يمد يد المساعدة إلى كل محتاج فى السر ، دون أن يعلم أحد ، وكان يشير فى خطبه إلى أخطاء الناس . دون أن يشعر أحد أنه المقصود ، وكان يمقت النفاق والتملق والكذب ، وكان كثير التغاضى عن هفوات الناس ، لا يعبأ بها ، بل كان يستغفر لهم . وعند ماترك الرماة ، فى غزوة أحد . موقفهم الذى أوصاهم بعدم تركه ، مما أدى إلى قتل أحبابه وأصحابه . وجرحه جرحاً بليغاً ، لم يوقع بهؤلاء الذين أخلوا بإطاعة الأوامر ، أى عقاب . وكذلك فعل مع الذين فروا من الميدان .

كرمه مع أعدائه

إن كرم النبي عموما ، ومع أعدائه خصوصاً ، لشيء فريد ، لم يرد فى التاريخ له مثيل . كان عبد الله بن أبى عدواً ألد للإسلام . يقضى الليل والنهار فى تدبير المؤامرات والمكايد للإسلام والمسلمين ، والعمل على تأليب اليهود والعرب عليهم ، وعلى الرغم من ذلك صلى النبي عليه بعد موته ، يطلب له من الله الرحمة والغفران ، بل إنه خلع قميصه ليكفن عبد الله به ، وعفا عن أهل مكة الذين طالما آذوه وعذبوه هو وأصحابه ، ومن السهل تصور ماينزله فاتح منتصر بمن عذبوه وطردوه ! ولكن رحمة النبي لاحد لها ، نسى عذاب ثلاث عشرة سنة ، وغفر لأهل مكة جميعاً ، وأطلق سراح الأسرى البالغ عددهم ستة آلاف أسير فى غزوة من الغزوات . دفعة واحدة ، وروت عائشة أنه ما انتقم أبداً لإساءة وقعت عليه شخصياً ، وفى حالات نادرة أوقع العقاب بمرتكبى الإساءات . بعد أن يئس من إصلاحهم ، وبعد أن بان غدرهم وخيانتهم ، وبعد أن أيقن أن فى تركهم تشجيعا على الإساءة والطغيان ، وقد شمل

كرمه وبره ورحمته جميع الناس ، فلم يفرق بين يهودى ونصرانى ، بل إن كرمه شمل الوثنيين ، فما قصر إحسانه على قومه .

المساواة المطلقة بين الجميع

كان النبي يعنى بتطبيق العداله ، ويساوى مساواة مطلقة بين الجميع ، لافرق بين مسلمين وغير مسلمين ، أصدقاء أو أعداء ، كان الجميع متساوين أمامه . وكانت نزاهته وأمانته وعدله مضرب المثل ، حتى قبل نزول الوحى عليه ، فكانوا يحتكمون إليه ، للفصل فى منازعاتهم ، وكان أهل المدينة ، من يهود ووثنيين ، يحتكمون إليه كلما شجر بينهم خلاف ، وعلى الرغم من حقد اليهود على المسلمين ، إذا وقع خلاف بين مسلم ويهودى ، كانا يحكمان النبى ، ويرضيان حكمه . فكان يقضى لصاحب الحق دائماً ، بغض النظر عن دينه ، ومع علمه أن حكمه ضد المسلم قد يثير عواطف قبيلة بأسرها نحوه ، ولكنه ما كان ليلتفت لشيء عند الفصل والخصومات ، واضعاً الآية القرآنية نصب عينيه : « ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى » . وقد أنذر ابنته فاطمة بأن أعمالها وحدها هى الشفيعة لها يوم القيامة . وقال فى ذلك : « لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » وقال وهو على فراش الموت . « من كان له حاجة عندى فليأخذها ومن كان له حق عندى فليأخذه » .

تواضعه

كان النبي يعامل الناس كأنه رجل منهم ، لايزيد عليهم فى شىء ، فما وضع نفسه فى مرتبة أعلى من مرتبتهم أبداً ، وحدث وهو سيد المدينة الوحيد ، أن جاءه يهودى كان يدينه ، وطلب منه تسديد الدين فى غلظة وخشونة ، قائلا إن جميع بنى هاشم لايدفعون مايستدينونه من الناس ، فغضب عمر ، ونهر اليهودى لقحته ، ولكن النبى أخبر عمر

Digitized by Birzeit University Library

إنه كان من الواجب عليه أن ينبههما كليهما ، أن ينبه النبي إلى دفع الدين وشكر دائنه ، وأن يلفت نظر الدائن إلى طلب دينه بالحسنى ، ودفع النبي دينه إلى اليهودى وشكره ، فأثرت أخلاق النبي الحميدة فيه ، فاعتنق الإسلام .

وحدث أن خرج النبي مع أصحابه يوماً ، ووافى ميعاد تجهيز الطعام ، فقسموا العمل فيما بينهم ، فاختار النبي أن يخرج لجمع الأحطاب : لقد كان سيدهم ونبيهم ، ولكنه قام بنصيبه من العمل كواحد منهم . وإن معاملته لخدمه لخير دليل على عدله المطلق ، وقد روى أنس أن النبي لم يزجره مرة واحدة خلال العشر السنوات التى قضاها فى خدمته ، وما حدث قط أنه عنف خادماً لخطأ ارتكبه ، وما احتفظ بعبد أبداً . فكان يعتقه بمجرد أن يصبح ملك يمينه ، وما ضرب عبداً أو امرأة طوال حياته .

عطفه على الفقراء والضعفاء

ومن الثابت أن النبي لم يرد سائلا أبداً ، فإذا لم يكن عنده ما يعطيه إياه كان ينتظر فرج الله ، أو يستقطع من نصيبه ويعطى من سأله ، وكثيراً ما كان يطعم الجائع ، ويبقى هو بلا طعام ، وما احتفظ بمال قط . فلما كان على سرير الموت كان عنده بعض المال ، فأمر أن يوزع على الفقراء ، وكان يعطف على ذوى العاهات ، وقال عن رجل قدم الماء إلى كلب يلهث من العطش إن له الجنة ، وقال فى حديث له إن امرأة عذبت فى قبرها لأنها كانت تحبس قطتها فلا تطعمها ولا تتركها تطعم من رزق الله ، وكان النبي منذ نعومة أظفاره شديد الحدب على الأرامل واليتامى والعاجزين ، وكان يقول عن الذين يعطفون على اليتامى إنهم قريبون منه قرب السبابة من الوسطى ، والقرآن الكريم ملىء بالآيات التى تحض على العطف على

Digitized by Birzeit University Library

الذى يكذب بالدين ، فذلك الذى يدع اليتيم ، ولا يحض على طعام المسكين » . وكان النبى يتحمل المكاره صابراً ، ولكنه كان يتأثر لغيره أكثر مما يتأثر لنفسه ، فكان نصير الضعفاء الدائم ، وكان يطالب بحقوق المرأة دواماً ، وحقوق الموالى ، والرعية والشعب ، وكان يحب الأطفال حباً جماً ، فاذا مر بهم فى طريقه ، مسح على أكتافهم وبش لهم . وكان يعود المرضى ويؤاسيهم . ليخفف عنهم آلامهم ، وكان يشيع الجنازات .

كرم ضيافته

كان النبى كريماً إلى أقصى حدود الكرم ، فكان يحسن إلى ضيوفه فكان يخدمهم بنفسه ، فإذا ما زادوا على قدرته ، كان يوزعهم على أصحابه ، الذين كانوا يتمثلون بالنبى ، فكانوا يكرمونهم ، ويبالغون فى إكرامهم ، وكثيرا ما كان أصحابه يقدمون لضيوفه كل ما فى دارهم ، وينامون على الطوى .

وداعة النبى

لم تخرج كلمة سباب واحدة من فم النبى أبدا ، بل لم يتفوه بكلمة سيئة ، فلما كان يرى أن من الواجب إرشاد الناس إلى خطئهم ، وكان يرشدهم إليه بطريقة رفيقة مهذبة ، لا يجرح أحداً أو يمس أحداً .

كان اليهود يحيونه بقولهم : « السام عليكم » بدلا من قولهم : « السلام عليكم » ، وحدث أن سمعتهم عائشة مرة ، فقالت لهم : قاتلكم الله ، ولكن النبى نهاها ، لأن الله لا يحب القول الغليظ .

صدقه وأمانته

اشتهر النبى فى جميع أنحاء جزيرة العرب بنزاهته ، وصلاحه ، وإخلاصه ، وتقواه ، وقد سموه بالأمين ، حتى أن عدوه الألد أبا جهل ، اعترف بأنه لا يستطيع أن يقول إن محمداً قد كذب مرة واحدة طوال حياته كلها ، ولكنه لا يعترف

Digitized by Birzeit University Library

برسالته ، وقد اعترف النضر بن الحارث بصلاحه وتقواه ، وقال لقومه إن محمداً كان أصدقكم وأكثركم أمانة لما كان فتى ، أو ترمونه بالسحر لما اكتمل وجاءكم برسالته ! وكان النبي يوفي بوعده الذي قطعه مهما كانت الظروف ، ومهما كلفه ذلك ، وقد ارتبط في صلح الحديبية بشرط يوجب رد المسلمين اللاجئين إلى المدينة بدون إذن وليهم ، وقد نفذ هذا الشرط تماما ، في ظروف قاسية ، كانت دموع المسلمين تنهمر فيها تأثراً وشفقة ، على إخوانهم الذين يردون إلى العذاب كما سبق سرده . وكانت عفته وتقواه مثلا يحتذى ، فقد ظل طاهر الذيل وهو أعزب حتى سن الخامسة والعشرين ، وإن أشد أعدائه لم يجد طوال هذه الحقبة ، ما يخدش سمعته ، أو يغير صحيفته البيضاء الساطعة النقية .

عفوه وغفرانه

العفو والمغفرة صفات بارزة من صفات النبي الكريمة العديدة ، وقد كانت ظاهرة ، واضحة ، في حياته كلها ، وقد حضه القرآن الكريم على المسارعة إلى العفو ، قال الله تعالى : « خذ العفو ، وأمر بالمعروف ، وأعرض عن الجاهلين » ؛ وما كان النبي ليهمل أو يتغاضى عن أمر جاء به القرآن ، فكان العفو دستوره . فلما خرج في غزوة أحد ، وسقط في الحفرة ، طلب منه أحد أصحابه أن يستنزل على أعدائه اللعنة ، ولكن النبي قال : « اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون » وإن صفحه عن أهل مكة جميعاً بعد استيلائه عليها ، لعفو فريد ، لا مثيل له في تاريخ العالم أجمع ؛ حاول أهل مكة القضاء على الإسلام ، وحاولوا قتله أكثر من مرة ، ولكنه لم يسمعهم كلمة تأنيب واحدة لما أصبحوا في قبضة يده ، بل قال لهم : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » . وكان أبو سفيان الذي لم يدخر جهداً للنيل من الإسلام والمسلمين ، وزوجه هند التي مثلت بعمه حمزة أبشع تمثيل ، ممن شملهم العفو .

Digitized by Birzeit University Library

بساطته ووداعته وحياؤه

كان النبي جم الحياء . وكان أصحابه يقولون عنه إنه أخفر من فتاة عذراء ، وقد شهد القرآن بذلك ، فقد حدث أن بعضهم كانوا يأتون أشياء تؤذى النبي ، ولكنه ما كان ينهاهم حياء منهم ، فنزل القرآن : « إن ذلك كان يؤذى النبي فيستحى منكم » ، وما كان النبي يشير إلى خطأ إنسان معين ، بل كان يتكلم على التعميم ، وحدث أن رأى بقعة فى ثوب أحدهم ، فسأل أصحابه أن يسألوه أن يغسلها . وكان النبي يعتبر البساطة ركناً من أركان الدين ، وما كان يسكت إذا تناقش اثنان فى الدين ، فإنه كان يهديهما إلى الصراط المستقيم ، ولما مات ابنه إبراهيم ، احتجبت الشمس ، فقالت عامة المسلمين إن السماء قد حزنت عليه ، فلما بلغ ذلك النبي ، خطب الناس وقال : إن الشمس القمر آيتان من آيات الله لا تنكسفان لموت أحد .

حنانه ورقة عواطفه

كان النبي رقيق القلب ، مرهف الحس ، فكان يهتصر قلبه حزناً على مواطنيه ، الذين هووا إلى الدرك الأسفل من الانحطاط ، وقد شهد القرآن بذلك فى سورة الأحزاب : « لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين » فكان شديد الاهتمام بجماعة المسلمين ، وكثيراً ما كان يصلى من أجلهم ، وكان يؤاسيهم إذا نزلت بهم النوائب ، وإذا أسدى أحدهم إليه معروفا لا ينساه له طول حياته ، وكان يصل صديقات خديجة بالهدايا ، وفاء لذكراها العطرة ، ولما جاء وفد النجاشى إلى المدينة ، قام بخدمتهم ، وعمل كل ما فى وسعه لضمان راحتهم ، وكان أصحابه على أتم استعداد لخدمة وفد النجاشى ، ولكنه رأى أن يخدمهم بنفسه اعترافا منه بفضلهم ، وحسن وفادتهم للمسلمين الذين هاجروا إلى بلادهم ، وعند ما وقعت ابنة حاتم الطائى فى الأسر ، أمر بإطلاق سراحها ، فما يليق أن تؤسر ابنة من رفع ذكر العرب

Digitized by Birzeit University Library

فى الكرم والجود ، وأطلق سراح جميع من أسر معها ، إكراما لها .

احترامه للجميع

كان يحترم الجميع ، لافرق بين كبير وصغير ، فكان يقف لتحية أمه فى الرضاعة ، وأخته فى الرضاعة ، وقد فرش لهما رداءه ليجلسا عليه ، وكان يحترم فاطمة ابنته ، وكان يقول : « احترموا أبناءكم » وكان شديد الاحترام للأمومة . فكان يقول : « الجنة تحت أقدام الأمهات » .

شجاعته

كان النبى جم التواضع ، كثير الخجل ، ولكنه كان شجاعا منقطع النظير ، وكانت شجاعته تفوق شجاعة أشجع الرجال ، فما خاف أعداءه لحظة واحدة ، حتى إبان التآمر فى مكة ، فكان يغدو ويروح ، نهاراً وليلا ، لا يخشى أحداً ، ولا يهاب غدراً . ولما اشتدت البأساء على المسلمين ، أشار عليهم بالهجرة إلى الحبشة ، وبقى وحده ، محفوفا بالأعداء المجرمين . ولما خرج إلى يثرب واختبأ فى الغار ، ولحق به متعقبوه حتى باب الغار ، لم يعرف الخوف إلى قلبه سبيلا ، وكان يواسى أبا بكر بقوله : « لا تحزن » وعند ما تفرق الرجال فى أحد ، صاح فيهم على الرغم مما كان يحيق به من الخطر ، ليجمع شملهم ، وفى حنين عند ما فر المسلمون ، مشى وحده إلى الأعداء ، وتقدم الصفوف وهو يصيح : « أنا رسول الله » ، وفى إحدى الليالى ، أيام كان المسلمون يترقبون إغارة القرشيين عليهم ، كان النبى أول من خرج للاستطلاع راكباً فرساً عريا ، وفى إحدى السرايا ، كان النبى مستنداً إلى شجرة يستظل بها ، ففاجأه أحد الأعداء ، وقال له ، « من ينجيك منى يدى الآن؟ فلم يرتجف النبى ، ولم يبد عليه أى أثر للخوف أو الاضطراب ، بل أجابه فى هدوء : « الله » . والغريب أن العدو المهاجم قد ارتجف وسقط

Digitized by Birzeit University Library

السيف من يده ، فالتقطه النبي وقال له : « من ينجيك من يدى الآن ؟ » ، فارتجف الرجل ، وانهارت شجاعته ، فعفا النبي عنه .

حزمه وثباته

إن سيرة النبي — سواء ما كتبه الأعداء والأصدقاء — لتتفق على الإعجاب بحزمه وثباته فى أشد المواقف حرجا ، فما عرف اليأس أو القنوط أبداً ، كان أعداؤه يحفون به من كل جانب ، وقبائل العرب الثائرة تتربص به الفرص للقضاء عليه ، ولكن إيمانه بنصر قضية الحق أخيراً لم يتزعزع لحظة . وما تمكنت العواصف والاضطهاد والعسر والضيق أن تصرفه قيد أنملة عن عزمه . كان يبذل كل ما فى وسعه ، ثم يتوكل على الله . وما كان ليحزن أو يضطرب إذا ما دارت عليه الدوائر ، ولم يعرف اليأس أبداً ، فإنه بعد موقعة أحد بيوم واحد ، كان منتصراً فى الميدان ، بل كان يجد فى أثر العدو ويتعقبه . وعلى العموم ، كان على الرغم من جميع الصعاب ، ومن شدة الأهوال ، يعتقد اعتقاداً جازماً أن الله ناصره ، وناصر دينه .

Digitized by Birzeit University Library

الفصل الرابع والثلاثون

مميزات النبي الصالح

أنجح الرسل فى تأدية رسالته

أرسل الله الرسل والأنبياء، منذ خلق الخليقة، إلى مختلف الشعوب، فى مختلف العصور، وكان محمد صلى الله عليه وسلم، خاتم المرسلين، وسنذكر أهم الدلائل التى تبرهن على صدق رسالته: إن توفيقه الهائل فى تأدية رسالته لأول هذه الدلائل، وقد اعترف بهذا التوفيق الأصدقاء والأعداء، على السواء، ويكفى أن نطلع على ماكتبته دائرة المعارف البريطانية Encyclopaedia Britanica الطبعة الحادية عشرة، عن كلمة القرآن لنتثبت من ذلك: «كان محمد أظهر الشخصيات الدينية العظيمة، وأكثرها نجاحاً وتوفيقاً»: ظهر النبى فى وقت كان العرب فيه قد هووا إلى الحضيض، فما كانت لهم تعاليم دينية محترمة، ولا مبادىء مدنية أو سياسية أو اجتماعية، ولم يكن لهم مايفاخرون به، من الفن أو العلوم، وما كانوا على اتصال بالعالم الخارجى، وكانوا مفككين، لارابط بينهم، كل قبيلة وحدة مستقلة، وكل منها فى قتال مع الأخرى، وحاولت اليهودية أن تهديهم فما استطاعت، وباءت محاولات المسيحية بالخيبة، وخابت الحنيفية التى ظهرت ظهورا ضئيلا، كما خابت جميع المحاولات السابقة للإصلاح؛ ولكن ظهر النبى محمد، الذى أرسل هدى للعالمين، فاستطاع فى سنوات معدودات أن يقتلع جميع العادات الفاسدة، فى جزيرة العرب، وأن يرفعها من الوثنية المنحطة إلى التوحيد، وحول أبناء العرب الذين كانوا أنصافا

Digitized by Birzeit University Library

برابرة ، إلى طريق الهدى والعرفان ، فأصبحوا دعاة هدى ورشاد ، بعد أن كانوا دعاة وثنية وفساد ، وانتشروا فى الأرض يعملون على رفع كلمة الله ، وعبدوا الله حق عبادته ، حتى فاقوا النساك الزاهدين ، ولكنهم كانوا يأخذون حظهم من الدنيا ، فإذا ما أذن للصلاة تركوا التجارة والبيع وتوجهوا إلى الله رب العالمين ، وكانوا يقضون القسم الأكبر من الليل فى عبادة وتسبيح ، وكانوا خاشعين لله حتى فاقوا النساك المنقطعين فى الصوامع للتعبد . فسموا بفضل الإسلام إلى ذروة السمو الخلق . وكانت أعمالهم فى دنياهم مصداقا لتقواهم ، فاحتلوا مكاناً مرموقا بين غزاة العالم العظام ، فقد ذابت الإمبراطوريات العظمى تحت حرارة إيمانهم كما يذوب الجليد تحت حرارة الشمس اللافحة . ولم يكتفوا بغزو الأقطار الشاسعة ، بل أقاموا أركان دولة عظيمة دامت اثنى عشر قرنا . قوية عزيزة الجانب ، بغض النظر عن الأجيال التى تضعضعت أخيراً .

لقد وصل المسلمون إلى ذروة السمو الروحى ، والرخاء الاقتصادى ، وتثقفوا بعلوم الإسلام ، التى فاض خيرها على العالم أجمع ، فى ذلك الوقت ، والتى تغلغل ضوءها ليبدد دياجير الجهل المتفشى فى كل مكان . وإنه لعجيب حقاً أن يتم كل هذا فى عشرين عاماً فقط ، إذن لقد كانت تعاليم النبى سهلة من الميسور الأخذ بها ، وناجعة قاضية على جميع العلل الاجتماعية والأمراض الخلقية . وليس الطبيب البارع من يدعى أنه الطبيب الأول ، بل الطبيب البارع من يشفى أكبر عدد من الحالات المستعصية . كذلك المصلح الناجح ليس من يدعى أنه المصلح الأول بل من يقوم بإصلاح العالم و يهديه إلى الصراط المستقيم . وهذا هو الذى رفع النبى فوق هامات المصلحين والهادين فى أعين المفكرين من ذوى العقول الناضجة .

Digitized by Birzeit University Library

رسالته إلى الناس كافة

والميزة الثانيـــة التى تجعله مبرزاً بين المصلحين والرسل ، هى أنه أرسل إلى العالم كافة ، فإن رسالته عالمية ، على عكس الرسل الآخرين ، فقد أرسل كل رسول لأمة واحدة خاصة ، وقد كان فى يد كل منهم كتاب ، ولكنه كان كتاباً لشعب معين ، وكان غرض كل منهم تطهير النفس الإنسانية ، ولكن كان عملهم محدوداً . أما النبى محمد صلى الله عليه وسلم فقد أرسل إلى الناس كافة ، وكانت رسالته عالمية ، قال الله تعالى : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » ، و « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً » ، و « تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً » ، و « قل يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً » . هذه بعض ما جاء فى عالمية رسالة النبى محمد صلى الله عليه وسلم ، وأنه ما أرسل إلا هدى للعالمين ، ويقول القرآن أيضاً : «وما تسألهم عليه من أجر إن هو إلا ذكر للعالمين» .

كانت البشرية فيما مضى منقسمة إلى أقسام منفصلة ، لا ارتباط بينها ، وكانت وسائل المواصلات جد محدودة ، فما كان من المأمول فى مثل هذه الظروف ، أن تنتشر فكرة روحية بين الشعوب المتباعدة ، بل كان من المنتظر أن تظل كل فكرة حبيسة فى موطنها ، لذلك كانت إرادة الله متمشية مع الظروف ، فكانت رسالة الرسل لشعبهم فقط المنفصل عن العالم ، فكانت كل رسالة تناسب الشعب الذى نزلت له ، وتتفق مع حاجاته ، وقام كل رسول منهم بما طلب منه ، فدعا قومه لعبادة الله ، ولما كانت رسالتهم محدودة ، فقد كانت قوتهم الروحية محدودة أيضاً ، فكان نور رسالة كل منهم يلمع فترة ، ثم يخبو رويداً رويداً حتى ينطفىء ، فتعود الحاجة إلى ظهور نور جديد يبدد ظلمات الجهل التى يتراكم بعضها فوق بعض . وهكذا ظهر الأنبياء بعضهم فى أثر بعض ،

Digitized by Birzeit University Library

وكان من نتيجة إرسال كل رسول إلى أمته ، أن جهلت كل أمة بمن أرسل إلى غيرها من الرسل ، فظن كل شعب منها أنه شعب الله المختار ، وأن السماء خصته برحمتها ، وساء ظن كل شعب بالشعوب الأخرى ، فأراد الله أن يزيل هذه الفوارق بين الناس ، وأن يجعل الناس جميعاً أمة واحدة ، فأرسل نبياً عالمياً إلى الناس كافة ، وأمده بقوة روحية لا حد لها ، فكانت عالمية فى الزمان والمكان ، لتبقى إلى أبد الآبدين . انتهت سلسلة الأنبياء المرسلين لهداية شعوبهم وحدها ، بظهور عيسى بن مريم ، وقد قال إنه ما جاء إلا لهداية أغنام بيت إسرائيل الضالة . ولما حان وقت إرسال رسالته إلى العالم أجمعين ، أرسل النبي محمداً صلى الله عليه وسلم ، فظهرت شمس الهداية فى سماء بلاد العرب ، لتنير العالم كله ، وتهديه إلى الطريق القويم .

نزل الرسل وفى يد كل منهم مشعل من نور الهداية . وما كانت هذه المشاعل لتضيء إلا أفقاً خاصا ، ولكن ما أشرقت شمس الإسلام ، حتى بهرت هذه المشاعل ، وأصبح نورها وحده كافياً لإنارة السبيل أمام العالم حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

اتحاد البشرية

من الواضح استحالة الوصول إلى هدف فى الحياة ، ما لم يكن أمام أعيننا هذا الهدف واضحاً جلياً ، وكان هدف كل نبي هداية شعبه ، وضم الأفراد المتنافرين فى جماعات متحابة ، وكان هدف النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، ضم هذه الجماعات فى إخاء عالمى عام ، لقد كانت الديانات السابقة ترمى إلى ضم الأفراد فى جماعات ، وهى خدمة جليلة ، أما محمد فقد كان يرمى إلى جعل هذه الجماعات المتفرقة أمة واحدة .

Digitized by Birzeit University Library

وعلى ذلك فميزة النبي محمد الثالثة هي أنه أرسل ليهدى الناس كافة إلى دين الله . على حين أن الرسل الذين أرسلوا قبله كانوا لهداية شعوبهم فقط .

الارتقاء بالطبيعة البشرية

كان هدف الرسالات السابقة السمو بطبيعة من طبائع البشر المتعددة ، فكان كل نبي من الأنبياء آية في صفة واحدة من الصفات ، ولكن النبي محمداً كان آية في جميع السجايا . وجاء ليسمو بأخلاق الناس كلهم . وكان المثل الأعلى للإنسان الكامل . كان كل نبي من أنبياء بني اسرائيل يتصف بصفة واحدة جليلة ، أما النبي محمد فكان يتصف بجميع الصفات الحميدة ، وجمع في شخصه جميع سجايا أنبياء بني إسرائيل ، فكانت فيه رجولة موسى ، ورحمة هارون ، وصبر أيوب ، وجرأة داود ، وعظمة سليمان ، ووداعه يوحنا ، وتواضع المسيح . وكان موسى ، أول أنبياء بني إسرائيل مثال القوة والعظمة . وكان عيسى ، آخر أنبيائهم ، مثال التواضع والحلم والوداعة . وقد جمع النبي محمد هذه الصفات جميعا ، وكانت ظاهرة فيه ظهورا واضحا ، لقد كان كل نبي منهم يشع شعاعا في السجايا الحميدة ، وكان محمد يجمع هذه السجايا ، فكان يشعها جميعا مجتمعة . وهذه هي ميزته الرابعة .

العظمة الكاملة

لكل شخصية عظيمة ناحية تظهر فيها هذه العظمة ، ومجال واحد لنشاطها ، ولكن محمدا صلى الله عليه وسلم ، كان عظيما في كل ناحية . وكان مجال أثره العالم أجمع ، فلو كان مقياس العظمة هو إصلاح شعب متدهور ، فمن ذا يتطاول إلى مكان محمد ؟ ! إنه سما بأمة متدهورة ، وانتشلها من الجهل ، ورفعها إلى السماكين ، وجعلها مشعلا للمدنية والعلم والعرفان . ولو كان مقياس العظمة في توحيد البشرية المفككة الأوصال ، فمن أجدر بهذه العظمة من محمد ، الذي جمع

Digitized by Birzeit University Library

شمل العرب . الذين كانوا قبائل متنافرة متشاحنة . وجعلهم أمة عظيمة جديرة بالوقوف فى وجه أعظم الإمبراطوريات يومئـــذ . ولو كان مقياس العظمة هو إقامة حكم السماء على الأرض ، فمن ذا الذى ينافس محمدا . وقد محا الوثنية من الأرض محوا . ورفع اسم الواحد القهار ؟! ولو كان مقياس العظمةهو السمو الخلقى ، فمن يقف بجوار محمد فى السمو والرفعة والأخلاق بعد أن سماه أعداؤه ، قبل أصحابه ، الأمين ؟! ولو كان مقياس العظمة الانتصار . ومد النفوذ والسلطان ، فمن يدانيه فى هذا ، وقد كان يتيما وحيدا ، لا حول له ولاسلطان ، فأصبح ملكا عظيما ، ومؤسسا لإمبراطورية بقيت ١٣ قرنا صامدة فى وجه جميع المحاولات الخائبة التى بذلت للنيل منها ، إن هذا ليس له نظير فى تاريخ البشرية جمعاء . ولو كان مقياس العظمة هو الأثر الذى يخلد فى النفوس على مر الأجيال ، فإن محمدا فريد فى هذا الباب . فإن ذكره لا زال حتى اليوم مستحوذا على أفئدة أربعمائة مليون من الناس فى مختلف البقاع ، وإنهم مرتبطون بفضله بروابط الأخوة ، بغض النظر عن أوطانهم وألوانهم وطبقاتهم . وهذه هى ميزته الخامسة ولا شك .

محمد ليس وليد بيئته

وميزة محمد السادسة ، أنه ليس وليد بيئته ، فإن الظروف كثيرا ماتكون عاملة على خلق من نسميهم عظماء الرجال ، فإذا ما ظهر الجدل بين قوم من الأقوام . عن حقيقة علمية ، فسرعان ما يظهر بينهم فيلسوف يجلو لهم الحقيقة ، وإذا أصبح الغزو طبيعة عصر من العصور ، فسرعان ما يظهر القائد المرتقب ، كذلك الحال فى مختلف النشاط الإنسانى . كالشعر والفن والنحت والتصوير والموسيقى ، وحتى التعاليم الخلقية والنفسية والوعظية ، فإن البيئة ، والجو ، هما اللذان يمهدان الطريق لظهور الشاعر والمثال ،

Digitized by Birzeit University Library

والمصور . والموسيقى ، والواعظ وغيرهم ، وإن جل الزعماء الذين اشتهرت أسماؤهم ، ماظهروا إلا تحت ضغط الحاجة إليهم ، فإذا ما اشتدت الحاجة إلى بطل من الأبطال ، ظهر هذا البطل ، ولكن ظهور النبي كان يخالف ذلك كل المخالفة ، فما كانت حالة بلاد العرب ، وقت ظهوره ، تبشر بظهوره ، بل إن ظهوره كان مضادا لحالة العرب آنئذ . كانت الوثنية ، وتعدد الآلهة شيئا عاديا فاشيا ، ولكن النبي هاجم الأوثان وعبادتها وهو فى السادسة عشرة من عمره ، وكانت الخزعبلات ، والأمراض النفسية فاشية ، فكان ذلك لا يبشر بظهور نور الحق . وكان المجتمع العربى غارقا فى لجج الجهالة . أفكانت هذه الظروف مبشرة بظهور فيلسوف أعظم كالنبي ؟ كان الأفراد ، فى جميع بلاد العرب ، يفاخرون بالخروج على القبيلة ، وكانت كل قبيلة فى قتال مع الأخرى . وكان الجميع يكرهون فكرة الحكومة المركزية . أو السلطان الحاكم ، فهل كان من المرجو ظهور رجل يدعو إلى الوحدة والحكم المنظم ؟ ! كانت الخمر والميسر ، واللذات الجنسية ، هدفهم ، وكان وأد البنات فاشيا بينهم ، وكانت النساء تعامل معاملة الأنعام ، أفكانت هذه الظروف مبشرة بظهور نصير المرأة ومحررها والمدافع عن حقوقها ؟ ! مما لاشك فيه أن يد الله القوية ، التى أودعت اللؤلؤ قاع البحار ، هى التى أخرجت هذا النور الساطع من وسط هذا الليل الحالك الظلام ؛ ليبدد سحب الفساد . وليظهر العالم من أدرانه وأوزاره .

أساس السلم العالمى

وإليكم ميزة النبي العظمى ، ألا وهى وضع أساس سلم عالمى ، فهو لم يضع الأسس التى يعيش الأفراد بمقتضاها ، فى سلام ، جنبا إلى جنب فحسب ، بل علمهم كيف تعيش

Digitized by Birzeit University Library

القبائل والشعوب فى سلام ، وعلمهم ، ما لم يحرؤ أحد قبله على إتيانه ، علمهم كيف تعيش العقائد والأديان جنبا إلى جنب فى سلام ووئام . إنه أعظم من ظهر على وجه الأرض ، ومع ذلك كان عظيم التواضع ، لا يعتبر نفسه إلا إنسانا عاديا كسائر البشر : « قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى » كان يعتبر نفسه فردا من الأفراد ، له مالهم من حقوق ، وعليه ما عليهم من واجبات : حقوق للجميع متساوية ، وواجبات على الجميع متساوية ، لا فرق بين كبير وصغير ، ولا ذكر ولا أنثى ، وهذه هى عدالة الإسلام .

شكر وتهنئة

تتقدم لجنة النشر للجامعيين بالشكر الجزيل لكل من الأساتذة : مصطفى السقا المدرس بكلية الآداب ، وكامل عجلان المدرس بالأزهر ، وعبد الحميد جوده السحار على ما بذلوه من مجهود فى مراجعة وتحقيق « محمد رسول الله » ، وتزجى اللجنة تهنئتها للأستاذ الزميل على احمد باكثير بمناسبة نجاح مسرحيته : « سر الحاكم بأمر الله » و « عودة فرعون » فى مسابقة الفرقة القومية للتأليف المسرحى ، والأستاذ باكثير كاتب موهوب ، نال جوائز جميع المسابقات الأدبية التى اشترك فيها ، فقد فازت مسرحيته أخناتون ونفرتيتى فى مسابقة الفرقة القومية عام ١٩٣٨ وفازت قصته سلامة القس بجائزة السيدة قوت القلوب ، وفازت قصته الرائعة واسلاماه بجائزة وزارة المعارف ، وهاهوذا يفوز بجائزتين فى مسابقة الفرقة القومية الأخيرة ، فله خالص التهنئة .

Digitized by Birzeit University Library

لجنة النشر للجـــامعيين

من أقوال الصحف والمجـلات

« هذه اللجنة ظاهرة أخرى من ظواهر ما يمكن أن نسميه عصر الإحياء »

« البـلاغ »

« لجنة النشر للجامعيين » نشرت كتباً قيمة ملأت بها فى عالم القصة المصرية فراغاً كبيراً ، إن لم يكن فراغاً مخيفاً »

« الرسـالة »

« سلسلة لجنة النشر للجـــامعيين هى السلسلة التى يحق للشباب أن يفخر بما له فيها من قدح معلى وقسط كبير »

« منبر الشرق »

Digitized by Birzeit University Library

أحمس بطل الاستقلال

للأستاذ عبد الحميد جودة السحار «نفدت»

هذه القصة تعتبر تفصيلا لما أجمله التاريخ، قصة تعود بنا إلى نحو أربعة آلاف سنة، عند ما احتل الهكسوس مصر، وكيف قهر أحمس الملك الفرعونى آخر ملوكهم، وأعاد إلى مصر استقلالها، وخلصها من ذل الاستعباد. ومؤلف هذه القصة الأستاذ عبد الحميد جوده السحار، وقد صاغها فى شكل قصصى جذاب، وأسلوب سلس، وحوار بارع.

«الصباح»

رادوبيس

للأستاذ نجيب محفوظ

«القصة الفائزة بجائزة السيدة قوت القلوب»

قصة أول غانية فى التاريخ، تهدى إليها القربان، من مهج الأبطال، وعروش الفراعنة

نفدت الطبعة الأولى — الطبعة الثانية قريبا

أبو ذر الغفارى

مصدر ببحث «الاشتراكية فى الإسلام»

للأستاذ عبد الحميد جوده السحار

نفدت الطبعة الثانية — الطبعة الثالثة قريبا

«هو كتاب نفيس، يعرف القارىء بشخصية صحابى زاهد جرىء لايبالى فيما عرفه من الحق لوم لائم، وقد كفر بالأصنام قبل أن يؤمن

Digitized by Birzeit University Library

بالنبي ، وعرف الله بعقله قبل أن يعرفه من وحي الرسالة .

أود أن أثني على المؤلف الفاضل وكتابه وأحض على اقتنائه ، فليس الخلفاء والولاة والقواد والملوك هم وحدهم الجديرين بالترجمة ، ومما يضاعف فضل المؤلف أنه أثار بحثاً يحسن التوسع فيه لإمكان الانتفاع بما نخرج به منه في هذا العصر ، الذي تصطرع فيه المذاهب ، ويضطرب العالم اضطرابا لم يسبق له نظير في التاريخ ، وقد أحوجت الحرب كل أمة إلى النظر في شئونها محاولة تنظيمها على نحو جديد ، يكون أعدل وأكفل بإزالة الفوارق الكبيرة بين الطبقات وتحرير الخلق من رق الفاقة والمرض والبطالة وما إلى ذلك .

البلاغ ، من مقال للأستاذ المازني .

قد وفق المؤلف إلى إيضاح مواقف أبي ذر ، وأظهر بواعث الإيمان الخالص في حياته المليئة بالكفاح والنصح لدين الله ، والحدب على جمهور المسلمين ، وشرح وجهة نظره رضوان الله عليه في الاعتراض على مظاهر الترف ، وأخلاق الرفاهية التي كانت قد بدأت تعمل عملها بين المسلمين .

الأستاذ حسن البنا

قنـــــابل

البصير : العدد ١٤١٦٨ - ١٤ يناير سنة ١٩٤٤ ، بقلم صديق شيبوب

الأستاذ محمود تيمور بك قصاص ماهر في إحكام الحبكة وإطلاق الحوار ، يمتاز فنه ببراعته في وصف الأشخاص ، وقد مثل خطر الموت الجاثم على صدور أشخاص مسرحية المخبأ رقم ١٣ ، وعاد إلى مثل هذا الموضوع في مسرحية «قنابل» في شكل أبرز من قبل ، حيث يجد أشخاص

Digitized by Birzeit University Library

هذه المسرحية خطر الموت يهددهم حيث كانوا ، فالغارات فى القاهرة وحمى التيفوس منتشرة فى القرى التى انتقلوا إليها فراراً من الغارات ، والفلاحون يتقاتلون فى سبيل «مقطفة» ويهددون منزل الشيخ أبى اليسر، وقد أبرز تيمور بك ذلك العراك بين الحياة والموت فى صورة طريفة ، وعرف كيف يستخلص العبرة من هذا جميعه .

المقتطف : فبراير سنة ١٩٤٤ ، بقلم : حسن كامل الصيرفى .

سجل تيمور بهذه المسرحية فترة كانت أشد الفترات قتاماً وحيرة وتشاؤماً وفزعا ، فهو يطلعنا على حيرة النفس الانسانية بين غريزتها فى حب الحياة ، وما فرضته عليها عقيدتها وإيمانها بالقدر ، فرضيت أن تتظاهر وراء العقيدة بما تفرز منه الغريزة الغلابة التى تلجأ إلى دعاوى أخرى تستر بها فزعها . فهم يفرون من غارات المدن بدعوى إصلاح الريف ، فلما وجدوا الموت الذى فروا منه كامناً لهم فى حوادث الريف وأوبئته، عادوا إلى المدينة بدعوى مشاركة الشعب فيما يقاسيه من آلام . . .

مجلة الأديب البيروتية : إبريل سنة ١٩٤٤ ، بقلم أحمد مكى

للأستاذ تيمور صفة الأديب فى وحدة تفكيره ، وتحديد هدفه الفنى وهو بارع فى الاخراج ، دقيق فى درس المظاهر الاجتماعية ، وروعة تصويرها . . . فمسلاته قنابل يحاول فيها أن يمثل لنا سيطرة الغريزة على بعض الناس حتى يعجز أحدهم من ضبط نفسه أمام الحوادث العادية ... وفيها كذلك عقلية من نوع آخر ، أعنى عقلية محافظة مستسلمة قانعة بإزاء عقلية الشيخ أبى اليسر المضطربة الخائفة المتظاهرة بالتجدد فى كل شىء .. والمسلاة مصرية بكل ما فيها ؛ بأشخاصها وحوادثها وغايتها . وهى على جانب من الدقة فى التصوير .

Digitized by Birzeit University Library

البشير : ١٠ يناير سنة ١٩٤٤ بقلم : أحمد الشرباصى

تصور المسرحية كيف تقوم الحرب الطاحنة بين العقل الواعى والعقل الباطن فى الإنسان ؛ الأول يقيدها بقيود الدين والأخلاق والعرف والمظاهر ، والثانى يدعوها إلى حب الذات وإشباع الشهوات والاستجابة للغرائز فيقف المرء بينهما حائراً أشد الحيرة وخصوصاً إذا كان من الملحوظين فى الهيئة الاجتماعية كالشيخ « أبى اليسر » فلا يجد مفراً من التزوير والتضليل . . .

الفصول : أول ديسمبر سنة ١٩٤٣

تدور القصة حول سلطان العقل والغريزة وأيهما يسيطر على الإنسان ولأيهما يستمع ، وقد أطلق تيمور شخصياته تعيش فى هذا النضال وتضطرب وتتناقض وتحيا تارة فى ضوء العقل الذى هو من الوعى الظاهر ، وتارة فى ظل الغريزة التى هى من الوعى الباطن . . .

النبراس : ٢١ ديسمبر سنة ١٩٤٤

المسلاة قريبة فى تصويرها للوسط المصرى فى هذه الحرب بين القنابل فى المدن والجهل والمرض فى الريف ، رائعة فى استنطاق شخوص هذا الوسط ، يتجلى فيها روح تيمور الفنان الساخر الرفيق بقوة تشتد شيئاً فشيئاً حتى تقف أخيراً وحدها أمام القارىء بكل ماعرضت وأثارت .

مجلة المشرق : كانون الأول سنة ١٩٤٤م ، بقلم : صبيح النهوند

(نبذة من مقال طويل)

خير ماعند المؤلف فى الأدب التمثيلى ؛ فقد تعمد فيها تصوير بيئتين ، والمقابلة بين قوتين ،

Digitized by Birzeit University Library

أما البيئتان فهما الطبقة العليا والطبقة الدنيا ، وأما القوتان فهما الفطرة والعمل .

اخناتون ونفرتيتى

للأستاذ على أحمد باكثير

المسرحية التى نالت الجائزة الممتازة للتأليف المسرحى

فى الفرقة القومية عام ١٩٣٨

« تصور صفحة ناصعة من تاريخ مصر الروحى القديم ، وهى فى القمة من الفن المسرحى موضوعا وحركة وتوزيعا »

(الرسالة) من مقال للأستاذ دريني خشبة

نفدت الطبعة الأولى

ثلاثة رجال وامرأة

للأستاذ ابرهيم عبد القادر المازنى

٢٠ قرشا

عدد ممتاز

القصة التحليلية العصرية التى قرظتها الأهرام ، البلاغ ، المقتطف ، مجلة الراديو المصرى .

قصة رائعة لأدب حديث

نفذت

أقاصيص

للأساتذة : المازنى - تيمور - المصرى - سعيده عبده - ذهنى - عادل كامل - أبو الفضل - نجيب محفوظ - السحار

« أصابت اللجنة كثيراً من التوفيق حين نشرت فى كتاب واحد مجموعة من الأقاصيص ، دبجتها أقلام مختلفة ، بحيث تمثلت فيها أساليب بعض القاصين المصريين ، وتمثيل أساليب مختلفة فى كتاب واحد يمكن القارىء أن يتبين مختلف الاتجاهات التى ينحو نحوها طائفة من القاصيين

Digitized by Birzeit University Library

المعاصرين ، [illegible]

يتميز بها والوسائل التى يتناول بها فنه »

(المقتطف)

سلامة القس

للأستاذ على احمد باكثير

نالت جائزة السيدة قوت القلوب الأدبية

نفدت الطبعة الأولى   الطبعة الثانية قريبا

« سلامة القس ، تلك القصة العجيبة الجيدة ، التى تمتاز بقوة تماسكها وجمال موضوعها ، وتناسق عاطفتها ، ومسحتها الشعرية الغامرة

الأستاذ دريني خشبة (الرسالة)

« كاتبها هو الشاعر الأديب الأستاذ على احمد باكثير ، وقد نالت قصته هذه قبل نشرها فى كتاب جائزة السيدة قوت القلوب الدمرداشية وكان فوزها بالجائزة عدلا وحتما .

« ومن حقه أن يعرف له أهل الأدب حقه وفضله وأن ينزلوه منزلته ، وإنها لكبيرة »

الأستاذ المازنى (البلاغ)

رباعيات الخيام (بالزجل)

للأستاذ حسين مظلوم رياض

للزجل فى غير مواقف الطرب والنشوة والموسيقى مواضع أخرى للخلود والعظمة ، تسابق فى ميدانها أئمة الفن ، وأمراؤه ، الذين نشؤا فى ظل دوحته ، وتساقوا كئوسه صافية مترعة ، فكانوا جميعا قوة للفن ، وحياة وتجديدا ، ثم شاء شيخ الزجل بغير منازع ، وأمامهم بغير مدافع ، صديقنا الأستاذ الكبير حسين مظلوم رياض أن يتوج جهود

Digitized by Birzeit University Library

زملائه بآية خالدة لم يسبق اليها ، فعمد إلى ترجمة رباعيات الخيام بالزجل فيسر الله له الطريق ، ووهبه الإلهام فسكبها فى ثلاثة أناشيد ، فجاءت مثلا أعلى لروح الخيام ، وخلودا دائماً لفن الزجل

الأستاذ محمود رمزى نظيم (من مقال طويل فى البلاغ)

بلال مؤذن الرسول

للأستاذ عبد الحميد جوده السحار

« قد جرى الأستاذ السحار فى كتابه الجديد على نهجه فى كتابه الأول ، فهو لا يسرد الترجمة سردا كأنما يتحدث عن مادة جامدة لا تحس ولا تدرك ، بل يحاول أن يصور حياة المترجم له ، ويفيض عليها الحركة والشعور والادراك ، ويرسم ما يحدث من التفاعل بين صاحبها ، وما يحيط به .

ولهذه الطريقة ميزتها الواضحة ، فليس كل الناس سواء فى طلب التاريخ والرغبة فى الاطلاع عليه ، وكثيرون يزهدون فى كتب التراجم ، ولكنها إذا صيغت على نهج ما تساق القصة ، وطبعت بالطابع الانسانى ، صارت أخف محملا ، وأسهل مطلباً (البلاغ) الأستاذ المازنى

قرأت كتاب بلال ، وتركت نفسى تنقل مع المؤلف إلى الجو النقى المؤمن الذى رسمه للسلف الصالح وحياتهم الكريمة ، ومدنيتهم الفاضلة ، فلم أر بلالا فقط فى أطوار حياته المتصلة بالكفاح ، ولكنى رأيت معالم الدعوة الأولى ومراحل جهادها الجديرة بالتسجيل والتصوير ، الجديرة بالتآسى والاعجاب ، وقد استطاع الكاتب أن يدرك الغرضين جميعا ، فأرخ لحياة خاصة ، كما أرخ لعصر خطير ،

Digitized by Birzeit University Library

ويجد القراء فى صفحات الكتاب صوراً حية ، تفيض بقوة الشعور ، وبسورة الفقيدة ، وأسلوبها طلياً جذاباً يشوق النفس من بدايته إلى نهايته ، (من مقال طويل) مجلة الاخوان المسلمين

ع الماشى

للأستاذ الكبير ابرهيم عبد القادر المازنى

« قد وفق الأستاذ فى اختيار اسم الكتاب كل التوفيق ، فهو مجموعة مشاهد وأقاصيص وقعت حوادثها « ع الماشى » فى لبنان والعراق ومصر ، فسجلها المؤلف الفاضل « ع الماشى » بأسلوبه الفكه الفريد ... »

« وقد صيغ حوار أقاصيص « ع الماشى » بأسلوب فاتن أخاذ ، يستحوذ على القارىء فيقبل على قراءة الكتاب بشغف وسرور »

« والأستاذ المازنى قاص ممتاز يكتب الموضوع المألوف فيسمو به ، وينفخ فيه من روحه الظريفة فيجعل من المألوف شيئاً طريفاً يثير الإعجاب »

« وعلى العموم فكتاب « ع الماشى » كتاب ظريف بكل معنى الكلمة ، ينبغى اقتناؤه فى هذا الظرف الذى عز فيه الابتسام »

(من مقال طويل) (البلاغ)

حديقة أبى العلاء

للاستاذ كامل كيلانى

شرح ونصوص علائية — مصرع الفنان ونصوص أخرى . الكتاب الذى قدمته اللجنة فى العيد الألفى لأبى العلاء المعرى .

Digitized by Birzeit University Library

كفاح طيبة

للأستاذ نجيب محفوظ

القصة الفائزة بجائزة وزارة المعارف

« أحاول أن أتحفظ فى الثناء على هذه القصة . فتغلبنى حماسة قاهرة لها ، وفرح جارف بها .... هذا هو الحق ، أطالع به القارىء من أول سطر ، لأستعين بكشفه على رد جماح هذه الحماسة ، والعودة إلى هدوء الناقد واتزانه ! !

« اليوم أتلفت فأجد بين يدى القصة والملحمة ، كلتاهما عمل فنى واحد فى « كفاح طيبة » ، فهى قصة بنسقها وحوادثها ، وهى ملحمة — وإن لم تكن شعراً ولا أسطورة — بما تقتضيه من وجدانات ومشاعر لا يفيضها فى الشعر إلا الملحمة .

« إن كل شخصية من الشخصيات فى هذه القصة لهى شخصية إنسانية وشخصية مصرية فى آن ، وأن كل موقف من مواقفها لهو الموقف الطبيعى الذى ينتظر من الآدميين المصريين ، وإن السياق الفنى لهو السياق الذى يلحظ الدقة الفنية بجانب الهدف القومى ، بلا مغالطة ، ولا ضجة ولا بريق .

« قصة (كفاح طيبة) هى قصة الوطنية المصرية ، وقصة النفس المصرية تنبع من صميم قلب مصرى ، يدرك بالفطرة حقيقة عواطف المصريين »

« لو كان لى من الأمر شىء لجعلت هذه القصة فى يد كل فتى وكل فتاة ، ولطبعتها ووزعتها على كل بيت بالمجان ، ولألقت لصاحبها — الذى لا أعرفه — حفلة من حفلات التكريم التى لا عداد لها فى مصر للمستحقين وغير المستحقين »

للأستاذ سيد قطب

(الرسالة)

Digitized by Birzeit University Library

« لقد وفق المؤلف كل التوفيق فى قصته التى فازت بجائزة وزارة المعارف، وفق باختيار موضوعه، ووفق فى الاخلاص لحقائق التاريخ، ووفق بمذهبه فى الخيال الجميل، ووفق أخيراً بأسلوبه المكين، وأشهد أن توفيقه فى هذا كله جاوز كل ما كنت أتوقع عند ما رأيت الكتاب، فإن من السهل على قارىء هذه القصة أن يتبين دقة المؤلف فى تحرى وقائع التاريخ، وتمكنه من موضوعه تمكن الدارس المحقق، إلى جانب طلاوة أسلوبه، ونقاء لغته، وأناقته فى عرض موضوعه الشيق باحداثه وأشخاصه، ولذلك كانت هذه القصة جديرة بالقراءة، بل واجبه القراءة فلن يندم القارىء، على الزمن الذى يقضيه فى قراءتها بل انه ليرجو وهو يشرف على نهايتها لو أنها كانت أطول، أو لو عاد المؤلف فكتب قصصاً أخرى كثيرة من طرازها »

(مجلة الراديو المصرى) الأستاذ احمد عبد الغفار

خريف امرأة

للأستاذ ابراهيم المصرى

« هو عنوان مجموعة قصص نفثتها يراعة الأديب الروائى المشهور الأستاذ ابرهيم المصرى، ونشرتها لجنة النشر للجامعيين. ونعم ما فعلت

« إن المؤلف يعرض حوادث من صميم الحياة محكمة السبك، مرتبطة الأجزاء ويسرد انفعالات وعواطف نفسية جياشة، وأحياناً جامحة، يحللها تحليلا عقلياً بسيطاً يدرك القارىء فحواه بالتلميح من سياق وسرد الحوادث

« ويجد القارىء فى مطالعتها لذة ومتعة روحية، ولاسيما إذا كان من المفكرين الراعبين فى درس فلسفة الحياة »

الاهرام

Digitized by Birzeit University Library

عشاق العرب

للأستاذ كامل عجلان

« هى خمس قصص حوارية من أروع قصص الحب فى الأدب العربى أولاها ، حبابة ، وثانيها جميل ، وثالثها زينب بنت اسحاق ، والرابعة قيس ولبنى ، ثم الخامسة غادة الهودج وهى أطولها وكان الأحرى اختصاصها بكتاب قائم بذاته . . . وغادة الهودج التى نثرها الأستاذ عجلان هى قصر الهودج التى نظمها صديقنا الأستاذ باكثير . . وقد وفق كل منهما توفيقاً كبيراً فى الوصول إلى هدفه .

(الرسالة)

اللجنة — ستظهر غادة الهودج فى كتاب مستقل قريبا .

مليم الأكبر

للاستاذ عادل كامل

كان ظريفاً من لجنة النشر للجامعيين أن تختار هذه القصة بالذات لتقدمها لجمهورها من القراء لتعطيهم مثلا من أمثلة التحكيم الأدبى فى مصر ، وخصوصاً ذلك التحكيم الرسمى العجيب . . وقصة مليم الأكبر تشمل مقدمة ضخمة فى ١٢٨ صفحة هى من أثمن المقدمات الأدبية التى تذكرنا بمقدمات برناردشو الممتعة . « الرسالة »

« هذا كتاب يجب أن تقرأه . لا لأنك ستوافق على كل ماجاء فيه ، ولا لأنك ستنبذ كل ماجاء فيه ، ولكن لأنه سيثير انفعالك بالرضى مرة وبالسخط مرة ، ولأنه سيدعوك إلى التأمل والتفكير فى كثير من القضايا المسلم بها فى الأدب والفن والأخلاق ، والنظم الاجتماعية

Digitized by Birzeit University Library

والاقتصادية ، لتنبذها وتحطمها أو لتذود عنها وتتمسك بها » .

« وأيما كتاب استطاع أن يستجيش انفعالاتك على هذا النحو ، فهو كتاب قد وهبت له الحياة » .

« قصة « مليم الأكبر » هى قصة الصراع بين الطبقات ، مصبوبة فى قالب فنى ، فهى على هذا الوضع من أدب « الوعى الاجتماعى » الذى يدعو إليه جمهور من المفكرين فى جميع أنحاء العالم وتدعو إليه الاشتراكية والشيوعية بشكل خاص .

للأستاذ سيد قطب (من مقال طويل فى الرسالة)

« أمد لك يدى مهنئاً بما أحرزت من توفيق فى مقدمتك عن مليم ، وبارك الله فى مليم هذا ، فإنه لم يكتف أن يقدم لنا القاصى المعروف ، فحسب ، بل فاجأنا مفاجأة سارة ، وكشف لنا عن الأديب الناضج ، الذى استطاع أن يجعلنا نحلق معه فى آفاق رحيبة ، وأجواء فسيحة فترة طويلة دون أن نحس مللا أو فتوراً .

من مقال طويل (منبر الشرق)

فى الوظيفـــة

للاستاذ عبد الحميد جوده السحار

أصدر الأستاذ السحار كتابه الأخير « فى الوظيفة » وهو مجموعة قصص انتقادية عن حياة موظفى الحكومة فى مكاتبهم .

ويمتاز الأستاذ السحار بأسلوب سلس ، ونظرات انتقادية قاسية ، أخرج بها خبايا (الدواوين) ووعرضها على أنظار قرائه .

وللكتاب ميزة عجيبة فهو يدفعك إلى كتابة استقالتك من الحكومة بعد قراءة الصفحة العاشرة منه !

عن مجلة روز اليوسف

Digitized by Birzeit University Library

« يعد كتاب فى الوظيفة ثانى كتاب من نوعه فى الأدب المصرى ، بعد كتاب « يوميات نائب فى الأرياف » ،

« وكتاب فى الوظيفة حافل بشتى الصور الرائعة عن حياة الوظيفة ، وما يتصف به نفر من صغار الموظفين من الضعة ،

« إن المحسوبية ، والاستثناء والرشوة موضوع كتاب واحد ، عنوانه الظلم والاستبداد ، ولكن المؤلف استبدله بعنوان « فى الوظيفة »

عن مجلة الصباح

كتاب طريف أخرجه الأستاذ السحار ، والأستاذ السحار كاتب ، شاب وثاب ، استطاع فى فترة قصيرة جداً أن ينال إعجاب الراسخين فى دنيا الأدب والفن ، وأن يغتصب تقديرهم غصباً ، ويسلبهم ثناءهم سلباً ، والكتاب الذى نحن بصدده ، مجموعة من القصص ، وإن شئت فقل إنه لوحات فنية لحياة أسيادنا الموظفين فى مصالح الحكومة ، رسمها بقلمه البليغ الأستاذ السحار ، مستوحيا إياها من حياة الواقع التى يختبرها يوميا . إنها صور انتقادية ساقها للتدليل على مواطن الضعف الخلقى فى شخصيات بعض الموظفين ، وكيف أن عدداً منهم يسلك طريق الزلفى ويتشح بالرياء ، ويتقمص الكذب طمعاً فى علاوة ، أو درجة ، أو حتى رغبة فى كسب رضاء الرئيس ، دنيا من الخداع الباطل يصفها المؤلف فيحسن الوصف ، وصور من صميم الحياة يسردها فى كتاب أنيق رشيق ، فيها بعض الفكاهة وبعض الفلسفة ، وفيها بعض الحكمة ، وبعض العبر ، وفيها الإشارة إلى علل الانحطاط الأخلاقى بين فئات المأجورين ، الذين يقبضون أموالهم من الخزانة العامة . (منبر الشرق)

Digitized by Birzeit University Library

تحت الطبع

صفحة

الكاهن الصغير للكاتب الفرنسى الكبير ألفونس دوديه ٤٨٠
ترجمة الأستاذ أبو بكر عبد الرازق

علم النفس التحليلى للأستاذ محمود محمود

واإسلاماه للأستاذ على احمد باكثير
(القصة الفائزة بجائزة وزارة المعارف)

هتاف الجماهير للأستاذ أمين يوسف غراب

مسرحية الأب تأليف أوجست ستر ندبرج
ترجمة الأستاذ وديع فلسطين

الأطياف الأربعة للأستاذ سيد قطب

ملك من شعاع للأستاذ عادل كامل
(القصة الفائزة بالجائزة الممتازة لمسابقة وزارة المعارف)

فى خان الخليلى للأستاذ نجيب محفوظ

سعد بن أبى وقاص وأبطال القادسية للأستاذ عبد الحميد السحار

تحت الطبع — الطبعة الثانية

رادوبيس للأستاذ نجيب محفوظ
القصة الفائزة بجائزة السيدة قوت القلوب

سلامة القس للأستاذ على أحمد باكثير
القصة الفائزة بجائزة السيدة قوت القلوب

بلال مؤذن الرسول للأستاذ عبد الحميد السحار

تحت الطبع — الطبعة الثالثة

أبو ذر الغفارى للأستاذ عبد الحميد ال...

مكتبة جامعة بيرزيت

Digitized by Birzeit University Library

BP/75/.A461/1945

المؤلف علي ، محمد (مولانا)
AUTHOR

اسم الكتاب محمد رسول الله
TITLE

Date Due تاريخ الاعادة

14-06-1993
26 -1- 19.5
31-08-1997
31-05-1999
23-12-1999
21-10-2004
22 DEC 2004
05-04-2006

Digitized by Birzeit University Library

BP75 A461 1945
BIRZEIT UNIVERSITY LIBRARY
A00727
A00727

Digitized by Birzeit University Library